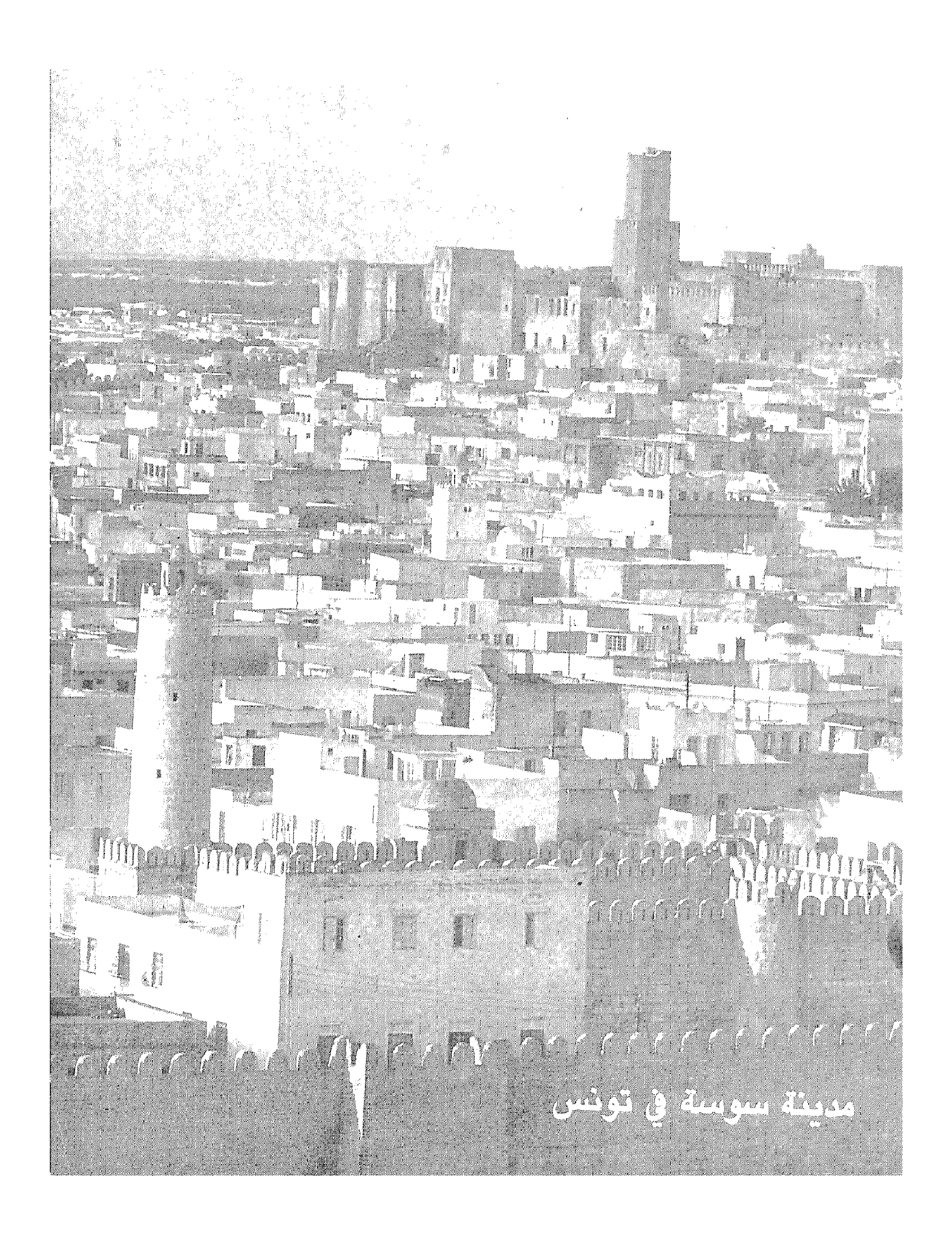
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة . العدد ٥٠ . كانون الأول ١٩٨٢م . الموافق صفر ١٤٠٣هـ .



قصر الحمراء في الأندلس


مدينة سوسة في تونس

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٠ ـ كانون الأول ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط، ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.		سوريا	٩ ل.س.	
العراق	١ دينار		تونس	١,٥ دينار	
السعودية	١٠ ريال		الكويت	١ دينار	
الأردن	٨٠٠ فلس		الامارات	١٠ درهم	
البحرين	١ دينار		قطر	١٠ ريال	
مسقط	١٠٠٠ بيزة		بريطانيا	١,٥ جنيه	
صنعاء	١٠ ريال		ليبيا	١,٥ دينار	

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5, No. 50, Dec. 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

ابن خلدون والتطوّر العمراني

د. الحبيب الجنحاني

ليس من المبالغة في شيء، اذا أفدنا، بادئ ذي بدء، بأن قضايا العمران بنوعيه البدوي والحضري، ومايتصل به من هياكل اقتصادية واجتماعية وسياسية، ولاسيما في المجتمع المغربي تعد أبرز جوانب الرؤية الخلدونية للتاريخ والمجتمع، وبالرغم من القرون الطويلة التي تفصلنا عن المقدمة فاننا نشعر أثناء قراءة جديدة ــ نقدية ولا انبهارية ــ لبعض فصولها بأن تلك الرؤية ماتزال تشدنا الى كثير من جوانبها شداً قوياً. ولعل سر ذلك يعود الى أن كثيرا من تلك القضايا ماتزال مطروحة بأسلوب ما حين نحاول اليوم تحليل المجتمع المغربي خاصة، والعربي الاسلامي عامة. فالرؤية الخلدونية للعمران ليست ــ اذن ــ رؤية ماضوية تراثية، بل هي رؤية تتسم بالدينامية والاستمرارية خلافاً لمن يرى فيها طغيان الجانب الميتافيزيقي، وروح الحتمية، فأنت تشعر لدى بعض الباحثين الذين تناولوا ابن خلدون بالدرس بشيء من الخلط بين منطقه العلمي الجدلي وبين تمثيله لثقافة عصره خير تمثيل من جهة، وايمان المسلم بالحتمية القدرية من جهة أخرى، ولا تناقض بين هذه الحتمية، وذلك المنطق الجدلي في الرؤية الخلدونية.

* * *

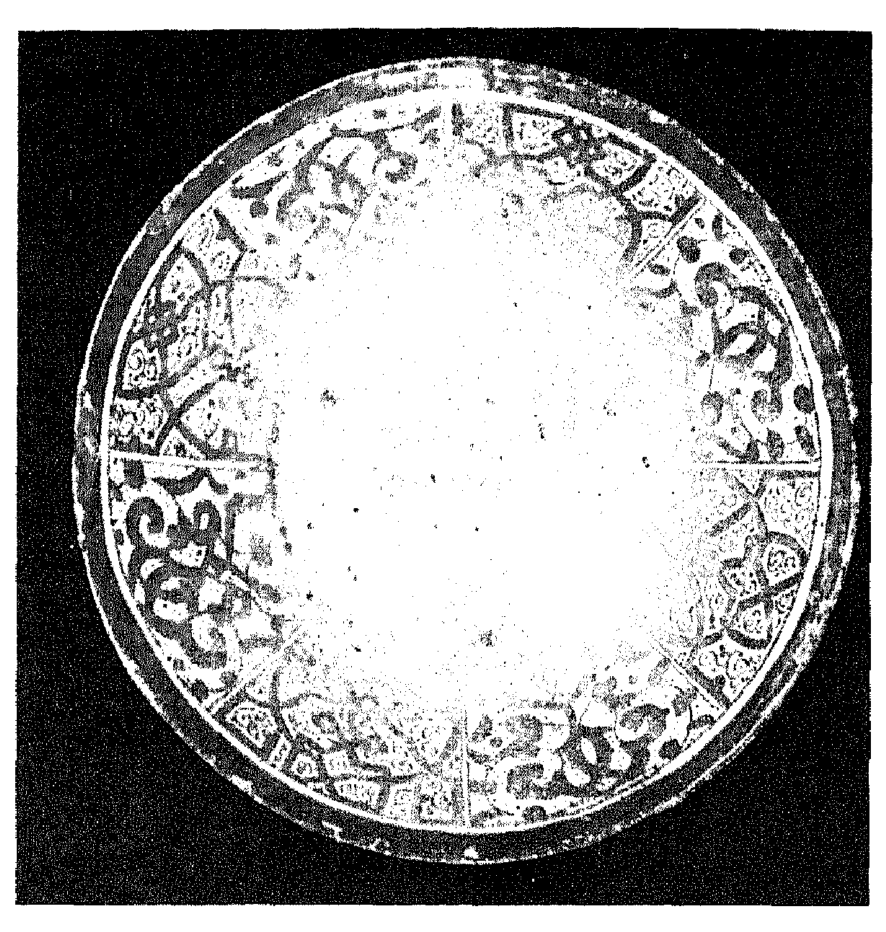
ان حقيقة التاريخ عند ابن خلدون أنه خبر عن الاجتماع الانساني: «أعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش، والتانس، والعصبيات، وأصناف التغلبات البشر بعضهم عن بعض، ومانيشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وماينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاعمال...»(1).

ويلح على ضرورة تحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فحسن النظر والتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، «لان الأخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من

● قدمت هذه الدراسة لندوة «ابن خلدون والفكر المعاصر» ٢٩ جمادي الأول ــ ٣ جمادي الثانية ١٤٠٠ الموافق ١٤ ــ ١٨ أبريل (نيسان) ١٩٨٠ التي نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

● الدكتور الحبيب الجنحاني، أستاذ التاريخ بالجامعة التونسية.

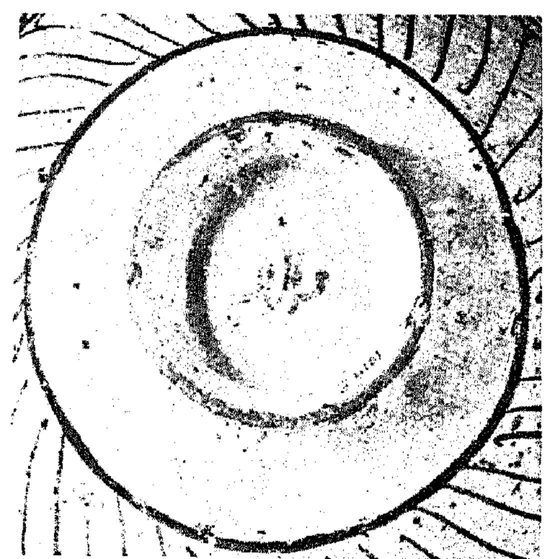
في المغرب الإسلامي



آنيتان خزفيتان مطليتان بطلاء لماع حفر اسم في وسطها، يعود تاريخ صنعهما إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر في «ملقة» حيث كانت، في ذلك الوقت، المركز الرئيسي لصناعة الخزف.

العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات...»(٢).

وتفرق الرؤية الخلدونية بين التاريخ الوقائعي، ولا بد فيه من الاعتماد على مقاييس تفرز الغث من السمين، وتميز الحق من الباطل وبين العمران البشري والاجتماع الانساني، وكأنه علم مستقل بنفسه، وذو مسائل، و«هي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد أخرى.



وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً»(٣).

ولا يخفي ابن خلدون بأن الكلام في قضايا العمران مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى اليه الغوص.

وحين يتساءل المرء عن ماهية هذا العلم الجديد، وعن رواده يجيب ابن خلدون بأنه علم مستنبط النشاة، ولم يقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، (ما أدرى الغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل،فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل»(٤).

ويقارن ابن خلدون بين منهجه في درس قضايا العمران البشري وبين محاولات أخرى معروفة في التراث العربي الاسلامي، فيشير الى ابن المقفع في رسائله، والى القاضي أبي بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك»، و«بوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية، ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، انما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والاثار... ولا يكشف عن التحقيق قناعاً، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا، انما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه، ولا تحقق قصده واستوفى مسائله.

ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاماً، واعثرنا على علم جعلنا سن بكره، وجهينة خبره»(٥). ولا بد من الاشارة هنا الى أن ابن خلدون قد شعر بأن قضايا العمران قضايا متشعبة معقدة، لانها تبحث في الاجتماع الانساني الخاضع في تطوره لعوامل موضوعية متداخلة ومتفاعلة، ولذا فلا مناص من استمرار النظر فيها، ومواصلة السير في الدرب الذي مهده، «فان كنت قد استوفيت مسائله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحائه، فتوفيق من الله وهداية، وان فاتني شيء من احصائه، واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق اصلاحه، ولي الفضل لاني نهجت له السبيل، وأوضحت له الطريق»(٦).

وهنا تكمن ــ في نظرنا ــ معاصرة الفكر الخلدوني، فما تزال كثير من الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المغربي بصفة خاصة متأثرة تأثراً جلياً بالمظاهر العمرانية التي لفتت انتباه صاحب المقدمة، وقد حاول فهمها وتحليلها، ولا غرابة في استمرارية هذه المظاهر في هياكل المجتمع المغربي المعاصر، وذلك بالرغم من التحول الذي بدأت تعيشه هذه الهياكل ابتداء من القرن التاسع عشر، ولكن هذا التحول لم يكن جذريا وشاملا ليمكن المجتمع المغربي من قطع مرحلة تاريخية جديدة تختلف كل الاختلاف عن عصر ابن خلدون، وبذلك يمكن أن يطغى الطابع التراثي على الرؤية الخلدونية للعمران المغربي.

* * *

ولعله من المفيد هنا أن نتعرف الى مفهوم العمران في الرؤية الخلدونية انطلاقاً من النص الخلدوني نفسه، وذلك قبل دراسة بعض مظاهره، ومقارنتها بالواقع العمراني الذي عاشه المغرب الاسلامي الوسيطي.

ان الاجتماع الانساني ضروري، وهو الذي يعبر عنه الحكماء بقولهم («الانسان مدني بالطبع»، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران»)(٧)، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحضارة، فهي نتيجة حتمية للعمران، فتتفاوت بتفاوته، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل(٨)، ويعتبرها غاية العمران، ونهاية عمره، وأنها مؤذنة بفساده، باعتبارها تعني التفنن في الترف واستجادة أحواله، وما دامت الدولة تسعى دائماً للانتقال من البداوة الى الحضارة فمن الطبيعي أن تهرم، وتسقط ببلوغ العمران غاية لا مزيد عليها، وهي الحضارة وهكذا يبدو أول وهلة أن ابن خلدون يكاد يحصر التاريخ في حركة انتقال دائبة من طور البداوة الى طور الحضارة، وفي هذا الانتقال تلعب الدولة دوراً أساسياً، ويصبح مصيرها مرتبطاً بتمام هذه الدورة، وهكذا يصبح التاريخ حركة دورية حلزونية الشكل، وليست مستقيمة، كما أثبتت ذلك النظرة العلمية الصحيحة لحركة التاريخ البشري. وقد اتهم ابن خلدون فعلاً بأنه يفسر التاريخ تفسيراً حلزونيا غير منتبه الى استقامة الخط البياني للتطور التاريخي.

اننـا نعتقد ان ابن خلدون أراد أن يفسر ظاهرة الدول في تاريخ المغرب بصفة خاصـة، ولم ينظر الى تاريخ المجتمع وتطوره نظرة شمولية. ان تداول النظم السياسية لا يعني أبداً دورية التطور التاريخي. ويبدو أن الالتباس قد نشأ نتيجة ربط نهـاية دول المغـرب ببلوغ الدولة الناشئة مرحلة الحضارة[٩].

ويقسم ابن خلدون، كما هو معروف، العمران الى نوعين: العمران البدوي، ويقتصر سكانه على تسديد حـاجاتهم الضـروريـة من الاقـوات، والملابس، والمساكن، وسائر الأحوال والعوائـد وهم مقصرون عما فوق ذلك ، وبالخصـوص تسديد حاجات ذات طابـع مالي، وأهـل البدو صنفان: صنف يشتغل بالزراعة فيكون مقيماً ويسكن القرى والمداشر والجبال، وصنف ثان يعتمد في معاشه على تربية الماشية، وهم الرحل من أهل العمران البدوي، ومادام التمدن غاية البدوي يجري اليها فان البادية أصل العمران، والامصار مدد لها، ولكل مـرحلة من مرحلتي العمران حاجات معينة تستلزمها طبيعة المرحلة التي يعيشـها مجتمع معين، وليس هنالك فاصل بين المرحلتين، أو قطيعة، بل هنالك علاقة جدلية بينهما،وهذا أمر طبيعي مادامت المرحلة الثانية تولد في أحضان الأولى، وهو غاية أهلها. اننا نلمس في بحثنا لبعض الجوانب الديمغرافية لكثير من أمصار المغرب التي عاشت مرحلة العمران الحضري حسب الرؤية الخلدونية ظاهرة النزوح من البادية الى المدينة الجديدة، وهي تقوم في بدايتها على استقرار بعض القبائل بها، وانتقالها من سكنى البادية الى سكنى المدينة، ولا سيما اذا كانت المدينة تمثل عاصمة دولة جديدة تعتمد على العصبية القبلية، ونذكـر من هذه المـدن تاهرت، وسجلماسة، وفاس، ومراكش[١٠]، وليس من النادر أن تجد عشائر من القبيلة الواحدة استقرت بالمدينة، وأصبحت تخضـع لمعطيـات العمران الحضري، وعشائر أخرى بقيت تعيش في البادية، ولكنها تلعب دوراً أساسياً مهماً في حيـاة المدينـة عن طريق الفئات الاجتمـاعيـة المنحدرة منها، والمستقرة بالمدينة، بـل أصبح استنجاد هذه الفئات بقبائلها البدويـة وسيلة ضغط ناجعة على الحكم المركزي. يخبرنا ابن الصغير عن الوضع السياسي والاجتماعي بتاهرت مشيراً الى أنه لما تغيرت الامور خلا «سكان المدينة بمن انتجع اليهم من رؤسائهم (أي من رؤساء القبائل)، فقالوا لهم أن الامور قد تغيرت، والاحوال قد تبدلت، فقاضينا جائر، وصاحب بيت مـالنا خـائن، وصاحب شـرطتنا فـاسق، وإمامنا لا يغيرن من ذلك شيئاً»[١١].

ان هذه الظاهرة الديمغرافية تكتسي أهمية خاصة في تاريخ المدن المغربية في العصر الوسيط، وقد عاش ابن خلدون هذه الظاهرة في عصره فاتخذها مثالاً على قاعدة عامة من قواعد التفاعل والتداخل. بين صنفي العمران، «ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر، ومتقدم عليه انا اذا فتشنـا أهل مصر من الامصـار وجدنـا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم ايسروا فسكنوا المصر، وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة نائشة عن أحوال البداوة، وأنها أصل لها فتفهمه»[١٢] ولا يغفل ابن خلدون عن الربط بين سكنى هذه الفئات من أهل البدو والمدينة وبين التحول في حياتها الاقتصادية، وهو تحول يسمح لهـا بتسديـد حاجيـات جديـدة يقتضيهـا مجتمع العمـران الحضري، ولـمزيد ادراك هذه الاشارة الخلدونية الهادفة نلمح الى الوضـع الاقتصادي والاجتمـاعي الذيأصبحت تتمتع به فئات نفوسة التي انتقلت من الجبل واستقـرت بتـاهـرت[١٣] أو فئـات المـدرارين بسجلماسة، أو اللمتونيين بمراكش، أو بالمدن الاندلسية. ونورد في هذا الصدد طرح القضايا التالية:

أولاً ـــ ان نـظرة ابن خلدون الى الظواهر العمرانية تشبه نظرته الى الظواهر الطبيعية، فهو كثيراً ما يشبه بينهما[١٤]، وأن الحضارة غاية لا مزيد وراءها، ولذا لا بد من الهرم والتدهور بعد بلوغ تلك الغاية، شأنها في ذلك شأن جسم الانسان بعد بلوغ سن الاربعين، ومن هنا جاء اتهام ابن خلدون بالتأثر بالمنطق السكوني، وعدم قدرته على الخروج من اطار المنظومة الارسطية، فلا غرو ـــ اذن ـــ أن يكرر نفسه، ويفسر التاريخ تفسيراً حلزونياً من جهة، والا تكون له رؤية تطورية مستقبلية مادام «الماضي أشبه بالآتي من

الماء بالماء» من جهة ثانية. أنها فعلاً نقطة الضعف المحيرة في الرؤية الخلدونية.

هل جاءت هذه الحتمية نتيجة تلك الصورة القاتمة التي كان عليها المغرب الاسلامي خلال عصر ابن خلدون (٧٣٢هـ ـ ٨٠٨/ ١٣٢٢ ـ ١٤٠٦م)، وهي الفترة التي بلغت فيها الأزمة العمرانية أوجها، كما سنرى بعد أن عرفت بلاد المغرب تطوراً عمرانياً ذا شأن[١٥] أم هي نتيجة طبيعية لحشر ابن خلدون نفسه ضمن اطار ظاهرة العصبية القبلية في المغرب، وهي الظاهرة التي شغلت فكره فأولاها عناية خاصة، واقتنع في النهاية، وبعد التعمق في دراسة التجربة التاريخية المغربية أنها ظاهرة أبدية حكمت على سكان المغرب بحياة التداول بين صنفي العمران: البدوي والحضري دون امكانية قطع مرحلة تاريخية جديدة؟ ويبقى احتمال ثالث قد لمحنا اليه أنفاً، ونعني بذلك أن نبرة ابن خلدون الى الظواهر العمرانية لم تكن نظرة شاملة تقصد المجتمع البشري كله، بل نظر اليه في منطلق جغرافي معين لا يتجاوز مظاهر العمران الحضري في عاصمة دولة قامت على عصبية قبلية معينة كان أهلها يعيشون بالامس القريب في مرحلة العمران البدوي فحدث هذا التحول في حياتهم، وأدى ذلك الى ضعف العصبية أمام عصبية أخرى ما تزال تعيش مرحلة العمران الريفي فتغلبت، ثم حدث لها ما حدث للعصبية المنهزمة، فليس المقصود ـ اذن ـ بالظواهر العمرانية تلك الظواهر الاجتماعية الكونية العامة في حياة المجتمع البشري، المنطقة، بل تلك المرتبطة بحياة عصبية قبلية معينة[١٦]؟

وأخيراً السنا نحمل الرؤية الخلدونية ما لا تتحمل حين نطالبها باستشراف المستقبل، والتطلع الى أفاقه لأننا نطالبها بذلك حسب نظرة حديثة تبلورت معالمها نتيجة تقدم العلوم الاجتماعية ابتداء من القرن التاسع عشر بصفة خاصة فهنالك اذن ـ عوائق ايستيمولوجية، وبنية عقلية خاضعة لمعطيات عصرها.

ثانياً ـ يعطي ابن خلدون أهمية كبرى للعامل الجغرافي في حياة الانسان والمجتمع، فيجعل البيئة الجغرافية محددة لنمط المعيشة، ومؤثرة في العادات والتقاليد، وفي نظم الحكم، وشؤون الاسرة، بل قل مؤثرة حتى في البنية والميول[١٧].

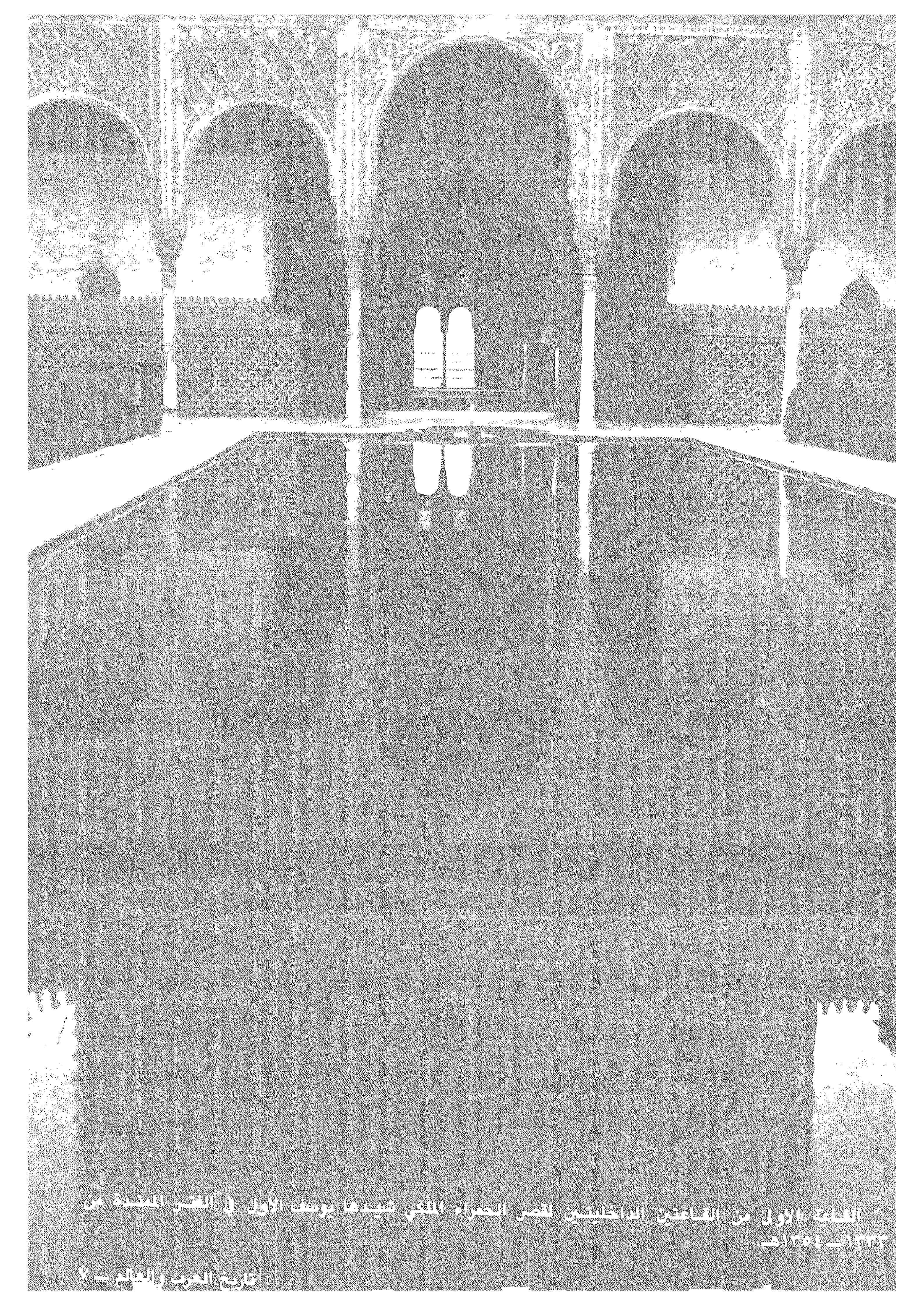
ان الابحاث الحضارية الحديثة أقامت الدليل على أهمية علم التبيؤ البشري (الايكولوجيا) في تفسير كثير من الظواهر العمرانية[١٨]، ونعتقد أن وعي صاحب المقدمة بأهمية هذا العامل قد ساعده كثيراً على فهم سنن العمران المغربي.

ثالثاً ـ لعله من الطريف أن نتساءل عن نوعية التناقض بين صنفي العمران: العمران البدوي والعمران الحضري؛ فهل الأمر لا يتجاوز الاختلاف في أسلوب الحياة، ونمط المعيشة، وقد كمنت وراء مظاهر التحول المعيشي في الأمصار المغربية، وفي أوساط فئات اجتماعية معينة بصفة خاصة عوامل خارجية تتمثل بالخصوص في تجمع ثروات جديدة بأيدي فئات التجار المختصين في التجارة البعيدة المدى، ولا سيما في اتجاه بلاد السودان، مصدر بضاعتين ثمينتين من بضائع العصر: الذهب والرقيق[١٩]، أم أن القضية أعمق بذلك؛ فالظواهر الاجتماعية الجديدة التي يتحدث عنها ابن خلدون في المجتمع المغربي خلال مرحلة العمران الحضري قد برزت نتيجة تحول بطيء في أسلوب الانتاج جعلته عوامل خارجية (ونعني تجارة الذهب بالخصوص) يبدو لنا تحولاً مصطنعاً لا يقوم على أسس النمو التدريجي، وبالتالي لم يكن قادراً على افراز مرحلة تاريخية جديدة؟

ان القضية ما تزال ـ في رأينا ـ مطروحة[٢٠]، ومهما يكن من أمر فان هذا التحول، ان أثبتت الابحاث الجديدة حول نمط الانتاج في مرحلتي العمران البدوي والحضري وجوده، لا يمكن أن يكون الا تحولاً جزئياً محدوداً، ولم يمس هياكل النمط الانتاجي السائد، ولذا فقد كان مفعوله محدوداً جداً.

ان هذه القضية قمينة ـ في نظرنا ـ بالدراسة والتمحيص، لاننا نعتقد بأنه لا يمكن الاعتماد على عوامل خارجية فوقية في تفسير ذلك التحول الاجتماعي الواضح في مرحلة العمران الحضري، وقد أفاض ابن خلدون في تحليله.

ان المدن المغربية هي التي عاشت ذلك التحول في نمط المعيشة وبرزت بين جدرانها تلك الظواهر الاجتماعية الجديدة في مرحلة العمران



القاعة الأولى من القاعتين الداخليتين لقصر الحمراء الملكي شيدها يوسف الاول في الفترة الممتدة من ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤هـ.

الحضري، فلا غرابة ــ اذن ــ أن يهتم ابن خلدون اهتماما كبيرا بالمدن، ويخصص لها باباً يحتوي على ٢٢ فصلاً من المقدمة، منطلقاً من أن البناء، واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة، ونظراً إلى أنها ليست من الأمور الضرورية، فلا بد ــ اذن ــ في تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك، ويجد في تاريخ المدن المغربية المتعددة أمثلة كثيرة، فقد أسس أغلبها ليكون عاصمة دولة جديدة، مثل فاس، وسجلماسة، وتاهرت، ورقادة، والمهدية وقلعة بني حماد، ومراكش.

ومن الشروط التي يجب أن تتوفر في تأسيس المدن توفر الماء بأن تكون المدينة على نهر، أو تؤسس بازاء عيون عذبة ثرة، وطيب المراعي، والمزارع، «فان المزارع هي الأقوات، فاذا كانت مزارع البلد بالقرب كان ذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله»(٢١)، ولا يغفل صاحب المقدمة عن احتياج المدينة في علاقاتها التجارية الى قربها من الواجهة البحرية، «وقد يراعي أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية» (ج ٣ ص ٩٧٥). ان هذه الشروط في تأسيس المدن لم يشترطها نظريا، بل استنتجها من الواقع العمراني المغربي، فأكثر المدن المغربية تتوفر فيها هذه المعطيات، والمتتبع للمناطق العمرانية المغربية في كتب الجغرافيين العرب يلمس أن أكثر المدن المغربية قد توفرت فيها معطيات تأسيس المدنية الاسلامية في العصر الوسيط، وينتقد ابن خلدون سياسة اختيار مواقع الأمصار الاسلامية الأولى مثل القيروان والكوفة، والبصرة حيث لم يراع فيها توفر جميع شروط تأسيس المصر. ويربط ابن خلدون بين المعطيات الديمغرافية في المدينة، ومناخها، وصحة هوائها، أو تعفنه، ويتهم الجغرافي الأندلسي البكري ببعده عن نباهة العلم، وبعدم استنارة البصيرة لأنه يعيد أساطير العامة حول أسباب انتشار حمى العفن بمدينة قابس(٢٢).

وبناء على معرفته بحياة المدينة المغربية الوسيطية يؤكد ابن خلدون بأنه كلما كثر العمران في المدينة ازدادت الحاجات، ولا سيما الكماليات منها فيؤثر ذلك في ازدياد الأسعار في المدينة سواء في ميدان البضائع التجارية، أو في ميدان الصنائع والأعمال، ومن هنا فان البدوي عاجز عن سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه(٢٣).
ان انتشار الترف في المدينة يؤثر تأثيرا سلبيا في أخلاق سكانها، وفي علاقاتهم البشرية، ويلمس القارىء لهذه الفقرة من المقدمة(٢٤) الموقف السلبي الذي يقفه ابن خلدون من انتشار الترف في المدينة، ويعلل في النهاية خرابها بانتشار الرذائل فيها نتيجة التفنن في الترف، «واذا كثر ذلك في المدينة، أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»(٢٥).

ونجد علاقة عضوية متينة في الرؤية الخلدونية الى العمران الحضري بين المدينة والصنائع، فالصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته، ويأتي رسوخها في الأمصار نتيجة رسوخ الحضارة وطول أمدها، واذا دبت عوامل الهرم، والتقلص في مدينة ما فسرعان ما تتضاءل فيها الصنائع وتتلاشى، فلا غرابة أن نجد صاحب المقدمة يولي أهمية كبرى للعمل، ويرى أن قيمة الشيء تتمثل فيما بذل فيه من عمل، «اذ ليس هناك الا العمل»، فالأعمال ــ اذن ــ هي القوة الاساسية الكامنة وراء الحركة العمرانية تنشط بنشاطها، وتتقلص بتدهورها:

«والعمران ووفوره، ونفاق أسواقه انما هو بالأعمال، وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال، وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة من العمران تفسد بفساد مادتها ضرورة»(٢٦).

ولا مناص لنا هنا من التأكيد على العلاقة العضوية بين العمران والسياسة الجبائية في الرؤية الخلدونية(٢٧)، ويبرز تأثيرها الايجابي، أو السلبي في حياة المدن بصفة خاصة، فاذا كانت هذه السياسة معتدلة، بعيدة عن فرض المغارم السلطانية، والمكوس على الرعايا فانهم ينشطون

للعمل، ويرغبون فيه فيكثر الاعتمار، وهو يؤدي بدوره الى تعدد الاعمال وتنوعها فتزداد جباية الدولة على الامد البعيد، أما سياسة اثقال كاهل الرعايا بالمغارم والمكوس فانه يؤدي الى كساد الأسواق، وتقلص العمران، ويعود ذلك في النهاية بالوبال على الدولة نفسها فتقل مواردها الجبائية في نفس الوقت الذي تزداد فيه حاجاتها للاموال في مرحلة العمران الحضري. ان العلاقة متينة بين السياسة والاقتصاد، فالظلم مؤذن بخراب العمران سوى بأن هذا الظلم نتيجة سياسة جبائية مرهقة أو تسليط أنواع أخرى من الحيف والتعسف على السكان وتجاوز الدولة السياسة الشرعية، فلا عز للدولة الا بالرجال، ولا قوام الرجال الا بالمال، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة الا بالعدل» (ج ٢، ص ٨٥٠)، ومن أبرز أنواع العدل في الرؤية الخلدونية العدل الاقتصادي، فالظلم المؤذن بخراب العمران يتجاوز الظلم الجبائي ليشمل ابتكار التجارة من ذوي السلطان، واغتصاب أموال الناس عن طريق سياسة التغريم، وقد اشتهر بها النظام الفاطمي في المغرب[٢٨]، وليشمل بالخصوص تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق.

«ومن أشد الظلمات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق، وذلك أن الاعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق، لان الرزق والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران»[٢٩].

وهكذا نجد الحياة الاقتصادية في المدن المغربية تقدم مرة أخرى أمثلة دقيقة لهذه النظرة الخلدونية.

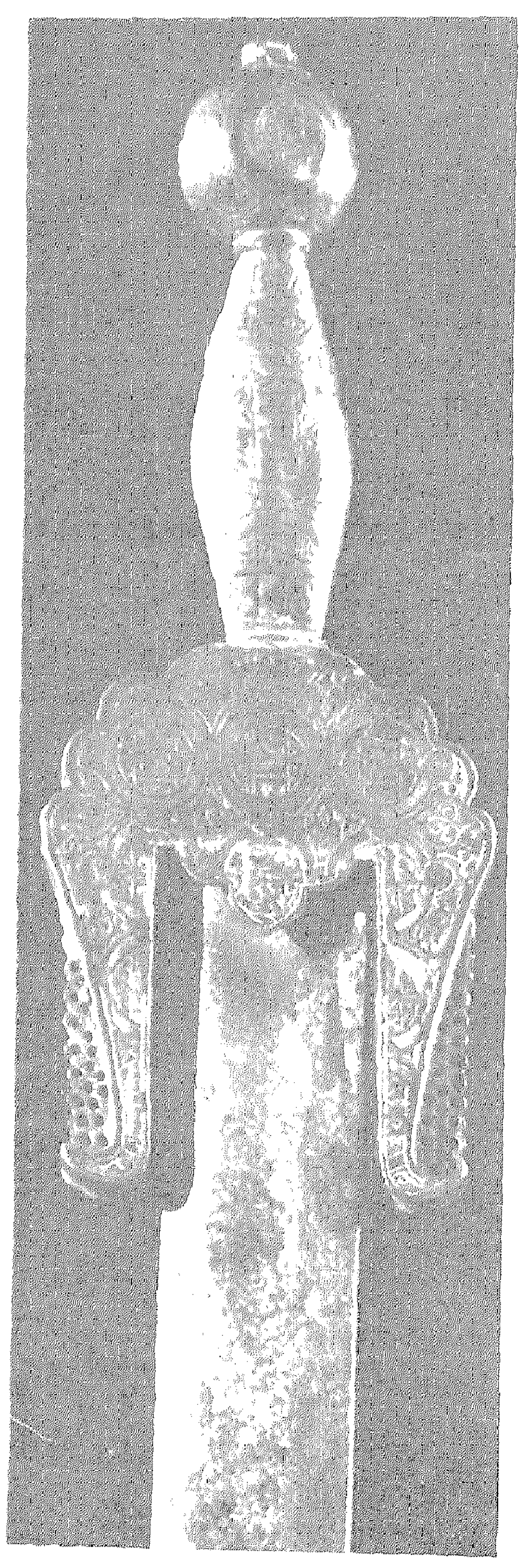
* * *

أود في نهاية هذه العجالة عن الرؤية الخلدونية والتطور العمراني في بلاد المغرب أن أطرح التساؤل التالي:

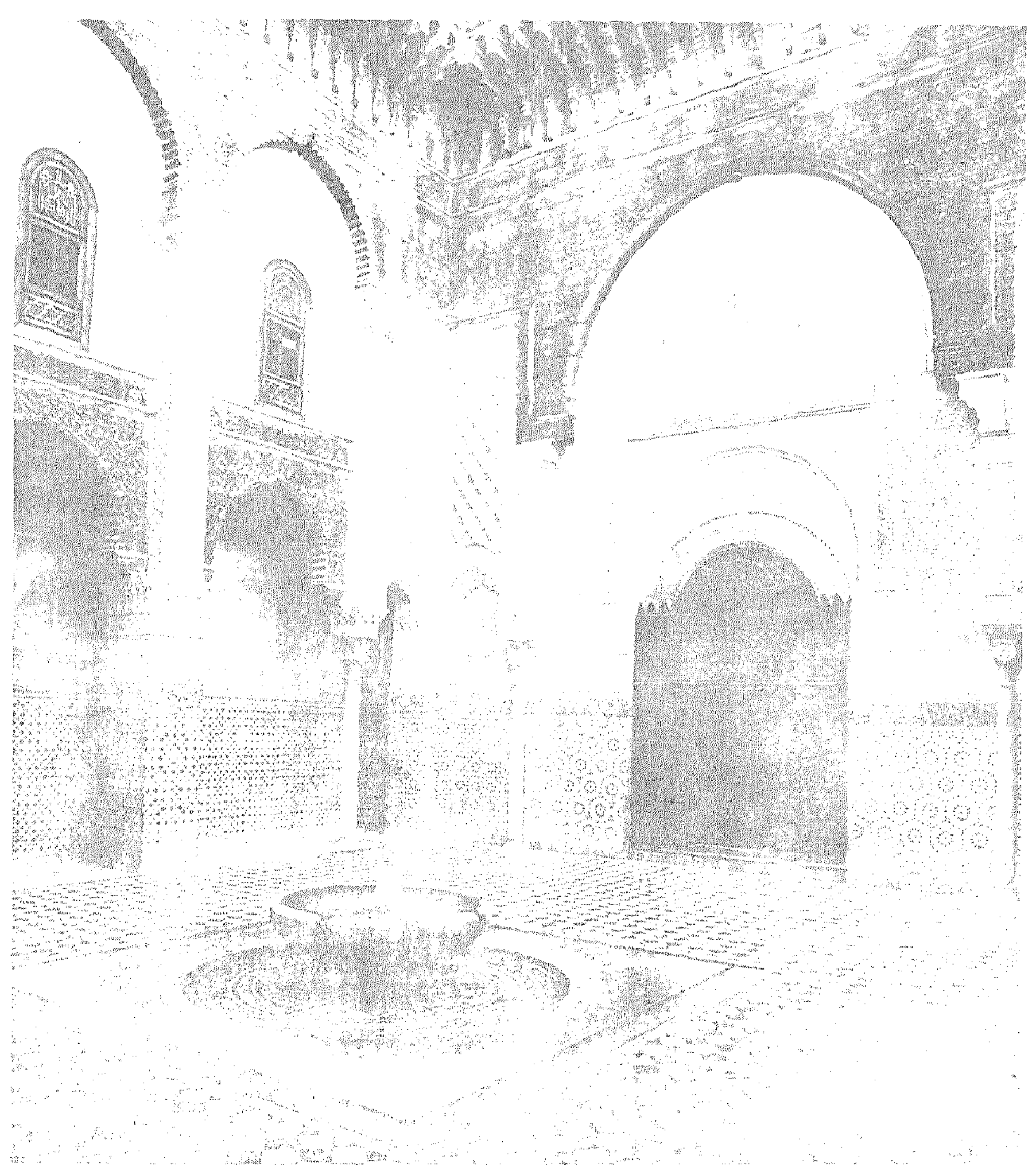
أولاً ــ الى أي مدى كانت الرؤية الخلدونية للتطور العمراني المغربي منطلقة من الواقع التاريخي نفسه؟

ثانياً ــ كيف فسر ابن خلدون ظاهرة التدهور العمراني المغربي؟

انه من المعروف أن ابن خلدون قد قصد بتأليفه أولاً وبالذات تحليل الظواهر العمرانية في



سيف يحمل في المناسبات الرسمية مصنوع من الحديد وله مقبض من النحاس الاصفر، يعود تاريخ صنعه إلى أوائل القرن الرابع عشر ميلادي في غرناطة.



«مدرسة العطارين» سميت كذلك لوقوعها في سوق العطر في «قيصرية» وهو السوق الرئيسي في مدينة فاس ويحيط بمسجد القرويين.

المغرب، والتعرّض لأحوال أجياله وأممه، وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار معللا ذلك بعدم اطلاعه على أحوال المشرق[٣٠] وقد كان متأثراً في تحليله للتطور العمراني المغربي بظروف الازمة الحادة التي بلغتها بلاد المغرب في عصره، أي خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي[٣١].

ان نظرة شمولية للتطور العمراني في المغرب الاسلامي تجعل المرء يلاحظ صعود الرسم البياني لهذا التطور ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، ليبلغ أوجه خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة[٣٢]، ثم يأخذ في الانحدار

ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ليبلغ درجة الهبوط التي نزل اليها في عصر ابن خلدون. اننا نؤكد هنا على النظرة الشمولية لرسم الخط البياني لهذا العمران، لان بعض المناطق الجغرافية قد عرفت تطوراً نسبياً بعد منتصف القرن الخامس الهجري مثل المغرب الاقصى في العصرين المرابطي والموحدي، أو أفريقية في بعض مراحل العصر الحفصي.

أن الازمة العمرانية الحادة التي عاشها المغرب الاسلامي خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فأصيبت مدنه بالتقلص الديمغرافي، والتدهور العمراني، ثم الخراب والتلاشي، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل قد بدأت في حقيقة الأمر منذ منتصف القرن الخامس الهجري، لتصل الى ما وصلت اليه عامي الطاعون الجارف (٧٤٨ ــ ٧٤٩هـ ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩)، وتدل بعض اشارات ابن خلدون على وعيه بتسرب عوامل الازمة والهرم قبل هذه الفترة، يقول متحدثاً عن الطاعون: «...هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص ظلها، وفل من حدها، وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها»[٣٣].

ويحلل في نص آخر ظواهر التحول العمراني الذي عرفته مختلف مراحل التاريخ المغربي[٣٤]، فبعد مرحلة انتشار شبكة المدن والقرى تربط بينها مسالك تجارية نشطة، التحمت خلالها الواجهة الصحراوية بالواجهة البحرية تبدأ مرحلة التقلص الديمغرافي، وتناقض العمران، فلم يبق منه الا ما هو بسيف البحر، أو ما يقاربه من التلول «بعد أن كان عمرانه متصلاً من البر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة، وهي اليوم كلها، أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى»[٣٥].

أما الشق الثاني من التساؤل فيتصل بتعليل ابن خلدون لظاهرة تدهور العمران المغربي؟ انه لم يركز على تفسيرها بصفة خاصة، فهي نتيجة طبيعية ــ حسب رؤيته ــ لبلوغ العمران الحضري الغاية التي لامزيد عليها، وهو يفسر ذلك أيضاً بالهجرة الهلالية وما صاحبها من مظاهر التفكك السياسي، والاختلال العمراني.

قد أثبتت الدراسات الجديدة أهمية التجارة الصحراوية، ولاسيما تجارة الذهب مع بلاد السودان في التطور العمراني المغربي، وقد كان لتدهور هذه التجارة، وتحول المسالك أثر بعيد ــ دون ريب ــ في حياة المدن المغربية، وخاصة المدن الصحراوية التي ربطت بينها تلك المسالك. وقد اعتبر عدم تعرض ابن خلدون لهذه النقطة ثغرة في تحليله لعوامل الهرم وتدهور المدن المغربية[٣٦].

ونلاحظ هنا أنه لم يغفل في المقدمة عن ذكر أهمية التجارة مع بلاد السودان، وما أدت اليه من تجميع الثروات في كثير من المدن المغربية، ونجده يفند اعتقاد العامة في تعليل غنى أهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين بأن ذلك ليس ناشئاً عن توفر المعادن الذهبية والفضية بأرضهم أكثر من غيرها كما يظن، «أو لأن ذهب الاقدمين من الامم ستؤثر به دون غيره، وليس كذلك، فمعدن الذهب الذي تعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب[٣٧].

فقد تحولت المدن المغربية الى مجرد معابر لتجارة الذهب، وأصبحت أسواقها عاجزة عن الاستفادة من مرور تلك الثروة، فالقضية ــ اذن ــ ليست مجرد تحول في مسالك هذه التجارة الثرية، فهو لا يولي العامل الخارجي اعتباراً يذكر ــ فيما يبدو ــ بالرغم من دوره الهائل الذي اكتسبه في الدراسات الحديثة. ان البنى والعوامل الداخلية للمدن المغربية هي التي تحدد تطور عمرانها أو تدهوره. ان «كثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه».

الهوامش

(١) مقدمة ابن خلدون. ط٣. القاهرة. ١٩٦٥. ج ١. ص ٤٠٧.

(٢) ن.م.، ص ٣٦٢.

(٣) ن.م.، ص ٤١٣ وما يليها.

(٤) ن.م.، ص ٤١٤.
(٥) ن.م.، ص ٤١٧.
(٦) ن.م.، ص ٤١٧ وما يليها.
(٧) ن.م.، ص ٤٢٠، ج ٢، ص ٨٨١.
(٨) ن.م.، ج ٣، ص ١٠١٠ وما يليها.
(٩) أنظر في هذا الصدد: ن.م.، ج ٢، ص ٦٥٨ وما يليها.
(١٠) راجع في هذا الصدد كتاب: «المغرب الاسلامي»: الحياة الاقتصادية والاجتماعية»، تونس، ١٩٧٨، ص ١١١ وما بعدها، ص ١٥٤ وما بعدها، أنظر أيضاً الفصل الخاص بمدينة «أودغست»، ص ١٩٢ وما بعدها.
أنظر بالنسبة لقبائل الملثمين (لمتونة، جدالة، مسوفة، ولمطة) دراستنا عن «السياسة المالية للدولة المرابطية»، مجلة «المؤرخ العربي» بغداد، العدد الثالث عشر.
(١١) ابن الصغير، تاريخ الدولة الرستمية باريس، ١٩٠٨، ص ١٨.
(١٢) المقدمة، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٣.
(١٣) أنظر: المغرب الاسلامي...، سبق ذكره، ص ١١٢ وما بعدها.
(١٤) «قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية، وأن الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة، وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا. وتبين في المعقول والمنقول أن الاربعين للانسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك، لانه غاية لا مزيد وراءها»، المقدمة، ج ٣، ص ١٠١٠.
(١٥) أنظر تصويره لتلك الصورة القاتمة في المقدمة، ج ١، ص ٤٠٥ وما يليها.
(١٦) قد يعترض المرء هنا قائلاً: أن محاولة التفسير هذه متنافية مع صريح نص ابن خلدون، فهو بعد أن وصف التدهور العمراني في المغرب، خلال عصره قال: «وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته، ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة: والله وارث الأرض ومن عليها، واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث»، المقدمة، ج ١، ص ٤٠٦.
فقد اتخذ ابن خلدون من المغرب صورة للكون كله، وهي نظرية جزئية أحادية الجانب دون ريب، ولكنها متأثرة بواقعها، وبالبنية العقلية لصاحبها.
(١٧) «أعلم أن هذه الاقاليم المعتدلة ليست كلها يوجد بها الخصب وكل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش، من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاة المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة، فسكانها في شظف من العيش: مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومن الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان، فان هؤلاء يفقدون الحبوب والادم جملة، وانما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم، ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار، فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول الا أن ذلك في الاحايين وتحت رقبة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الالبان وتعوضهم عن الحنطة أحسن معاض. وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات. المقدمة، ج ١، ص ٤٩٤ وما يليها.
(١٨) يعتقد الأستاذ محمد علي عبد الواحد وافي أن ابن خلدون في أثر البيئة الجغرافية في شؤون الاجتماع، وحاول الرد عليه، ولكن بحجج واهية. أنظر المقدمة ج ١، ص ٢٩٢ وما يليها.
(١٩) راجع فصل: «التجارة في المغرب الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة» ضمن كتابنا «المغرب الاسلامي...»، سبق ذكره، ص ١٣ وما بعدها.
(٢٠) تساءلنا في «المغرب الاسلامي...»ص ٤٢، هل من الممكن القول: «أن الفئات الاجتماعية الجديدة التي ولدت في مراكز تجمع الثروات الكبرى نتيجة الازدهار التجاري تمثل الملامح الجنينية للمجتمع الرأسمالي المبكر»؟
(٢١) المقدمة، ج ٣، ص ٩٧٥.
(٢٢) ن.م.، ص ٩٧٣ وما يليها.
(٢٣) «والبدوي لم يكن دخله كثيراً...»، المقدمة، ج ٣، ص ١٠٠١.
(٢٤) ن.م.، ص ١٠١١ وما بعدها.
(٢٥) ن.م.، ص ١٠١٢.
(٢٦) ن.م.، ج ٢، ص ٨٤٩ وما يليها.
(٢٧) راجع في هذا الصدد ن.م.، ص ٨٣٧ وما بعدها.
(٢٨) أنظر في هذا الصدد: السياسة المالية للدولة الفاطمية ضمن كتابنا «دراسات مغربية»، دار الطليعة، بيروت، ١٩٣٠.
(٢٩) المقدمة، ج ٢، ص ٨٥٣.
(٣٠) ن.م.، ج ١، ص ٤٠٦.
(٣١) نظراً لأهمية الفقرة التي يحلل فيها ابن خلدون أوضاع عصره، وينطلق منها ليحكم على أحوال الكون بأسره نورد نصها فيما يلي:

«وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم علمة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم، هذا الى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها بلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها،وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الامصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة: والله وارث الارض ومن عليها. واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها، ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده» ن.م.، ص ٤٠٥ وما يليها.

(٣٢) راجع في هذا الشأن كتابنا: «المغرب الاسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة»، سبق ذكره.

(٣٣) المقدمة، ج ١، ص ٤٠٦.

(٣٤) نظراً لأهمية هذا النص نورده هنا كاملا رغم طوله، يقول ابن خلدون:

«اعتبر ذلك بأقطار المشرق، مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم، وعظمت دولتهم، وتعددت مدنهم وحواضرهم، وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيطه الوصف. وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم. وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين، فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها، وربما تتلقى بالانكار في غالب الأمر، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم، وليس كذلك. فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الأموال، ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة.

لقد ذهب المنجمون، لما رأوا مثل ذلك، واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً من مواليد أهل المغرب. وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه. وهم انما أعطوا في ذلك السبب النجومي، وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي، وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصها بأرض المشرق وأقطاره. وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه. فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق، لا أن ذلك لمجرد الاثر النجومي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه.

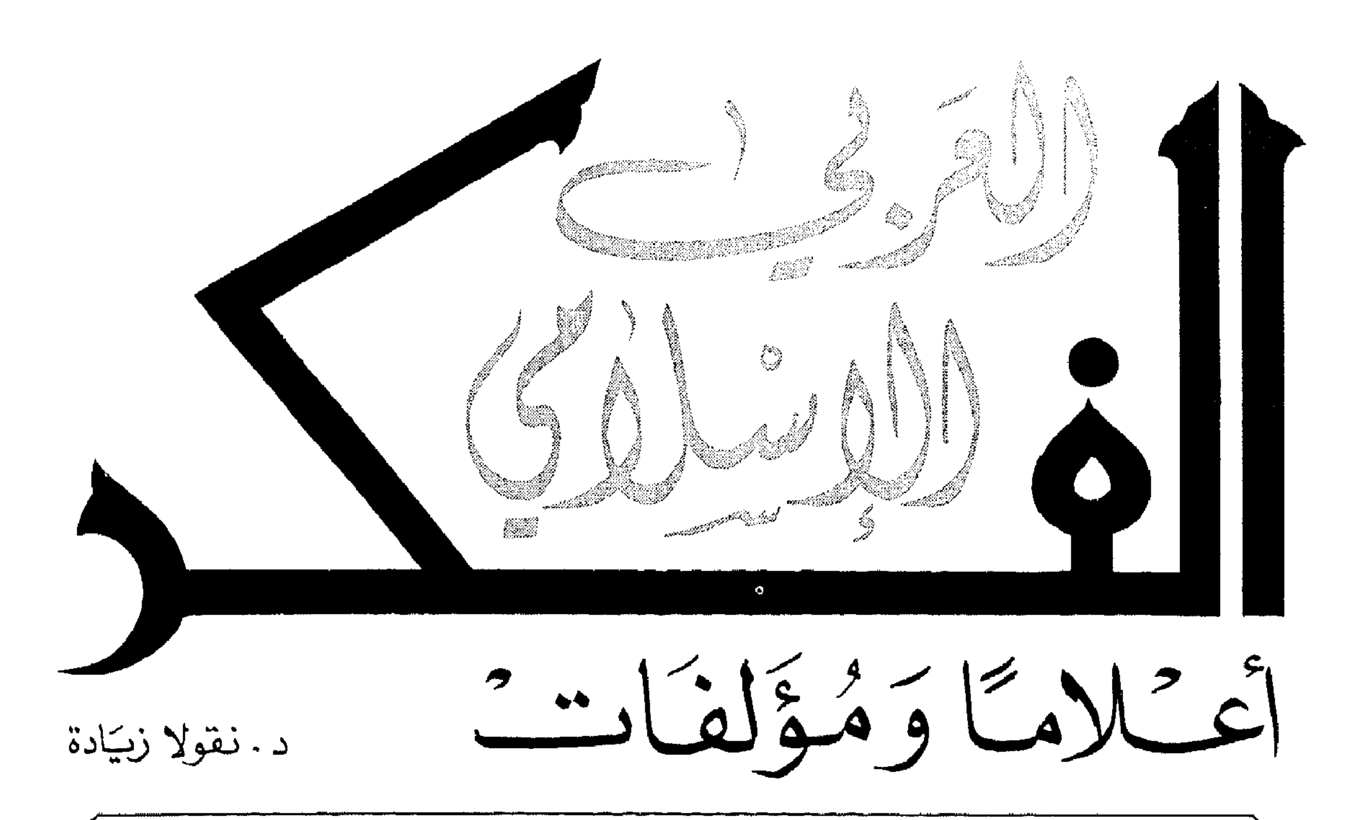
واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة، وضعفت جباياتها، فقلت أموال دولها، بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاجاته ومهماته، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لارزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة.

وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك، وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة. وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره، ونقص عن معهوده نقصاً ظاهرا محسوسا، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال أفريقية، بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى، الا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين». المقدمة، ج ٢، ص ١٠٠٢ وما يليها.

(٣٥) ن.م.، ص ١٠٠٣.

(٣٦) أنظر ايف لاكوست، ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨، ص ٩٩ وما بعدها.

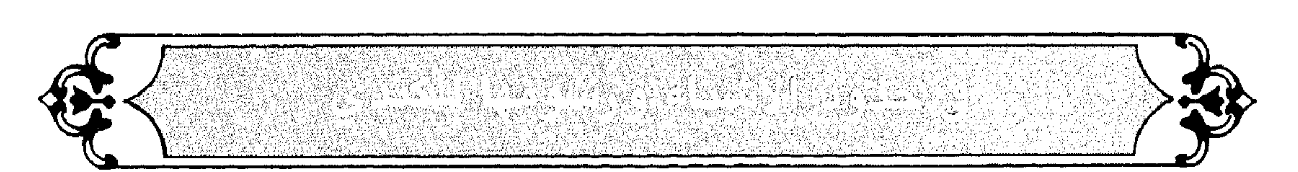
(٣٧) أنظر تعليق رقم ٣١.



أعلاماً ومؤلفات

د. نقولا زيادة

في هذه المقالات الثلاث معالجة للكندي وهو أول فيلسوف في دنيا العرب والاسلام حدد المصطلحات وبنى دلالاتها، فكأنه كان صاحب أول معجم فلسفي باللغة العربية. وابن طفيل كان أول فيلسوف عربي مسلم تنبه الى احتمال نشوء الحياة عضويا، وامكان تعلم الإنسان بالتجربة الشخصية. ومع أن ابن رشد لم يكن أول من تكلم عن أرسطو بين فلاسفة العرب والمسلمين، فهو أول من أجاد شرحه.



لسنا نحسب أن العالم مر به، في تاريخه الطويل، ما مر به ابان قيام الدولة العربية الاسلامية ونشوء الحضارة المرتبطة بتلك الدولة، وذلك من حيث الاختلاط والامتزاج والتفاعل والتجاذب، بين شعوب مختلفة، وحضرات حية وبائدة، وثقافات روحية ومادية، من حيث التبدل في أوضاع الناس بانتشار الاسلام بين أكثر السكان الذين عاشوا في ظل تلك الدولة، وانتشار اللغة العربية التي أصبحت، وظلت، لمدة طويلة اللغة الوحيدة لمظاهر الحياة الفكرية والأدبية والدينية جمعاء.

وإذا كان قيام الدولة تم في القرن الأول للهجرة أي القرن السابع للميلاد، واستقرار نظمها ومؤسساتها، قبل أن تعمل فيها يد التمزيق، كان من عمل القرن الثاني الهجري (أي القرن الثامن للميلاد)، فان القرن الثالث الهجري (أي التاسع للميلاد)، كان الوقت الذي أصاب المجتمع العربي الاسلامي فيه دوامة عنيفة من حيث الحياة الفكرية، دينا وعلما وفلسفة وأدبا. ففي هذا القرن دخل الحياة الفكرية، التي كانت من قبل إسلامية في غالب نزعاتها واتجاهاتها، نزعات واتجاهات جديدة. بعضها جاء من



أعمدة قاعة الصلاة في جامع قرطبة الذي بدأ بنائه الأمير عبد الرحمن الأول عام ٧٨٥م.

الداخل أي من داخل حدود الدولة مثل تفكير الحرانيين والصابئة، والبعض جاء من الداخل أيضاً، ولكن بالواسطة مثل الفكر اليوناني وفلسفته والفلسفة الأفلاطونية المستحدثة التي وصلت الى العرب مترجمة عن طريق النصارى السريان، والبعض الآخر جاءها مترجما عن الفارسية أدبا في غالبه. وهناك الذي جاءها من الخارج من الهند رياضيات وفلكا وتنجيما.

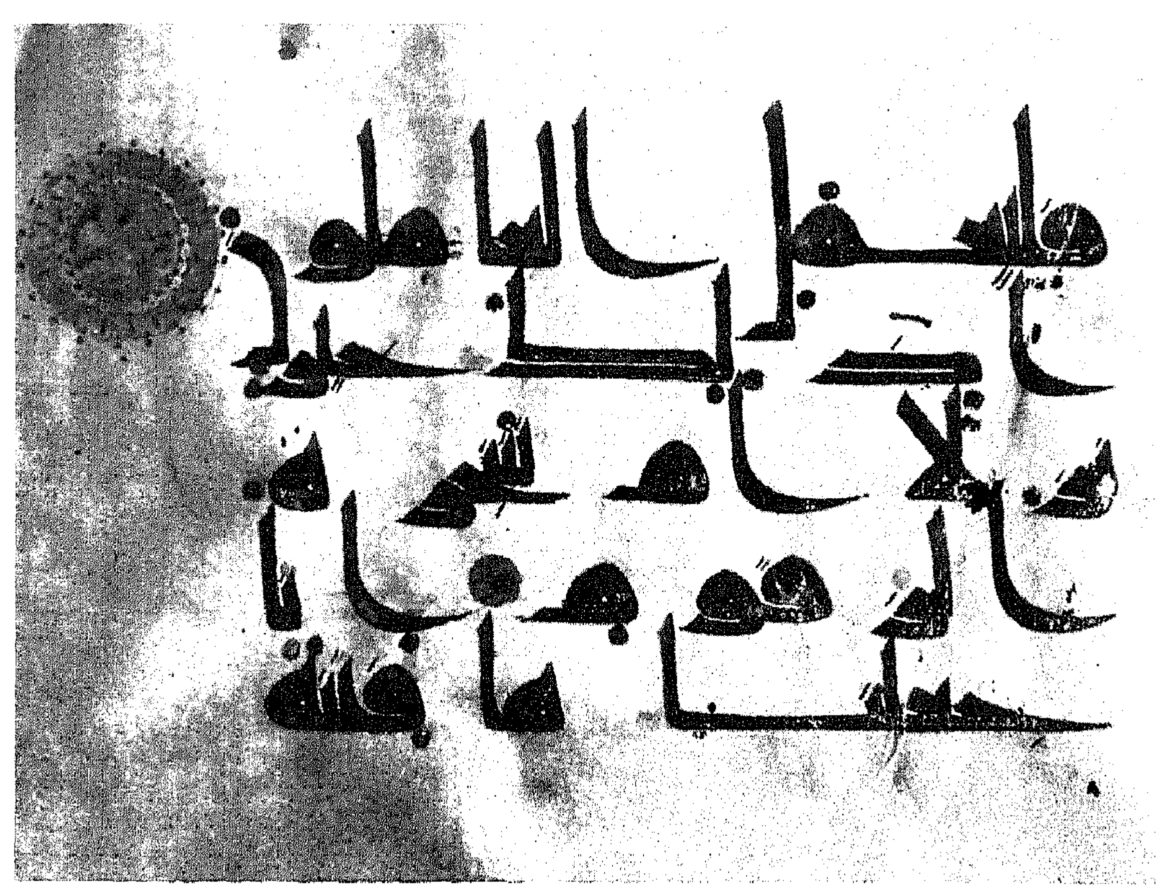
وهذا كله أحدث نزعات وتيارات جديدة في المجتمع العربي الاسلامي وفي حياته الفكرية والروحية. ولعل أبرز هذه التيارات هذا الذي يتناول موقف أصحاب الدين وأصحاب الفلسفة الاغريقية وأحدهما من الآخر.

في هذا الجو عاش الكندي. وهو أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي. واذا كان ابن النديم قد أورد مؤلفات الكندي بعددها وذكر أسماءها بالتفصيل، وهي تزيد عن المئتين، واذا كانت رسائل الكندي الفلسفية قد حفظ قسط كبير منها، فان هذا المفكر العجيب لم يدون له أصحاب التراجم ترجمة لحياته مفصلة أو حتى مقتضبة. فنحن لا نعرف تاريخ ولادته أو تاريخ وفاته على وجه التدقيق. ولكن المرحوم الاستاذ مصطفى عبد الرزاق تمكن بالاستنتاج من مقارنة أخبار واشارات قليلة متفرقة أن يتوصل الى أن الرجل ولد حول سنة ١٨٥ للهجرة (أي سنة ٨٠١ للميلاد) وتوفي سنة ٢٥٢ هجرية (٨٦٧ ميلادية). وقد ولد بالبصرة، وهذا أمر معروف، وعاش في بغداد في أيام المأمون والمعتصم.

وقد وصف محمد عبد الهادي أبو ريده الجو الذي عاش فيه الكندي في البصرة بقوله: «إننا نستطيع أن نستنبط مما كان له، أي للكندي، من مجد قديم مستمر، ومما كان لأبيه من منصب وثروة وكرم... أنه قد أتيحت له فرصة تعليم وتثقيف منظمين، كما هو شأن أبناء الولاة. هذا الى جانب ما لا نشك أنه قد استفاد من الجو العلمي الذي يسود بيوت الكبراء، والذي ينشأ من تردد العلماء والمفكرين وأهل النظر على مجالس الولاة الذين لم يكونوا قط بحسب ظروف الدولة الإسلامية الأولى، مجرد موظفين إداريين، بل كانت تربطهم بالعلم وأهله الروابط الوثيقة. هذا إلى أننا لا يمكن أن ننسى ما كان في البصرة، حيث نشأ الكندي، من حياة فكرية قوية سواء في ناحية الأدب واللغة وما يتصل بمشكلاتهما من علوم ودراسات، أو في ناحية البحث العقلي النظري الذي كانت مادته المناظرات الكلامية في مسائل دينية وفلسفية متنوعة على يد كبار المعتزلة البصريين.

أما ان الكندي قد تأدب في بغداد، فقد كانت عاصمة العباسيين يومها أكبر مركز فكري لا في الدولة العربية الإسلامية فحسب، بل في العالم أجمع. جاءها الكندي وقد عمرت بغداد بكل نزعة فكرية. وفي ذلك يقول فيليب حتي «فإنه أي الكندي ـــ تابع في هذا الجو بنفسه دراسة الفلسفة والعلم الاغريقيين. فقد كان في متناوله ترجمة حنين بن اسحق لمؤلفات أرسطو، وعلى رأسها كتاب ما وراء الطبيعة. وكتاب آخر ينسب إلى أرسطو وهو الربدبية. وهو من تأليف أحد علماء الأفلاطونية المستحدثة... وقد عدل فيلسوفنا الناشىء هذا ورتب مواده وجعل منه كتابا مدرسيا استعمله في تعليم أحمد ابن الخليفة المعتصم. وقد أخذ الكندي نفسه بدراسة جميع الكتب المنقولة إلى العربية في جميع العلوم. ومؤلفاته تدل في الواقع لا على سعة إطلاعه فحسب بل على مقدرته على استيعاب هذه المواضيع وتطويرها تطويراً هاماً.

ولعل الأثر الأول لهذه القمة الشامخة في تطور الفكر العربي هو ما عبر عنه أبو ريده بقوله: «ان اقبال هذا العربي الصميم على دراسة العلوم الفلسفية التي كان نقلها للمسلمين والعناية بهما شأن غير العرب وغير المسلمين، هذا الى جانب استقلاله في الرأي ـــ وهذا يتجلى في نقده لآراء الفلاسفة وانشائه وجهة نظر شخصية ـــ كان مثالاً مشجعا للعرب المسلمين في ذلك العصر الذي فيه لم تكن الفلسفة قد اتخذت لنفسها وطنا بينهم، ولم يكونوا فيه هم أيضا قد ملكوا ناصية وضع المشكلات وتوجيهها، ولا أحكموا أداة معالجتها فمن حيث تحرير المفهومات والاصطلاحات الدالة عليها فضلا عن حداثة عهدهم بالفلسفة بالاجمال، وضرورة بذل الجهد الكبير في فهم نظرياتها. وإذا كان العرب في ذلك الوقت لم



صحيفة من القرآن تعود إلى القرن التاسع ميلادي في العراق الذي كان مركز الخلافة العباسية.

يكونوا موضع ثقة كبيرة في العلوم العملية التطبيقية التي هي أسهل تعلماً وأقرب الى الفهم الطبيعي... فلا شك أن تكون الفلسفة النظرية المجردة بما فيها من مفهومات غامضة واصطلاحات غريبة وجديدة أعسر عليهم... ولا شك أن الكندي كان من هذا الوجه ممهدا ومؤسسا انتفع بجهوده من جاء بعده في الشرق وفي الغرب ايضا.

ولم يكن أثر الكندي في أنه حمل العرب على الاهتمام بالعلوم الفلسفية بل انه كان صاحب منهج تأثر به الذين جاءوا بعده. ومنهجه يتلخص في تشديده على تحديد المفهومات بألفاظها الدالة عليها تحديدا دقيقا بحيث يتحرر المعنى تماما. فهو يقول في ذلك «لأن ما لا معنى له فلا مطلوب فيه، والفلسفة انما تعتمد على ما كان فيه مطلوب — فليس من شأن الفلسفة استعمال ما لا مطلوب فيه».

والعنصر الثاني في منهجه هو ذكر المقدمات واثباتها على منهج رياضي استدلالي. وطريقته في تحري المشاكل الفلسفية استنباطية. ويؤكد على الباحث أن يكون على علم بالغاية التي يقصد اليها.

ذكرنا من قبل أن الكندي بلغ اكتمال قدراته حين كانت مواقف رجال الدين من الفلسفة الاغريقية مواقف عسيرة. وهنا جاءت أصالة الكندي في هذه القضية العويصة. ذلك بأنه وصل، بعد أعمال الفكر مليا في القضية، الى أن الدين يعتمد الوحي والفلسفة تعتمد العقل. والفلسفة ترتكز الى المنطق بينما أساس الدين الايمان والتسليم. غير أنه رأى «أن الحقيقة التي يتوصل اليها الإنسان عن طريق الدين لا تتعارض بشيء مع الحقيقة التي يتوصل اليها عن طريق الفلسفة... وكان يصر على القول بأن على علماء الدين أن ينتفعوا بالمنطق الذي هو أداة الفلاسفة».

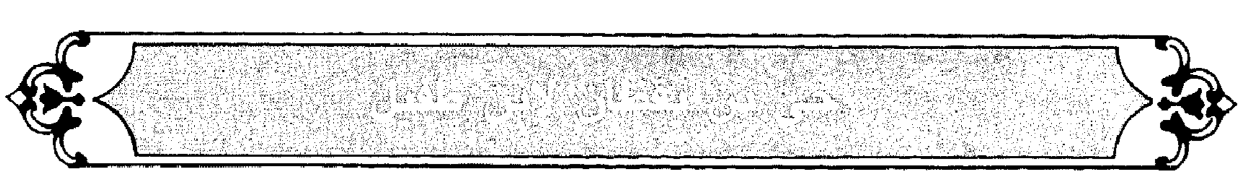
لكن الكندي ظل مسلما. فالمعرفة التي «تهبط على صاحبها بواسطة الوحي هي معرفة قائمة بذاتها ومن نوع فريد في بابه. أما المعرفة

المتأتية عن الفلسفة فهي تخضع للتجربة والبرهان ويعبر عنها بالمنطق». وقد لجأ الى تفسير رمزي لآيات القرآن الكريم وبذلك أوضح الخلق من العدم واثبات وجود الخالق، وكيفية كونه العلة الأولى والحقيقية، وعلة العلل بالنص من جهة والمنطق من جهة أخرى.

للكندي مؤلفات كثيرة في الفلسفة وعلم النفس والطب والرياضيات والبصريات والموسيقى والفلك والتنجيم والجغرافية والمنطق وعلوم الطبيعة. ولسنا هنا في مجال الحديث عن هذه النواحي. ورسائل الكندي الفلسفية هامة جدا. ولا شك أن رسالته الأولى التي يتعرض فيها للماهيات المختلفة المتعلقة بالعلة الأولى تتقدم غيرها بالنسبة الى الفكر الفلسفي. ومع ذلك فقد اخترنا رسالته المسماة في حدود الأشياء ورسومها هنا. ولهذا الاختيار سبب هام هو أن الكندي كان أول من فكر في تحديد معاني الكلمات والحدود والمصطلحات الفسفية. وهذه الرسالة تحتوي على مئة تعريف من مصطلح الفلسفة والعلم. وهي، ولا شك، أول قاموس خاص بالعربية يوضح المصطلحات العلمية والفلسفية. يقول أبو ريدة في ذلك «ولا شك أن الكندي نزع في وضع الاصطلاح منزع متفلسفة عصره بالاجمال... ونجده بعد هذا ينفرد بأنه، إذ يحاول وضع الاصطلاح، يعمد أحيانا الى احياء كلمات عربية قديمة قد أوشكت أن تسقط من الاستعمال، مثل كلمة الأيس للدلالة على الموجود بالاجمال، ثم يجمعها أيسات للدلالة على الموجودات، ثم يشتق منها لفظ الأيسية للدلالة على حالة الوجود».

وبالاضافة إلى هذا القاموس الفلسفي، الذي يشبه من حيث الغاية ما قام به الشافعي في تحديده مصطلحات الفقه، فانه سمح لنفسه بالحرية في استعمال اللغة العربية.

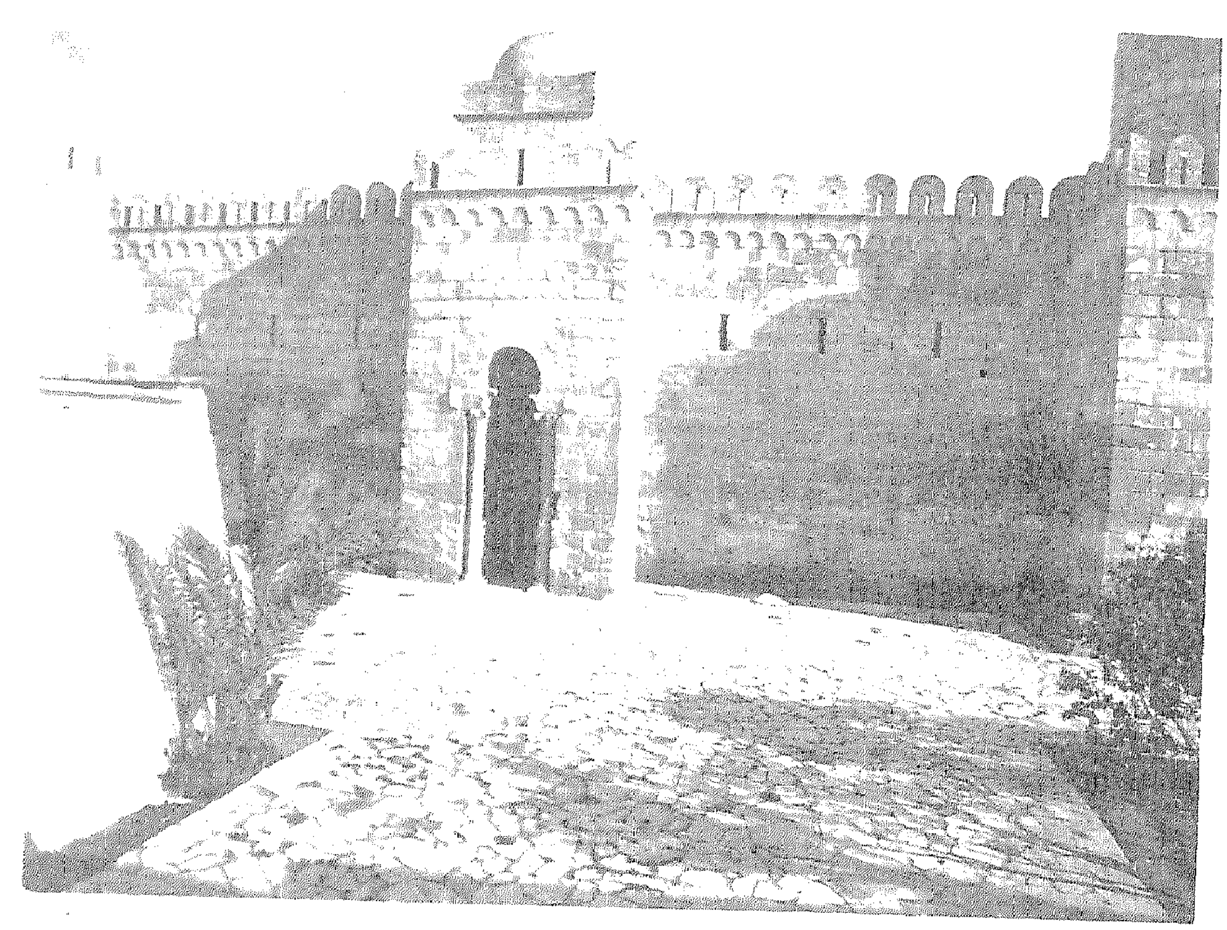
فالكندي لم يكن صاحب مدرسة فلسفية، إذا جاز التعبير، فحسب بل كان مؤسس منهجية فلسفية كان لها أثر في توجيه الفكر العربي الاسلامي الفلسفي مدة طويلة.



نحن الآن في القرن السادس للهجرة (أي القرن الثاني عشر للميلاد) وفي الرقعة الغربية من العالم الاسلامي، متنقلين بين مدن الأندلس ومراكش. وقد شهد هذا القرن حدثا كبيرا في تاريخ تلك الرقعة. ففي أواسطه دالت دولة المرابطين، وحلت مكانها دولة الموحدين. وقد استطاع هؤلاء أن يضموا تحت سلطانهم طرابلس وتونس والجزائر والمغرب والأندلس. وقد كان المرابطون بنوا مدينة مراكش واتخذوها عاصمة لهم، فلما حل الموحدون مكانهم احتفظوا بمراكش عاصمة لدولتهم، لكنهم وسعوها وعمروها لتكون عاصمة لائقة لدولة الاسلام الجديدة هناك.

كان الغرب الإسلامي قد عرف، منذ أن فتحه المسلمون، مراكز هامة للثقافة والفكر، في القيروان وتونس وفاس وقرطبة وطليطلة وغرناطة. وكانت نواحي المعرفة التي يتلقاها الناس في هذه المراكز تشمل الفقه والطب والأدب والهندسة والفلك والمنطق، وكانوا إذا رغبوا في الاستزادة من هذه العلوم والمعارف يمموا وجوههم شطر المشرق إلى بغداد والحجاز ودمشق والفسطاط. ومع أن بعض الرسائل الفلسفية كانت قد وصلت الغرب، فإن الفلسفة لم تكن من الأمور التي يعنى بها أهل تلك الرقعة. ولكن الحال تغير في القرن السادس. فقد برزت فيه أسماء لامعة كانت لها في عالم الفكر الفلسفي جولات. وأشيع هذه الأسماء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد. والذي نريد أن نتحدث عنه الآن هو ابن طفيل.

وقد ولد أبو بكر محمد بن طفيل في مدينة صغيرة على مقربة من غرناطة اسمها وادي آش وذلك في حدود ٥٠٠ للهجرة (١١٠٥ للميلاد) على التقدير. فالرجل لم يؤرخ له أصحاب التراجم، ولم يتركوا لنا شيئاً يستحق الذكر من



جدار مدينة «سوسة» في تونس، بني حوالى سنة ٧٨٠م ليكون بمثابة قلعة بحرية تحمي المسلمين من هجمات البيزنطيين.

نشأته الأولى. والذي نعرفه أن أبا يعقوب الموحدي أعجب بابن طفيل فصحبه معه إلى مراكش عاصمة ملكه فكان طبيبه ووزيره. وما كان ليوسف الموحدي أن يصحب ابن طفيل لولا أن هذا كان من أهل المعرفة والعلم الغزيرين. فما كان الموحدي يختار إلا الضليعين بالمعرفة. وقد روى ابن خلكان عن أبي يعقوب يوسف انه كان «رقيق حواشي اللسان» حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيام الجاهلية والاسلام. وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة من الفقه. ثم طمح الى علم الحكمة، وبدأ من ذلك بعلم الطب، وجمع من كتب الحكماء شيئاً كثيراً. وكان ميله الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الأدب وبقية العلوم». ومن هنا كان هذا الاهتمام الكبير بابن طفيل. فقد برع هذا في العلوم والحكمة وكان رشيق الأسلوب رقيق العبارة، فكان بين الخليفة والوزير مجالات للحديث في كل ما يخطر للخليفة على بال. ومع أن ابن طفيل تخلى عن تطبيب الخليفة، لما تولى الأمر ابن رشد، فقد ظل وزيراً له ثم وزر لابنه المنصور بعد ذلك. وتوفي في مراكش سنة ٥٨١ للهجرة (أي سنة ١١٨٥ للميلاد).

ولم يتحدر الينا من آثار ابن طفيل الفلسفية سوى كتاب واحد هو حي بن يقظان. واسم الكتاب مأخوذ من كتاب بالاسم نفسه لابن سينا. لكن الاقتباس يقف عند هذا الحد. فكتاب ابن طفيل فريد في بابه في الأدب الفلسفي العربي.

وهو يحكي قصة طفل رضيع وجد في جزيرة نائية من جزر الهند الاستوائية. وابن طفيل يعطينا روايتين عن أصل الطفل — تقول احداهما بأن أمه ألقت به في اليم فحمله البحر الى هذه الجزيرة، وتقول الثانية أنه ولد تلقائياً

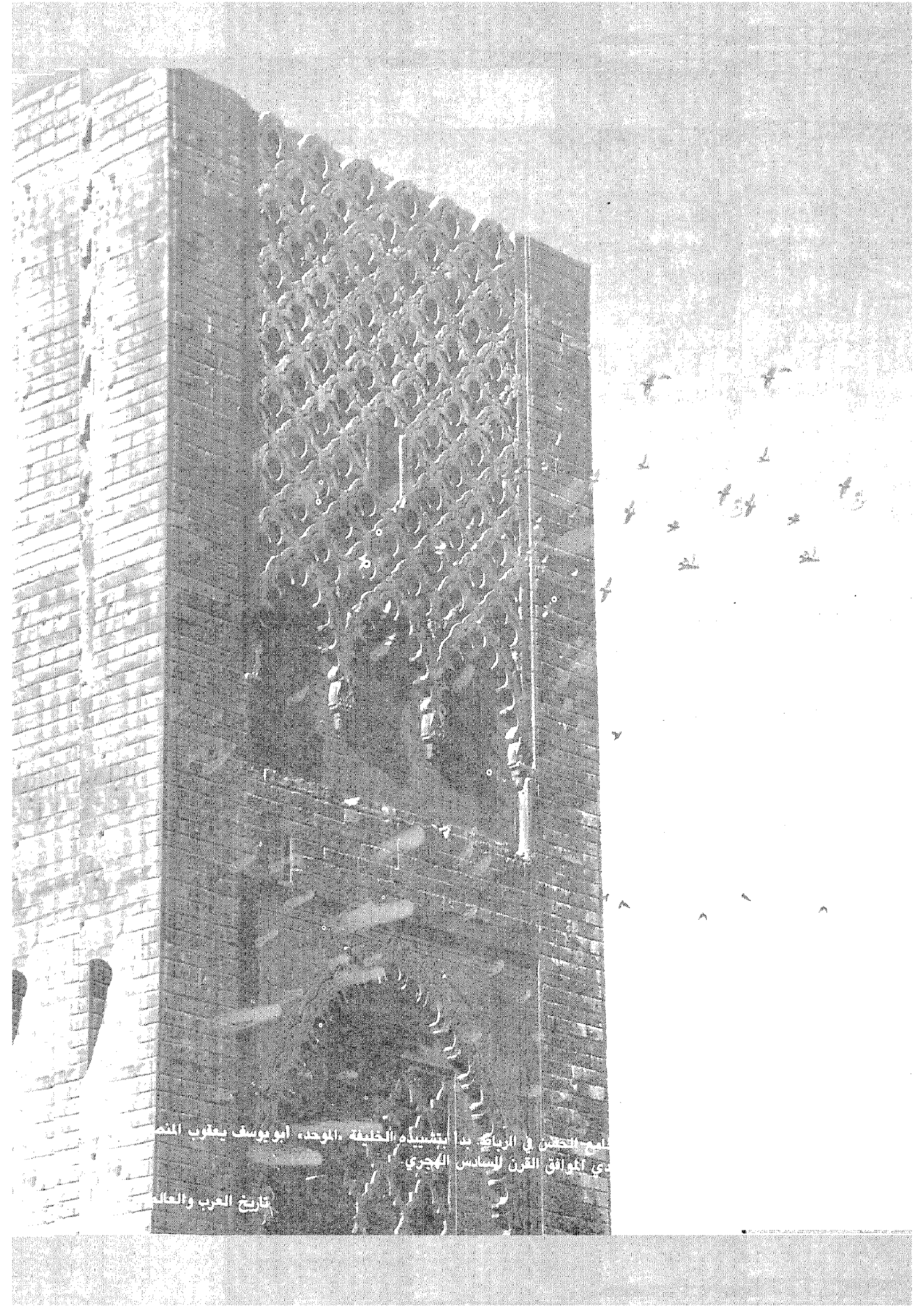
في الجزيرة. وعلى كل فقد حنت ظبية كانت قد فقدت طلاءها على الرضيع فأرضعته. فلما قدر على المشي سار معها حيث سارت الى أن ماتت، فشعر بالكرب بذلك. وفتح جسمها ليتعرف الى موضع الحياة فاهتدى الى أنه القلب. ثم اكتشف، من عشرته للحيوان، أنه أرقى من سائر الحيوان. فغطى نفسه بأوراق الشجر وحمل عصا ليدافع بها عن نفسه. واكتشف النار التي تولدت، بسبب الحر الشديد، عن التحاك بين الأشجار في الاحراج. وكان جسده ينمو وتنمو معه ملكاته. وكان يكثر من التأمل والتفكير فاهتدى إلى أمور كثيرة مع أنه لم يشاهد أنسياً قط. أدرك ما تشترك به أفراد الخليقة من حيوان ونبات وجماد من الصفات وما تختلف فيه. وكما يقول ابن طفيل «وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء، فرأى أن حقيقة وجود كل منها مركبة من معنى الجسمية، ومن شيء زائد على الجسمية: أما واحد وأما أكثر من واحد. فلاحت له صور الأجسام على اختلافها، وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني، إذ هي صور لا تدرك بالحس، وانما تدرك بضرب ما من النظر العقلي. ولاح له، في جملة ما لاح من ذلك، أن الروح الحيواني الذي مسكنه القلب لابد له أيضاً من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة، التي تختص به من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات. وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي انفصل به عن سائر الأجسام، وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية».

وسار تدريجيا حتى تعرف الى النفس النباتية، ثم النفس اطلاقا، وتأكد أن هذا كله لابد له من سبب وفاعل. فانتقل عندها الى الاجرام السماوية ينظر فيها. وهداه تفكيره الى «أن اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم، فاللازم عن ذلك ضرورة أنه لا يمكن أن يخرج الى الوجود بنفسه، وانه لابد له من فاعل يخرجه الى الوجود، وان ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشيء من الحواس، لأنه لو أدرك بشيء من الحواس لكان جسماً من الأجسام، ولو كان جسما من الأجسام لكان من جملة العالم، وكان حدثا واحتاج الى محدث، ولو كان المحدث الثاني أيضاً جسما لاحتاج إلى محدث ثالث والثالث إلى رابع ويتسلسل ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام، وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير».

وهكذا أدرك حي بن يقظان الموجود واجب الوجود، وأراد أن يظل على الدوام مشاهداً له. فانتقل الى الفناء عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحي القيوم.

والذي توصل اليه ابن طفيل، أو أراد أن يوضحه في قصته، هو انه وسع الانسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس الى المعقول، ويصل بقواه الطبيعية الى معرفة الإله والعالم. «وهذه المعرفة التي أشار إليها ابن طفيل تنقسم الى قسمين: المعرفة الحدسية والمعرفة النظرية. فالمعرفة الحدسية هي التي ينكشف فيها الأمر للنفس بوضوح زائد... وهي حال أكثر مما هي معرفة... أما المعرفة النظرية فهي التي ينتهي اليها بطريق القياس والبرهان والبحث الفكري... وقد سلك حي بن يقظان في الوصول الى الحقيقة المطلقة كلا من هذين الطريقين: فتارة كان يكشف المعرفة بحواسه وأخرى كان يعود الى فكره وحدسه الباطني».

ولما توصل حي بن يقظان الى ما توصل اليه تعرف بآسال. وهو رجل صالح نشأ في جزيرة قريبة من جزيرة حي بن يقظان جاء هذه الجزيرة للعزلة. فعلم حي بن يقظان الكلام، وبعدها تبادلا الرأي فيما كانا يعرفانه، فعلما أن المعتقدات الدينية ليست إلا صورة محسوسة للحقائق الفلسفية، فالفيلسوف يتوصل الى إدراك الحقائق الالهية بعقله وحدسه، أما العامة فهي بحاجة إلى من يرتقي بها الى هذه المبادىء العالية عن طريق الحس والخيال. فرثى حي بن يقظان لحال العامة في جزيرة آسال، وأراد السفر اليها ليهدي أهلها عن طريق العقل. ومع أن آسال كان يشك في نجاح رفيقه فقد رضي بالذهاب معه. فانتقلا إلى تلك الجزيرة وأخذ حي يعلم الناس ويرشدهم بالعقل. فأعيته الحيلة في أمرهم، وأدركته الخيبة، فأقلع عن ذلك وترك



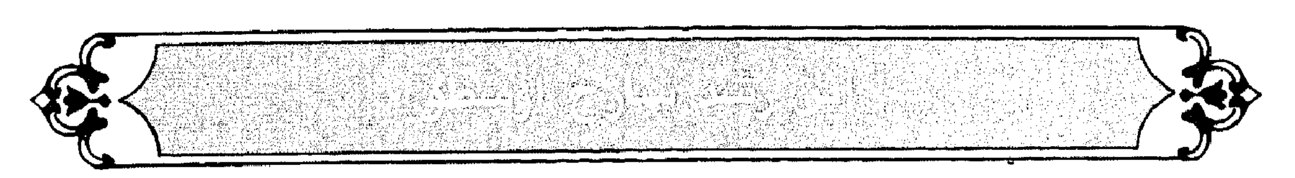
امع الحسن في الرباط بدأ بتشييده الخليفة الموحد ابو يوسف يعقوب المنص
دي الموافق القرن السادس الهجري

تاريخ العرب والعال

العامة في أمان الدين، وقفل راجعاً مع رفيقه الى جزيرتهما. وانصرفا فيها الى التأمل والرياضة حتى أدركهما الموت».

ان ابن طفيل في هذه القصة الفريدة في الأدب الفلسفي العربي كما ذكرنا، والتي كتبها باسلوب جاء آية في الرشاقة، إنما أراد أن يوضح لمن يمكن أن يفقه قصته أن أهل النظر يدركون لا الطبيعة فحسب ولكن ما وراء الطبيعة باتباع طريق البحث والنظر أولاً ثم الانتهاء من ذلك إلى الذوق والمشاهدة. وهذه الفلسفة الاشراقية أو المشرقية التي أغرم بها عدد من فلاسفة المسلمين، وحسبها بعضهم فلسفة اغريقية أفلاطونية أصلية، وهي في الواقع الافلاطونية المستحدثة، والتي هي في واقع الأمر مزيج من بعض ما جاء عند الاغريق وشيء من الرموز الدينية التي كانت مصر تحتضنها لما وضع أفلوطين، صاحب الفلسفة الافلاطونية المستحدثة، آراءه في القرن الثالث للميلاد في مصر نفسها.

ولنذكر في ختام هذا الحديث أن قصة حي بن يقظان نقلت الى الانكليزية سنة ١٧٠٨. وأصبح «حي» المثال الذي قلده روسو في كتابه أميل كما قلده ده فو في قصته المشهورة عن روبنسون كروزو.



أبو الوليد ابن رشد معاصر ابن باجه وابن طفيل ولزوال المرابطين وقيام الموحدين. فهو من أهل القرن السادس للهجرة (أي القرن الثاني عشر للميلاد). وهو مثل معاصريه أندلسي المولد والنشأة. ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ للهجرة (أي سنة ١١٢٦ للميلاد) في بيت أهله أهل فقه. فقد كان أبوه قاضيا وكان جده قاضيا في العاصمة. فتعلم الفقه في صباه، وذلك بعد أن درس اللغة والشعر وحفظ القرآن وشارك في دراسة الحديث واستظهر الموطأ. وفي جامعة قرطبة، التي كانت جزءاً من الجامع الكبير، درس أيضاً الفلك والرياضيات والطب. ولما كانت الفلسفة، أو الحكمة كما كانت تسمى أيضاً، صنوا للطب في التعلم والتعليم فقد ألم ابن رشد بما تيسر له منها. وانصرف ابن رشد الشاب إلى ممارسة الفقه والطب في بلدته، وفيما بعد في مراكش. ويبدو أن الرجل لم ينقطع عن قراءة الفلسفة، وان كان لم يبلغ فيها ماكان قد بلغه في الفقه والطب إلا فيما بعد.

وقد عينه أبو يعقوب يوسف الموحدي قاضيا على أشبيلية سنة ٥٦٥ للهجرة (أي سنة ١١٦٩ للميلاد) وهناك كان يعيش الطبيب ابن زهر الذي أصبح صديقا للقاضي. إلا أن إقامة ابن رشد في أشبيلية لم تزد عن سنتين إذ أنه نقل بعدها قاضيا لقرطبة، حيث ظل في منصبه نحو عقد من الزمان إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف الى مراكش ليكون طبيبه الخاص، وكان هذا بناء على اقتراح ابن طفيل الذي كان طبيب الخليفة لكنه أراد اعتزال هذا المنصب بسبب تقدمه في السن.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي اتصل بها ابن رشد بأبي يعقوب يوسف. ذلك أن الخليفة الذي كان مولعاً بقراءة الفلسفة لم يكن يعرف تماما فيما إذا كانت الصعوبة في فهم فلسفة أرسطو تعود إلى أرسطو نفسه أم إلى سوء في الترجمة. ورغب الى ابن طفيل ان يوضح له أرسطو وفلسفته. لكن ابن طفيل كان مشغولا بطب الخليفة والوزارة له، وكان متقدماً في السن، فاقترح على الخليفة أن يعهد الى ابن رشد في ذلك فاستدعي ابن رشد إلى مراكش حيث قدمه ابن طفيل إلى سلطان القصر. وقد روى المراكشي عن ابن رشد نفسه خبر هذه المقابلة الأولى فقال:

«فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين، بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي إلى ان قال لي: ما رأيهم في السماء ــ أي الفلاسفة ــ



ابن رشد.

أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بالفلسفة. ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين مني الروح والحياء والتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد من ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم. فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك».

وندبه لما اقترحه ابن طفيل، ثم عينه قاضيا على إشبيلية، فأخذ نفسه بدراسة الفلسفة جهارا.

أما في هذه الزيارة فقد أصبح ابن رشد طبيب الخليفة. إلا أن الخليفة توفي بعد سنتين، وبعده بسنة توفي ابن طفيل، لكن المنصور، خليفة أبي يعقوب يوسف، استدعى اليه ابن رشد ليجدد له تعيينه في البلاط. واحتفى به لما وصل وعينه طبيباً ووزيراً. وكان الخليفة يجل وزيره. لكن بعد سنوات من الخدمة فجأة نفاه الى مكان قريب من قرطبة، وأحرق كتبه وكتب الفلاسفة في الأندلس ومراكش. ولما رضي عنه بعد سنتين واستعاده الى البلاط كان ابن رشد



ارسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م).

قد مرض ولم يلبث أن مات في مراكش سنة ٥٩٥ للهجرة (أي سنة ١١٩٨ للميلاد).

كان الفلاسفة المسلمون من الكندي الى ابن رشد يحاولون إقامة بناء فلسفة عربية إسلامية تستطيع أن تمتص الفلسفة الاغريقية والأفلاطونية المستحدثة بحيث لا تظل هذه

غريبة عن الحياة الفكرية العربية الاسلامية. وكانت القضية التي تعترض كلا منهم هي موقف الدين من الفلسفة. ولذلك فكل منهم حاول مخلصا وجاهدا ومؤمنا ومسلما أن يوفق بين الوضعين. جرب ذلك الكندي وجرب ذلك ابن سينا وجرب ذلك كل من ابن باجه وابن طفيل وابن رشد. وكان سبيلهم إلى ذلك، بشكل عام، أن يثبتوا ويوضحوا أن لا فرق بين الحقيقة التي يتوصل إليها بالوحي والحقيقة التي يتوصل إليها بالنظر العقلي.

ويجب أن نذكر أن هؤلاء الفلاسفة كانوا مؤمنين صادقين في إسلامهم. ومع ذلك فقد رموا بالكفر والزندقة والالحاد. ومع أن كثيرين هم الذين اتهموهم بذلك وكتبوا ضدهم، فإن الامام الغزالي كان من أشد خصومهم. وقد وضع كتاباً في ذلك سماه تهافت الفلاسفة. وبسبب شهرة الغزالي انتشر الكتاب انتشاراً واسعاً. والغزالي توفي قبل ولادة ابن رشد بنحو خمس عشرة سنة. وقد ندب ابن رشد نفسه لرد التهمة عن الفلاسفة فوضع كتاب «تهافت التهافت».

أما فيما يتعلق بالمسألة الأصلية أي التوفيق بين الدين والفلسفة فقد وضع ابن رشد كتابه المسمى «فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» والكتابان موجهان إلى أهل الجدل الكلاميين المتأخرين. لكن الواقع أنه لما كتب ابن طفيل حي بن يقظان ولما وضع ابن رشد كتبه كانت الفلسفة في المشرق قد فقدت وجودها قبل أكثر من قرن وبعض القرن، ولما توفي ابن رشد انتهت الفلسفة في الغرب الاسلامي ايضاً.

على أنه مما يجدر ذكره أن مثل هذا الخلاف بين الشريعة والحكمة، بين الدين والفلسفة لم يقتصر على العالم الاسلامي وحده. ذلك بأن العالم المسيحي الاوروبي في أواخر العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة جابه مثل هذه القضية. ولسنا نعتقد أن مثل هذه القضايا يمكن أن تحل ولكن ما وضعه الفلاسفة المسلمون في ذلك يضع أمام القارىء المهتم ثروة فكرية كبيرة.

على أن ابن رشد نجح نجاحاً باهراً في ناحية فلسفية أخرى، وهي شرح أرسطو. ومع أن الرجل لم يكن يعرف اليونانية فانه اعتمد على ترجمات للتفاسير الموجودة. وكانت طريقته أن يأخذ النص من أرسطو ويفسره. ولكن عمله لم يقف عند هذا الحد الضيق، فكثيراً ما كان يضيف الى الشرح آراءه الفلسفية. ولعل شرحه لكتاب أرسطو تفسير ما وراء الطبيعة أهم كتبه في هذا المجال.

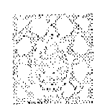
يقول فيليب حتي عن أرسطو وشارحه ابن رشد: «كانت شهرة ابن رشد تقتصر على أنه شارح كبير، ولكن الشرح، بحسب أصول البحث الحديث ومستواه لا يعد عملاً عظيماً اليوم. إلا أن قولنا هذا لا ينطبق على العصور السابقة. فلو لم يشرح أرسطو لما انتفع أحد بفلسفته... ومعلوم ان ابن رشد لم يكن أول شارح لأرسطو... وفي الواقع أنه كان آخر شارح من شراح أرسطو الكبار من الاغريقيين والعرب. ولكن ما أن ظهر شرحه إلى العبرانية واللاتينية حتى أهمل الناس جميع الشروح السابقة... فبعد وفاة ابن رشد بخمسين سنة أصبح اسمه مشهوراً في الأوساط الفكرية في أوروبا... وأصبحت «الرشدية»، أي دراسة أرسطو بواسطة شروح ابن رشد، درساً رئيسياً في الجامعات، وحركت الفكر الاوروبي على مدى ثلاثة قرون كما لم تحركه حركة فكرية أخرى... وعلى مر الزمن أثارت الفلسفة الرشدية، بتركيزها على العقل، ردة فعل دينية في أوروبا كتلك التي أثارتها فلسفته وفلسفة أسلافه في العالم الإسلامي... وقد حرمت كتب أرسطو وابن رشد في جامعة باريس لبعض الوقت».

ولنذكر أنفسنا بأن ابن رشد كان طبيباً كما كان فقيهاً وفيلسوفاً. وأفضل مؤلفاته في الطب كتاب الكليات في الطب. وهو كتاب تناول فيه علم التشريح ووظائف الأعضاء والصحة والمرض وتشخيص الأمراض والعقاقير والمداواة. وفيه وصف علمي لوظيفة شبكية العين. ويذكر ابن رشد في كتابه هذا أن من أصيب بالجدري مرة لن يصاب به مرة أخرى.

ومن الناحية الشخصية فقد كان ابن رشد

على خلق عظيم. وقد أخرج فيليب حتي أنه كان «رجلاً شغوفاً بطلب العلم، عفا الى درجة التقشف والزهد، متواضعا لا يطلب شيئاً لنفسه قانعاً بعيشه، زاهداً في السلطان... كريماً... وكان ايمانه بالله راسخاً لا يتزعزع، شأنه في ذلك شأن سائر فلاسفة المسلمين. لا بل أن علمه كان يرسخ عقيدته بالله. وكان يقول أن من يدرس تركيب الجسم البشري يزداد ايمانه بالخالق المبدع. وأكثر من هذا، كان ابن رشد، كما كان سائر الفلاسفة المسلمين، يقوم بشعائر الدين وفروضه.

هذا هو ابن رشد الذي ترك في دنيا الفكر العالمي دوياً كبيراً. ●



وافق شن طبقة(*)

كان شن رجلاً من دهاة العرب وعقلائهم. وقال يوماً: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها. فبينما هو في بعض مسيره اذ وافقه رجل في الطريق فسأله شن: أين تريد؟ فقال: موضع كذا ــ يريد القرية التي يقصدها شن ــ فوافقه، حتى اذا أخذا في مسيرهما قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟! فسكت عنه شن.

وسارا حتى اذا قربا من القرية اذا بزرع قد استحصد(١)؛ فقال شن: أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فقال له الرجل: يا جاهل؛ ترى نبتاً مستحصداً فتقول: أكل أم لا؟ فسكت عنه شن.

حتى اذا دخلا القرية لقيتهما جنازة(٢)، فقال شن: أترى صاحب هذا النعش حياً أو ميتاً؟ فقال له الرجل: ما رأيت أجهل منك! ترى جنازة تسأل عنها، أميت صاحبها أم حي؟

فسكت شن وأراد مفارقته؛ فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به الى منزله؛ فمضى معه: وكان للرجل بنت يقال لها طبقة؛ فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها. بمرافقته اياه، وشكا اليها جهله، وحدثها بحديثه.

فقالت: يا أبت، ما هذا بجاهل! أما قوله: أتحملني أم أحملك، فأراد أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع طريقنا! وأما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فأراد: هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأما قوله في الجنازة، فأراد: هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا!

فخرج الرجل فجلس الى شن؛ فحادثه ساعة، ثم قال: أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم. ففسره. فقال شن: ما هذا من كلامك، فأخبرني من صاحبه؟ قال: ابنة لي.

فخطبها اليه، فزوجه اياها، وحملها الى أهله. فلما رأوها قالوا: وافق شن طبقة(٣).

الهوامش

(*) مجمع الأمثال: ٢ ــ ٢١١.

(١) استحصد: آن أن يحصد.

(٢) الجنازة: الميت على السرير.

(٣) فذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين. هذا، وقيل أن أصل المثل: أنهما حيان اتفقا على أمر فقيل لهما ذلك؛ لأن كل واحد منهما قيل ذلك له لما وافق شكله ونظيره. وقيل: شن حي من عبد القيس، وطبق: حي من اياد، وكانت شن لا يقام لها، فواقعتها طبق فانتصفت منها. وقيل: شن قبيلة كانت تكثر الغارات، فواقعهم طبق من الناس فأبادوهم.

تلك الأيام

مذكرات وذكريات ٧

د. حليم أبو عزّ الدّين

سيرة انسان، ومسيرة دولة، ومسار أمة

منذ خمسين عاماً والسفير الدكتور حليم سعيد أبو عز الدين يلاحق القضايا العربية ويتتبعها، وأحياناً يشارك فيها، ثم يدونها في مذكرات يومية تتضمن الحدث، والرأي مرفقين بالوثيقة العائدة للحدث باعتبارها المرجع الأول والأساسي للتاريخ.

وفي هذا الشهر أصدر الدكتور أبو عز الدين مذكراته في كتاب ضخم تتجاوز عدد صفحاته ..٣٢ صفحة موزعة على جزئين، بعنوان:

تلك الأيام ــ مذكرات وذكريات
سيرة إنسان، وسيرة دولة، ومسار أمة(١)

وهذا الكتاب هو سجل يومي للأحداث اللبنانية والعربية مع اشارة الى الأحداث العالمية البارزة.

ويتميز الكتاب بالعدد الضخم من الوثائق السياسية العربية، وبعضها قد يكون غير معروف إلا لدى بعض الخاصة، وبالتعليقات الموضوعية والقانونية عليها.

كتاب أعدّه صاحبه خلال خمسين سنة، وكتبه خلال خمس سنوات، كتاب هو في الواقع، موسوعة للقضايا العربية في القرن العشرين.

ويسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تقتطف من هذا الكتاب التاريخي القيم بعض الصفحات التاريخية التي تلقي المزيد من الأضواء على التاريخ العربي الحديث.

الحاج محمد أمين الحسيني



كان الحاج محمد أمين الحسيني، المفتي الأكبر لفلسطين، قد اضطر عام ١٩٣٧ لمغادرة فلسطين الى لبنان لما نما إليه عن عزم السلطات البريطانية الحاكمة على اعتقاله. وفعلا وصل خفية الى بيروت، ولم تمانع السلطات الانتدابية الفرنسية في نزوله في ربوع لبنان، على أن يراعي القواعد الموضوعة لحالات اللجوء السياسي.

ونزل المفتي في صربا، قرب جونية ــ وفي نفس البيت الذي صار فيما بعد مقراً لرئاسة الجمهورية اللبنانية على عهد الرئيس فؤاد

(١) دار الآفاق الجديدة ــ بيروت، ١٩٨٢.



مع مفتي فلسطين الأكبر الحاج محمد أمين الحسيني في بيروت ١٩٥٣/١١/٢٢.

شهاب.

وأصبح منزل المفتي مقصداً للعاملين في الحركات الوطنية العربية من لبنانيين وسوريين وفلسطينيين وعرب. وكان أقطاب الفلسطينيين يأتون لزيارته في لبنان ويتلقون توجيهاته في شؤون الثورة الفلسطينية. وكان المفتي، في نفس الوقت، رئيس اللجنة العربية العليا لفلسطين، وزعيم الحركة الوطنية فيها.

ومع ان السلطات الفرنسية في لبنان احسنت، في الواقع، معاملته الا انه شعر مع الوقت، أن من الأفضل له أن ينتقل الى بلد عربي آخر، لأن الانكليز كانوا يضغطون على الفرنسيين لاخراجه من لبنان.

وسافر المفتي فجأة وسراً، كما كان قد وصل الى لبنان فجأة وسراً. وإذا به ينزل بغداد حيث أحسنت الحكومة العراقية وفادته.

وبقي المفتي في بغداد حتى أواخر أيار ١٩٤١، وقام بدور رئيسي في حركة رشيد عالي الكيلاني كما أسلفنا وكانت له كلمته المسموعة لا في الشؤون الفلسطينية فحسب، بل وايضاً في الشؤون العربية.

كان منزله في بغداد محجة لجميع العرب. حتى العراقيون أنفسهم، وخاصة أوساطهم الوطنية، كانوا يلجأون اليه ويستمعون الى رأيه، ويسترشدون بفكره.

ولما اصيبت الحركة الوطنية في العراق بتلك النكسة المؤلة التي أنهت الحرب العراقية عام ١٩٤١، غادر المفتي العراق الى ايران. ولم يمكث طويلا في ايران فغادرها الى ايطاليا والمانيا.

لم يذهب المفتي الى المانيا بملء ارادته، لكن الأوضاع السياسية والعسكرية في البلاد العربية، في تلك الحقبة الدقيقة من أيام الحرب، اضطرته الى السفر اليها.

لم يكن بمقدوره العودة الى فلسطين، أو الذهاب الى لبنان أو سوريا (فما عتم الانكليز ان احتلوهما بعد حرب العراق مباشرة)، أو السفر الى مصر. فسافر الى المانيا لعله يجد لدى الألمان أذناً صاغية لمساعدة القضية العربية.

المفتي لم يكن نازياً، كما أشاعت الدعايات المغرضة، ولا ميالاً للألمان أو للمحور. المفتي

كان عربياً قومياً أراد ان يخدم قومه بجميع الوسائل في سبيل التوصل الى تحقيق أمانيهم.

كانت بريطانيا، صاحبة تصريح بلفور، تحكم فلسطين بالحديد والنار. كما كانت تحتل الجزء الأكبر من البلدان العربية من السودان الى مصر الى لبنان الى سوريا الى الاردن الى العراق الى أطراف الجزيرة. وكانت فرنسا قد تخاذلت وغابت عن المسرح العالمي الفعال. والاميركيون كانوا مترددين بين الاستمرار في «الانعزالية الفخمة» او التورط في متاهات السياسة العالمية التي كانت بريطانيا تحتكرها حتى ذلك الوقت.

لم يجد المفتي أمامه الا اللجوء الى المانيا. وفي سبيل العرب ذهب المفتي الى المانيا، وتحمل هناك كثيراً من المتاعب. وكأنه كان لا يكفيه متاعب الانكليز، فواجه في المانيا متاعب المحور، ومتاعب العرب أنفسهم.

ولم يكن للألمان سياسة عربية واضحة. الألمان كان كل همهم منصرفاً الى ربح الحرب. وما كانوا ليهتموا بالشؤون العربية إلا كاحدى الوسائل لربح الحرب.

وانتقل المفتي الى ايطاليا وأجرى اتصالاته بأقطاب الحكم فيها، ولم تكن النتيجة تحقق الأماني.

والدول، وخاصة الكبرى منها، لا تكيل الوعود خلال الحروب إلّا إذا كانت بأشد الحاجة لمساعدة البلد الموعود. حتى إذا وعدت، وتغير مجرى الحرب لصالحها أخلفت بوعدها، واذا انهزمت فيسقط الوعد تلقائياً.

ولم ينس العرب بعد وعود الانكليز، في الحرب العظمى الأولى، للشريف حسين حول الاستقلال والوحدة.

ولما وضعت الحرب أوزارها، تبخرت الوعود، وتملص الحلفاء من العهود.

وبقي المفتي في المانيا حتى نهاية الحرب، وأنجز الحلفاء الغربيون احتلال المانيا.

وفي النهاية، تمكن بطريقة برع فيها المفتي لكثرة ما اضطر الى الاختفاء والسفر، من السفر الى مصر.

وحل في مصر ضيفاً عزيزاً مكرماً. واستقبله الملك فاروق ورحب به وأنزله خير منزل.

وسكن المفتي داراً تقع في حلمية الزيتون، احدى ضواحي القاهرة.

وعاد الزمن الى مساره.

وعاد بيت المفتي في حلمية الزيتون مقصداً لرجالات العرب،

وكانت عودة الحاج أمين مؤذنة ببعث العمل الفلسطيني، بعد الركود الذي خيم خلال فترة الحرب.

وأعيد تشكيل «الهيئة العربية العليا لفلسطين» برئاسة المفتي، وعضوية أقطاب الحركة الفلسطينية.

وبدأ العمل السياسي من أجل فلسطين، يردفه الاستعداد الحربي. وقد توافدت اللجان البريطانية، والبريطانية — الاميركية، والأممية، الى فلسطين وإلى المشرق العربي لدرس القضية الفلسطينية عن كثب والعمل لإيجاد الحل المستعصي لهذه القضية.

وبالطبع كان اللواء، في كل هذه النشاطات، معقوداً للمفتي.

السياسة تبدأ عنده.

والحرب تبدأ عنده.

وعمل المفتي للسياسة، كما عمل للحرب.

أعطى ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

كان يوجه المفاوضات ويدير الاتصالات السياسية والدبلوماسية.

وكان يدرب المقاتلين، ويشتري الأسلحة والذخيرة.

كانت الصحراء الغربية بين مصر وليبيا مزروعة بمخلفات الجيوش، من بريطانية واميركية، حتى والمانيا وإيطالية.

وكانت لجان الشراء العربية تتوالى على الصحراء.

وكل ذلك استعداداً للحرب، وللجهاد

المفتي استعد للقتال،

ولكن الدول العربية انبرت لاغنائه عن القتال وعن... الهزيمة. حتى أنها حرمت عليه دخول فلسطين بعد بدء القتال عام ١٩٤٨.

وذهب، كعادته سراً، إلى غزة، حيث انتخب رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني، ولكن الدول العربية أعادته الى القاهرة.

كانت تخشى منه، أكثر مما كانت تخشى عليه.

والكثيرون قد لا يذكرون هذه الأحداث، ولكنها وقائع ثابتة في تاريخ الحركة العربية.

وهذه المذكرات تنشد الحقيقة، وتقول الحقيقة، فقط الحقيقة.

كانت الوفود الطارئة على مصر، خاصة منها العربية، تبدأ عملها في القاهرة بقيد أسمائها في سجل التشريفات الملكية في قصر عابدين. وأكثر ما تكون الزيارة الثانية للمفتي في حلمية الزيتون.

ويذكر صاحبنا، وكان حينذاك قائماً بأعمال المفوضية اللبنانية في مصر، أن الوفود اللبنانية، من رئيس مجلس الوزراء الى الوزراء الى كبار الموظفين، كانوا يزورون المفتي في بدء إقامتهم في القاهرة لتبادل وجهات النظر، والوقوف على آرائه، خاصة والقضية الفلسطينية كانت هي الهدف.

ويذكر يوماً مر فيه كميل شمعون بالقاهرة، عائداً من مفوضيته في لندن، وطلب من القائم بالأعمال اللبناني أن يصاحبه لزيارة المفتي. واتصل صاحبنا بالمفتي واتفقا على موعد؛ وذهب الاثنان الى حلمية الزيتون. واجتمعا مطولاً بالمفتي. ونقل اليه كميل شمعون مطالعاته عن السياسة البريطانية في فلسطين، وعن الموقف في الأمم المتحدة. ومما يذكره جيداً أنه، خلال الحديث، قال شمعون للمفتي: «يا سماحة المفتي: إحذر غدر اليهود. فاليهودي وهو ضعيف يقف بين قدميك، أما وهو قوي فهو يقفز ليضيق الخناق على عنقك».

وقامت، بعد ذلك، حرب فلسطين.

وستفرد هذه المذكرات فصلاً خاصاً عنها.

وأقام الفلسطينيون والعرب «حكومة عموم فلسطين» برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي.

وخسر العرب معركة فلسطين.

ولا أقول حرب فلسطين.

وتجسدت الهزيمة في الشخص الذي كان سيتجسّد فيه النصر لو تم، مع أنه لم يكن مسؤولاً عن الهزيمة.

كانت مسؤوليته كغيره. هو أصاب، وأخطأ. ولكنه جاهد وناضل، وعمل طيلة حياته لخدمة قضية فلسطين، قضية العرب.

ولكن هذه سنة الحياة.

وتحمل المفتي الفشل بصبر واناة، شيمة المؤمن.

وعاد الى لبنان، وطنه الثاني.

وعاد إلى النشاط، ولكنه أصبح نشاط الشيخوخة.

ولم تعد صحته تتحمل ذلك الجهد الدائم، فاعتلت من كثرة ما عانت.

وتوفي في لبنان.

وهو الآن يرقد في ثرى لبنان، بدلاً من جوار المسجد الأقصى.

تغمده الله بالرحمة والرضوان.

فوزي القاوقجي

فوزي القاوقجي ضابط لبنان، ولد في طرابلس الفيحاء، وعمل في كل بلد عربي مناضلاً، ومقاتلاً في سبيل كل قضية عربية حقة.

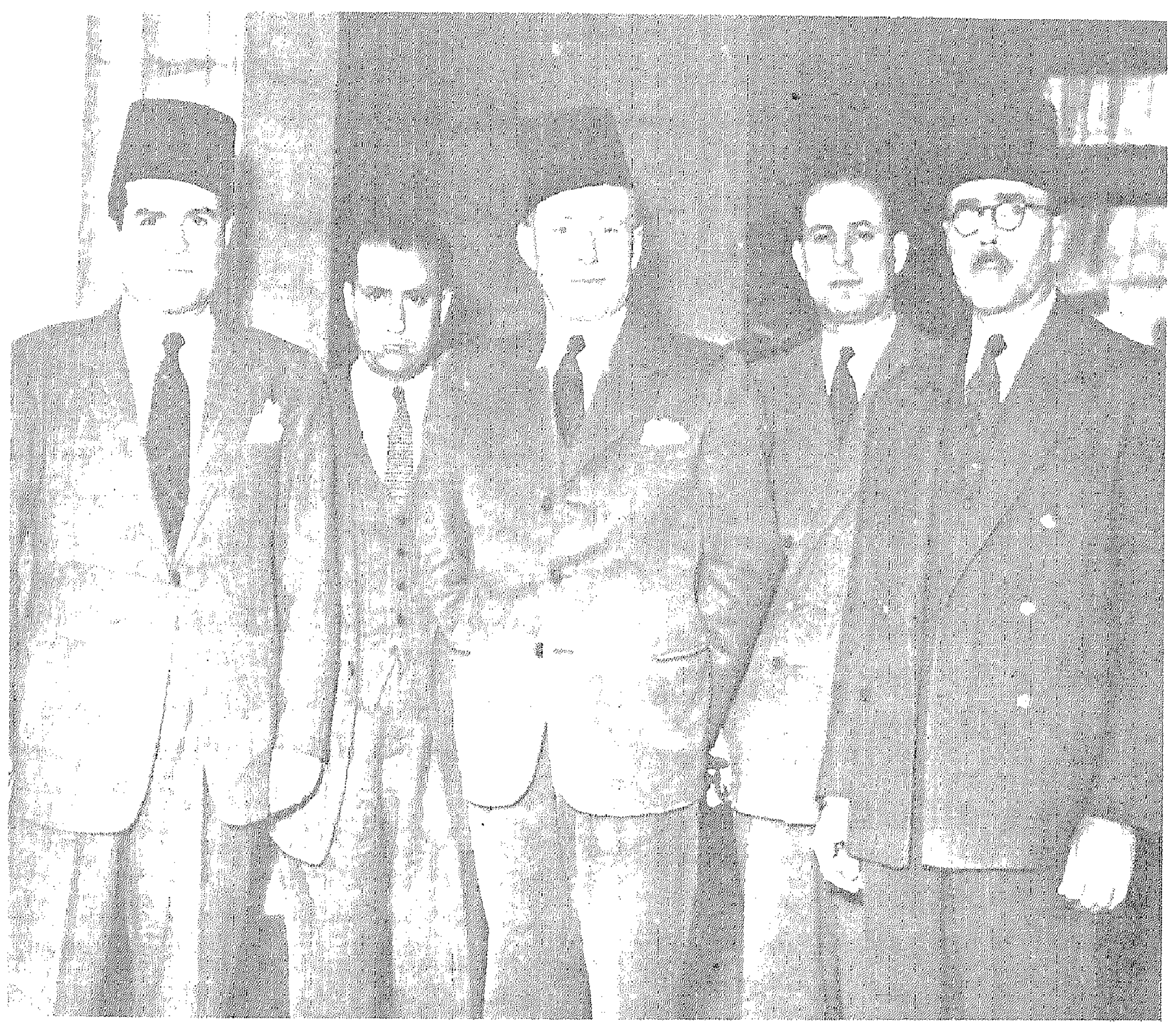
كان محترفاً، وكان هاوياً.

كان محترفاً الجندية. درسها في اكفأ مدارسها، واحترفها منذ يفاعته حتى الشيخوخة.

كان هاوياً الجهاد. لا يكاد يسمع بحركة نضال في بلد عربي حتى يشد رحاله إلى ذلك البلد.

عمل في لبنان، وسوريا، وفلسطين، والاردن، والجزيرة، والعراق.

كان يعتبر نفسه، وعن حق، مواطناً في كل بلد عربي يقيم أو يعمل فيه. عمل في صفوف «القوات الخاصة» اللبنانية والسورية، العاملة باشراف «جيش الشرق» الفرنسي في أوائل عهد الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا. وما ان قامت الثورة في جبل الدورز، وهو ضابط برتبة «نقيب» في الجيش في حمص حتى أعلن العصيان، وسارع مع رفاقه وقواته وانضم الى قوى الثورة. واحتل بعض المواقع العسكرية



أمام مدخل قصر عابدين في القاهرة عام ١٩٤٦ في الصف الأول من اليمين: نسيب شهاب، فوزي القاوقجي، حليم أبو عز الدين. في الصف الثاني: ايليا شاغوري، عزت الحافظ.

الفرنسية في حمص. ثم امتدت الثورة من الجبل الى غوطة دمشق والى جنوبي لبنان، والقاوقجي يقاتل في جميع المواقع.

وبعد أن خمد أوار الثورة، ذهب الى الاردن، والسعودية حيث انخرط في الجيش السعودي. ثم انتقل الى العراق وعمل سنوات في الجيش العراقي.

ولدى بدء الثورة الكبرى في فلسطين عام ١٩٣٦ انتقل الى فلسطين وقاتل قوات الانتداب والصهاينة. وعاد في نهاية الثورة إلى العراق حيث أقام.

وما أن بدأت الحركات في العراق في نيسان وأيار ١٩٤١، أيام وزارة رشيد عالي الكيلاني، حتى ذهب القاوقجي على رأس قوة من المجاهدين الى البادية لقطع خطوط التموين البريطانية عن قاعدة الحبانية.

واشتبك مع القوات البريطانية، وقوات «أبو حنيك» (غلوب باشا)، واستشهد عدد من صحبه في تلك المعارك وفي مقدمتهم الشهيد حمد صعب.

وانتهت معارك الحرب العراقية البريطانية على ما وصفنا في فصل سابق، وغادر القاوقجي العراق الى المانيا، في حزيران ١٩٤١.

وبقي طيلة ما تبقى من الحرب في المانيا.

وعاد بغتة، عام ١٩٤٦ الى القاهرة: وكان لعودته طنين ورنين بدآ منذ وصوله الى مطار القاهرة، وكان ذلك بعيد منتصف ليل أحد الأيام.

ففي تلك الساعة المتأخرة لليوم السابق، والمتقدمة لليوم التالي، رن جرس الهاتف في شقة صاحبنا في فندق كونتننتال. وكان المتكلم ضابط في شرطة جوازات مطار القاهرة. وقال ان هنالك مسافراً، وصل لتوه من اوروبا مع زوجته، ويقول أنه لبناني، واسمه فوزي القاوقجي.

قال صاحبنا: فوزي القاوقجي؟

قال: نعم، فوزي القاوقجي.

فقطع على الضابط حديثه، وقال له: هل هو بقربك الآن؟

قال: نعم. قال: أعطنيه. قال: تفضل يا أفندم.

قال صاحبنا: من يتكلم؟ وكان لا يزال تحت تأثير النعاس، ولكن لدى سماعه اسم القاوقجي، المجاهد اللبناني العربي، وصديقه من بغداد، أصبح التأثير إثارة.

أجاب: فوزي القاوقجي.

قال له: الحمد لله على السلامة يا فوزي بك، وأهلاً بك ومرحبا.

قال: شكراً، ومن حضرة الأخ الكريم؟

قال: أنا حليم أبو عز الدين، وقد تذكرني من أيام بغداد

قال: كيف لا، أذكرك جيداً، وأضاف بعض كلمات لطيفة.

فقال صاحبنا: انتظرني في المطار أنا قادم اليك لأحضرك معي الى المدينة.

قال: ولكن ضباط شرطة الجوازات يرفضون السماح لي بدخول مصر لأن اسمي وارد على اللائحة السوداء.

قال القنصل: أعطني الضابط. وكلم صاحبنا الضابط فأخبره الأخير ان اسم فوزي القاوقجي مسجل في لائحة غير المرغوب فيهم منذ زمن طويل، ولا يمكن، بالتالي، السماح له بدخول مصر.

حاول صاحبنا أن يفهمه من هو القاوقجي، وكيف أنه منع من دخول مصر في عهد المستشارين الانكليز، ولأسباب وطنية بحتة، فأجابه أن ليس بامكانه اجراء أي تعديل في اللائحة، وان أي تعديل يجب أن يأتي من مستوى أعلى. فسأله عن مرجعه قال: المدير العام للجوازات والاقامة بوزارة الداخلية.

ومع أن الوقت كان متأخراً جداً، طلب القنصل أن يكلم المذكور في بيته نظراً لأهمية الموضوع.

كان المدير العام يجهل تماماً من هو القاوقجي، وما هو ماضيه، ووجد صاحبنا ان الاستمرار في التحدث اليه مضيعة للوقت.

وفقا لسلم التسلسل خابر رئيس الأخير، أي وكيل وزارة الداخلية. وكان هذا متفهما أكثر من مرؤوسه، ولكنه أظهر صعوبة تجاوز قرار المنع، وأشار بالاتصال بوزير الداخلية. وكان وزير الداخلية محمود فهمي النقراشي، رئيس مجلس الوزراء!

عندئذ رأى القنصل أن يوقف الحديث الهاتفي عند هذا الحد، وان يذهب الى المطار. وفعلاً ارتدى ملابسه وذهب الى المطار فوصل اليه عند الفجر.

ذهب إلى دائرة الجوازات حيث كان القاوقجي وزوجته الالمانية، ومرافقه حميد، بانتظاره. فتعانق والقاوقجي وسلم على الباقين ورحب بهم. وجلس يتجاذب أطراف الحديث مع القاوقجي وضابط الشرطة حتى الصباح، وعندئذ طلب أن يكلم وزير الداخلية النقراشي.

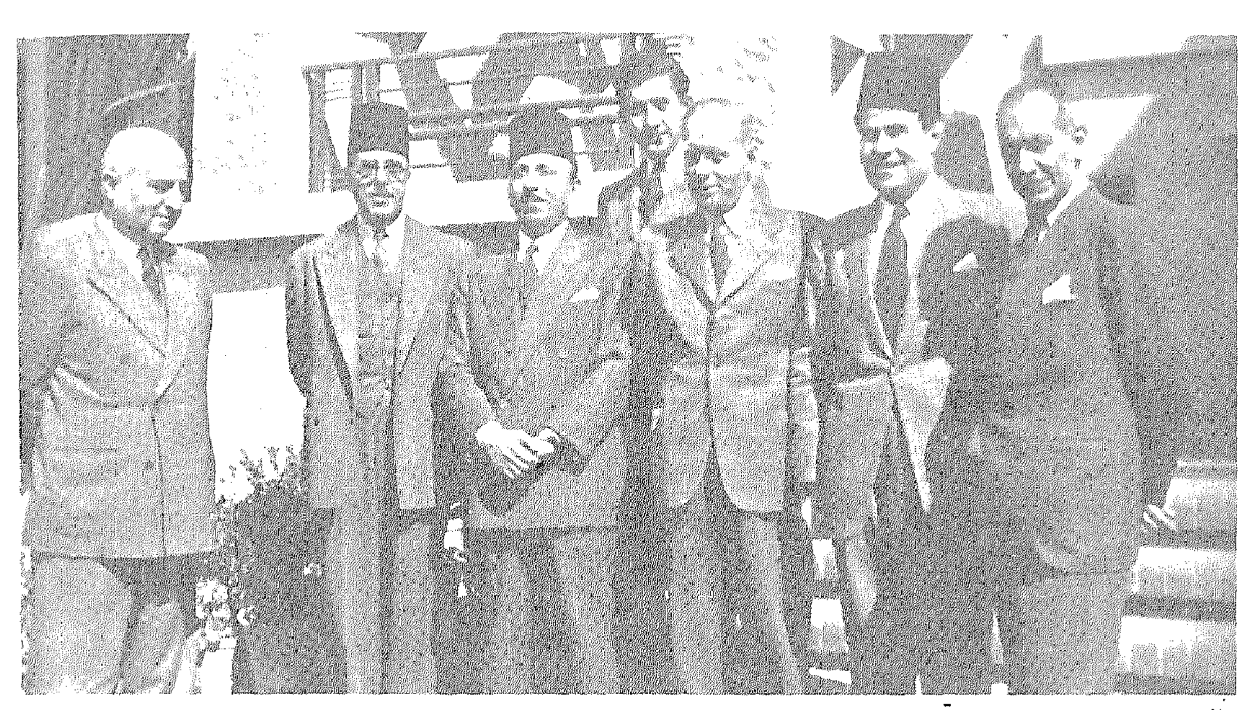
تردد الضابط في البدء قبل أن يطلب النقراشي فقال له القنصل: أنا يا أخي سأكلمه وليس أنت، فلا تخش همّاً، ولا أريد منك سوى وصلي به.

وكان النقراشي مشهوراً بشدته وصرامته، وكان الجميع يهابونه. طلب الضابط منزل النقراشي، وأخذ صاحبنا السماعة منه وقال للحارس: قنصل لبنان العام في القاهرة يتكلم. أرجو الاعتذار من دولة الوزير لازعاجه في هذه الساعة المبكرة من النهار، ولكن هنالك أمراً هاماً ومعجلاً أريد أن أعرضه عليه.

أجاب: طيب يا أفندم لما نشوف إذا كان دولة الباشا صحي.

وبعد برهة سمع القنصل صوت النقراشي على الهاتف. فألقى عليه صاحبنا تحية الصباح، واعتذر للازعاج وشرح له الموضوع.

وتبين أن معلومات النقراشي عن القاوقجي كانت أكثر مما يعرفه مرؤوسوه، ولكنها لم تكن كافية. وبان عليه التردد في اتخاذ قرار الغاء



من اليمين حبيب جاماتي، حليم أبو عز الدين، فوزي القاوقجي، تقي الدين الصلح، نسيب شهاب، يوسف عكر وفي الصف الثاني جان رياشي

المنع. وكان ذلك التردد حافزاً للقنصل للتفصيل في التعريف بالقاوقجي. وبعد أخذ ورد وافق النقراشي على التصريح بدخول القاوقجي الى مصر. فشكره القنصل.

واستصحب القنصل القاوقجي وعائلته معه الى القاهرة، ونزلوا في فندق كونتننتال. وأخذوا هناك قسطاً من الراحة.

وفي الأثناء انتشر في الأوساط العربية في مصر نبأ وصول القاوقجي، فهب العديدون للسلام عليه في الفندق. وكان أول القادمين نسيب شهاب القائم بأعمال سوريا في القاهرة، وهو لبناني الأصل من عائلة شهاب المعروفة في صيدا، وبالاضافة إلى ذلك فهو مجاهد قديم قام بدور وطني مرموق في عهد الحكم العربي في دمشق، وقاتل الفرنسيين في «ميسلون» وفي معارك الثورة السورية.

واحتفت الأوساط العربية في مصر بالقاوقجي. وبقي في القاهرة بضعة عشر يوماً. وطالت اقامته في القاهرة بسبب الوضع الذي كان سائداً في ذلك الحين في طرابلس، مسقط رأس القاوقجي.

فقد اتصل صاحبنا هاتفياً بهنري فرعون، وزير الخارجية، وأعلمه بوصول القاوقجي الى مصر وبعزمه على العودة الى لبنان. فطلب الوزير من صاحبنا أن يقنع القاوقجي بالتمهل في السفر بسبب الحالة الداخلية في طرابلس. وهذا ما حصل.

ثم سافر القاوقجي وعائلته الى بيروت من بعد وصول اشارة بالموافقة من الحكومة، ظناً بأن الحالة في طرابلس قد هدأت.

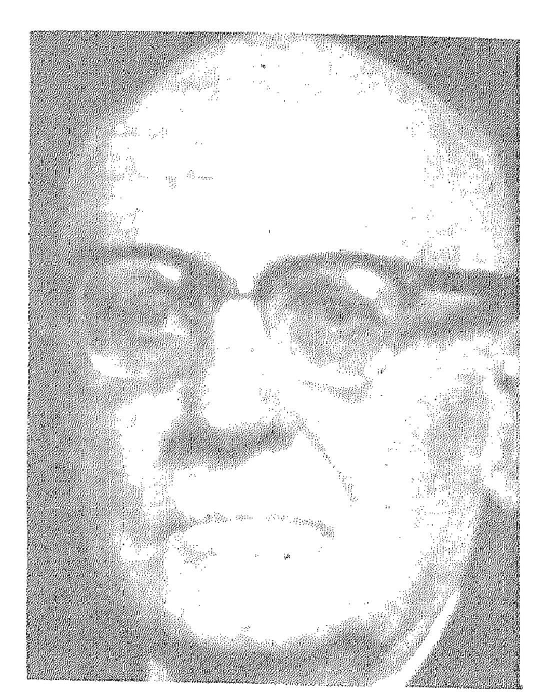
ولكن، ومع الأسف، وبدون أن يكون للقاوقجي أي يد في الموضوع، وقعت مجزرة دموية في طرابلس يوم وصول القاوقجي إليها عام ١٩٤٦ بسبب خلافات ترتدي الطابع المحلي.

وعاش القاوقجي ما تبقى من حياته في لبنان، واتخذ له مسكناً في الشياح، في احدى ضواحي بيروت، وتوفي مأسوفاً على وطنيته وجهاده.

ساطع الحصري

كان من حظ صاحبنا، في تلك الفترة، ان يتعرف على أستاذ الجيل القومي العربي الحاضر، ساطع الحصري.

جاء ساطع الحصري الى القاهرة مستشاراً للادارة الثقافية في الأمانة العامة لجامعة الدول



ساطع الحصري.

العربية يتقدمه رصيد ضخم من العمل القومي العربي على صعيد الفكر والثقافة والتربية والتعليم، والسياسة.

نشأ ساطع الحصري في العهد العثماني في حلب ثم في استانبول وعمل في الادارة السلطانية العثمانية، وطاف في أرجاء الممالك المحروسة إدارياً كبيراً، ولكنه كان قبل كل شيء مفكراً عالماً وأديباً.

كان اسمه في مقدمة أسماء العرب الذين بلغوا شأواً بعيداً في ديار السلطنة عن طريق الجدارة والكفاءة. وأصبح من كبار أهل الفكر والأدب في الامبراطورية العثمانية.

قال أحد كبار الأتراك تعليقاً على عودة ساطع الحصري، بعد الحرب الأولى، الى موطنه سوريا العربية: ان خسارة تركيا ساطع الحصري لا تقل عن خسارتها امبراطوريتها.

وفي سوريا بعد الحرب الأولى، اصبح ساطع الحصري وزيراً للمعارف في الحكومة الاستقلالية العربية بزعامة الملك فيصل الهاشمي. وهو الذي أوكل إليه الملك فيصل مفاوضة الجنرال غورو قبيل ميسلون.

وذهب، بعد ميسلون، مع الملك فيصل الى العراق حيث أشرف على إنشاء وزارة المعارف وعمل فيه ما يقارب من العشرين سنة.

وساطع الحصري هو، بلا ريب، كبير منظري الفكر القومي العربي، وفيلسوف العقيدة القومية العربية.

وضع أسس الفكر القومي العربي على دعائم متينة من العلم والعقيدة، واندفع يبشر به قولاً وعملاً وتعليماً.

دعا ساطع الحصري الى قومية عربية تقدمية حضارية جامعة، وعمل لها طيلة حياته الطويلة العامرة.

أبو خلدون، ساطع الحصري، كان رائد الفكر القومي العربي الحديث.

وخلّف للعرب كنوزاً فكرية هم دائماً بحاجة إليها.

مكتب المغرب العربي

في تلك السنوات، أواسط الأربعينات وما بعد، قام في القاهرة «مكتب المغرب العربي».

وكان على رأس المكتب نخبة من أقطاب المغرب العربي الكبير لجأوا الى مصر لمواصلة جهودهم من أجل تخليص أقطار المغرب من براثن الاستعمار الفرنسي.

كانت أسماؤهم معروفة لجهادهم الطويل، وشخصياتهم محترمة لرصيدهم الفكري من جهة، ولرصيدهم الشعبي في قيادة حركة التحرر في المغرب.

كان هنالك تونسيون، ومغاربة، وجزائريون.

كان على رأس التونسيين أقطاب الحزب الدستوري: الحبيب بورقيبة، والحبيب تامر، ويوسف الرويسي.

وكان في مقدمة المغاربة علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال، وعبد الخالق الطريس، زعيم الحزب في منطقة الخلافة التي كانت تحكمها أسبانيا ومحمد بن عبود، وأحمد بن عبود.

وكانت الحركة الوطنية الجزائرية تمثل الجزائر، إذ لم تكن جبهة التحرير الوطني قد ظهرت بعد.

وكان يقود الحركة الوطنية الجزائرية

مصالي الحاج المنفي في فرنسا.

وقام خلاف، فيما بعد، بين الحركة الوطنية الجزائرية وجبهة التحرر الوطني لما برزت بقوة عام ١٩٥٤، غابت بعده الحركة عملياً عن مسرح العمل الجزائري.

هؤلاء الأقطاب المغاربة كانوا لاجئين إلى مصر، وقد أحسنت مصر وفادتهم واكرمتهم، وفتحت أمامهم أبواب استئناف النضال في سبيل تحرير بلدانهم الشقيقة.

الأمير عبد الكريم الخطابي



أمام دار السفارة اللبنانية في القاهرة في ٢١/ ٩/ ١٩٤٩.
حليم أبو عزالدين يودع الأمير عبد الكريم الخطابي، وبينهما شقيقه محمد الخطابي وخلفهما الحاج محي الدين رضا.

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف، شمالي المغرب، ضد الاستعمارين الفرنسي والاسباني، أسيراً منفياً في جزيرة «ريونيون» منذ العام ١٩٢٦.

وفي أواخر الأربعينات خطر للسلطات الفرنسية أن تخفف من أسره، فقررت نقله من الجزيرة الافريقية البعيدة الى فرنسا.

وأعلنت فرنسا هذا الاجراء تقرباً من الرأي العام المغربي، وحددت موعداً لنقله بالباخرة من الجزيرة الى فرنسا.

وانتشر نبأ مرور الأمير عبد الكريم وعائلته في موعد معين بقناة السويس.

وفي ذلك الموعد تقاطرت وفود المشتغلين بالقضايا المغربية خاصة، والعربية عامة، الى قناة السويس للسلام على البطل العربي في المياه العربية، مياه قناة السويس، وان كانت القناة تخضع لادارة أجنبية في ذلك الحين.

وعبرت الباخرة المقلة الأمير عبد الكريم القناة. وتوقفت في الميناء. وصعدت اليها الوفود، وفي طليعتها رجال «مكتب المغرب العربي» في القاهرة. واجتمعوا بالأمير وصحبه وكان منهم شقيقه محمد عبد الكريم الخطابي، وأنجال الأمير. وعرضوا على الأمير، بل الحوا عليه، أن ينزل في مصر متحرِّراً من قيود الأسر الفرنسي. ووافق الأمير عبد الكريم، وغادر وصحبه الباخرة، وتوجهوا الى القاهرة. وكان الترحيب عاماً في مصر وفي العالم العربي بالمجاهد العربي الكبير. وحل الأمير ضيفاً معززاً مكرماً على مصر.

ويذكر صاحبنا زياراته المتعددة للأمير عبد الكريم، لوحده، أو برفقة وفود لبنانية عديدة جاءت تحيي البطل العائد.

وكانت أحاديثه تتسم بالجدية والتواضع والبساطة، شأن المجاهد الكبير الحقيقي.

روى لنا ذكريات قتاله مع الاسبان والفرنسيين.

بدأت ثورته في جبال الريف، شمالي المغرب، في المنطقة الخاضعة للحكم الاسباني وامتدت الى المناطق الجنوبية المحمية من قبل فرنسا.

أرسلت اسبانيا لمقاتلته أبرز قادتها، الجنرال فرانكو، وبادرت فرنسا بتكليف كبير قادتها العسكريين، المارشال بيتان، للقضاء على الثورة المغربية، بعد أن فشل المقيم السياسي الفرنسي والقائد العسكري في المغرب، الماريشال ليوتي، في مواجهة حركة عبد الكريم.

وتعاون الجيشان الفرنسي والاسباني حتى تمكنوا من صد الثورة واعتقال قائدها بعد سنوات من القتال.

هذه هي اسطورة عبد الكريم الخطابي، وهي قريبة منا، لا يتجاوز عمرها النصف قرن، ولكن الكثيرين نسوها، أو غمطوها حقها.

ونعود الى مكتب المغرب الغربي في القاهرة.

كان المكتب يقوم في شارع ضريح سعد، بالقرب من بيت الأمة، أي بيت سعد زغلول.

وفيه تمحور العمل السياسي والاعلامي المغربي في المشرق وكان فيه، بالاضافة الى المجاهدين المعروفين، جنود مجهولون يعملون بتفانٍ من أجل المغرب الكبير، وللتعريف به.

فقد كان المغرب العربي شبه مجهول في المشرق.

الاستعمار فرق بين القطاعين العربيين الكبيرين.

كان لا يسمح للصحف العربية بدخول المغرب.

وكانت وسائل الاتصال بينهما محدودة.

كان المغرب عالماً بعيداً عنّا.

تعرف بعض المشارقة على أبنائه خلال أيام الدراسة في فرنسا، فوجدوا فيهم الاخوة الصادقة، ولمسوا لديهم الشغف العميق بكل ما هو عربي، وبكل ما هو مسلم.

فلولا العروبة، ولولا الاسلام، لضاعت شخصية المغرب العربي بقدر ما سلط عليه من ضغوط ومؤثرات، ومحرمات.

لولا العروبة، ولولا الإسلام، ولولا تلك الرجولة النضالية الحقة التي أبداها أبناء المغرب الكبير، لاندثرت هويتهم القومية، ولضاع تاريخهم العربي الحافل.

فقد أخضع هؤلاء الأخوة لاستعمار قاسٍ حاول ان يجتث ثقافتهم الوطنية من أساسها.

ولكنهم قاوموه، وبضراوة، واحتفظوا بهويتهم القومية، وشخصيتهم الوطنية.

وساعدهم على ذلك الإسلام.

فالإسلام كان لهم مُعيناً، وكان مَعيناً لا ينضب.

وفي مكتب المغرب العربي بالقاهرة تعرفنا الى اولئك الأخوان، وتعاونا وإياهم،

فالقضية واحدة،

والاستعمار واحد،

ومددنا إليهم أيدياً شقيقة تعاونهم، ومدّوا الينا أيديهم. وعملنا سوية.

كان «مكتب المغرب العربي» في القاهرة سفارة شعبية لأقطار المغرب الثلاثة ساندتها مصر، وساندتها البعثات العربية في مصر.

كان لسان المغرب الناطق، وذراعه الممدودة الى الشرق، ومن الشرق الى العالم.

في المكتب تعرّفنا على أقطاب المغرب.

تعرّفنا على الحبيب بورقيبة، على علال الفاسي، وعلى اخوانهما.

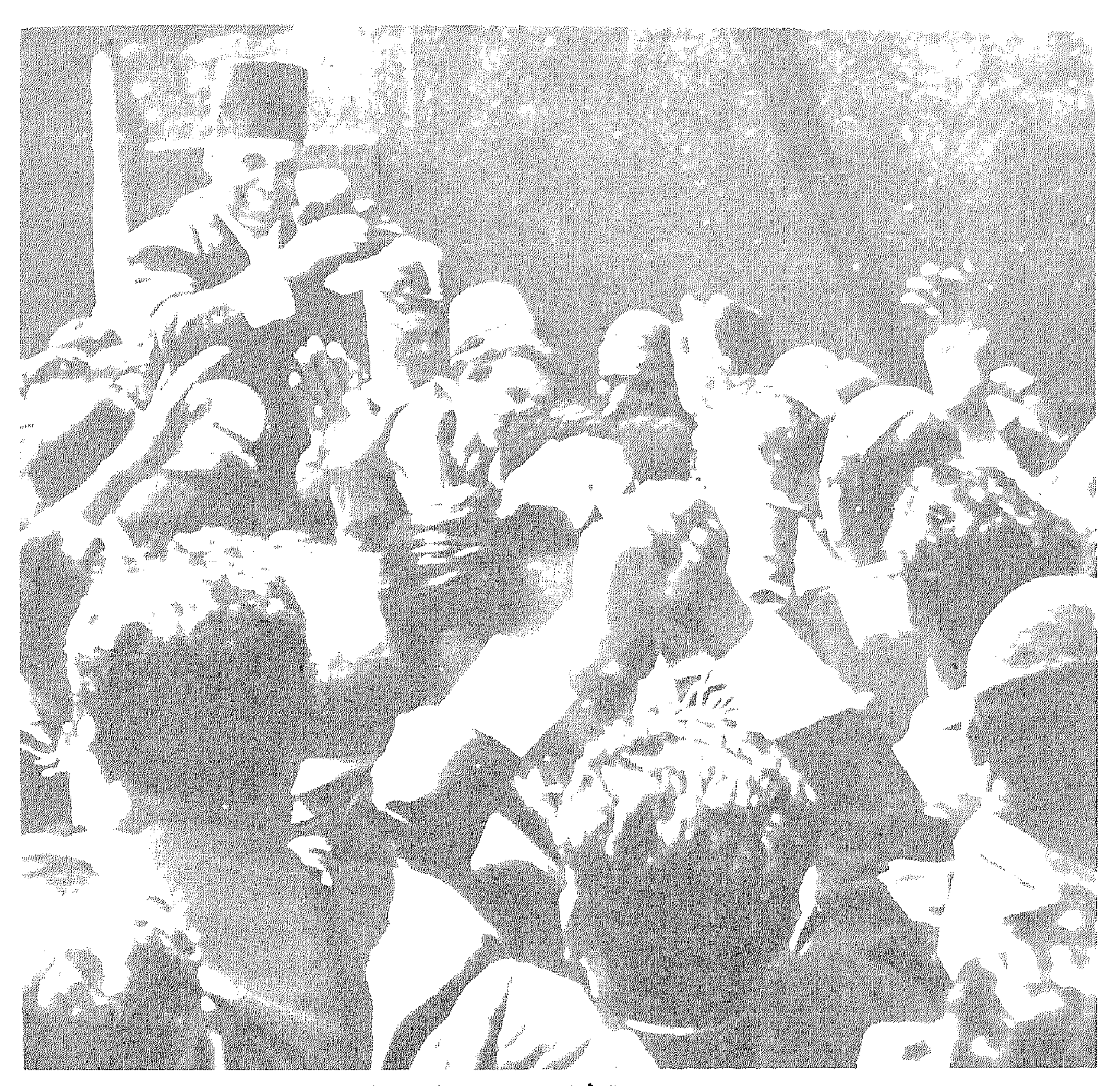
الحبيب بورقيبة

ولنتحدث عن الحبيب بورقيبة.

وصل الحبيب بورقيبة الى مصر لاجئاً من تونس، من ملاحقة الحكم الاستعماري له في بلده.

كان اسمه في ذلك الحين معروفاً لدى أقلية تتعاطى الشؤون العربية.

لم يكن الرأي العام كله يعرفه، بسبب السياج الفاصل الذي وضعه الاستعمار حول



الرئيس الحبيب بورقيبة أول حزيران ١٩٥١، تونس

المغرب العربي.

تلك الأقلية وفدت عليه ورحبت به.

وكان في طليعة المرحبين أبو الحسن محمد علي الطاهر، المجاهد الفلسطيني العربي المقيم في القاهرة، وسيأتي الكلام عنه.

والمجاهد يعرف المجاهد، ويعرف شكوى المجاهد، ويعرف حرمان المجاهد لأنه عاناه.

والقصة التالية رواها لي، في حينها، المجاهد الحبيب بورقيبة.

قال: جاءني أبو الحسن (محمد علي الطاهر) غداة وصولي إلى القاهرة ورحب بي، وعرض علي خدماته ومساعداته.

وكنت محتاجاً لكل شيء.

قال لي أبو الحسن: لابد أنك تركت تونس خفية، ولم تتزود بما تحتاج إليه من حاجات ومن مال.

وأنا أضع نفسي تحت تصرفك لكل ما تريد.

واقترب مني أبو الحسن ودس في جيبي رزمة من النقد.

قال: عفواً على هذا المبلغ الصغير. انك لابد بحاجة اليه. أنه لك، لك أن تعيده إلي إذا توفر لك المال، وذمتك مبرّأة منه إذا لم يتوفر.

وكان المبلغ أربعمائة جنيه مصري.

وذلك المبلغ، في ذلك الوقت، كان مبلغاً

محترماً، ولعله كان كل ثروة المجاهد أبي الحسن.

وكانت تلك الحادثة بداية صداقة طويلة بين المجاهدين بورقيبة وأبي الحسن.

ولم ينسَ الرئيس بورقيبة أبا الحسن لما عاد إلى تونس مجاهداً أكبر، ورئيساً للحكومة، وللدولة.

أكرم أبا الحسن، وأكرم عائلة أبي الحسن، ولا يزال الى اليوم يذكر أبا الحسن.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المركب الخشنِ

وذكرى اخرى عن بورقيبة:

وصل رياض الصلح الى القاهرة على رأس وفد لبناني لحضور اجتماعات مجلس جامعة الدول العربية قبيل احداث فلسطين عام ١٩٤٨. وأقامت له المفوضية اللبنانية في القاهرة حفل استقبال دعت اليه سائر الوفود العربية، وأركان الحكومة المصرية، والمجاهدين العرب المقيمين في القاهرة.

وكان بين المدعوين الحبيب بورقيبة.

وعانقه رياض الصلح واحتفى به احتفاء خاصا وجلس معه في زاوية منفردة من قاعة الاستقبال.

ولم يلبث رياض أن نادى صاحبنا — وكان مستشاراً للمفوضية — ودعاه للجلوس معهما وقال له: «الحبيب بورقيبة أخي وصديقي. وهو مجاهد عربي قديم. عاش في السجون وفي المنافي. وقاسى المتاعب والحرمان. وأنا من بضع سنوات كنت مثله، مشرَّداً عن وطني وعن أهلي. فأطلب اليك أن تهتم به وأن تقدم له كل عون وكل مساعدة يطلبها، وأن تعتبره مثلي، وكأنك تساعدني أنا».

وأجابه صاحبنا: يسعدني جداً، حضرة الرئيس، أن أكون بتصرف المجاهد السيد الحبيب بورقيبة، وأن أقدم له أي عون يريده.

وفعلاً، منذ ذلك الحين نشأت صداقة بين الحبيب بورقيبة وصاحبنا. وكان بورقيبة يزوره في المفوضية ويخرجان معاً الى المطاعم والمجالس، يركبان السيارة «رينو» السوداء التي كان الحبيب بورقيبة يقودها.

وفي العام ١٩٦٥ زار الرئيس الحبيب بورقيبة لبنان خلال جولته العربية، وكان صاحبنا من جملة مستقبليه على المطار، وتعرف الرئيس عليه سريعاً، ووجه اليه تحية طيبة كريمة.

علال الفاسي

وكان هنالك أيضاً، في مكتب المغرب العربي، علال الفاسي، رئيس حزب الاستقلال، وزعيم الحركة الاستقلالية في المغرب.

والفاسي أيضاً مجاهد عربي قديم لعب دوراً كبيراً في حركة الاستقلال المغربية. وكان من أكبر مؤيدي الملك محمد الخامس.

وقد اعتقل الفاسي وشُرد، وعاش سنيناً خارج المغرب، ولكن حركته الاستقلالية نمت وتطورت وقادت معارك الاستقلال في المغرب.

وكان علال الفاسي بالاضافة الى جهاده، وزعامته الاستقلالية، عالماً ومتصوفاً اسلامياً كبيراً، وله آثار قيمة في التصوف الاسلامي.

وكان بجانب علال الفاسي المجاهد عبد الخالق الطريس زعيم حزب الشورى والاستقلال في المنطقة الخليفية (الشمالية) من المغرب. وكان الطريس رجلاً مثقفاً ومجاهداً صادقاً عمل في سبيل حرية بلاده وإعادة توحيدها.

والطريس ينتمي الى عائلة أندلسية — مغربية مرموقة، بقي منها نفر في اسبانيا بعد خروج العرب منها وتنصروا وعاشوا فيها ولا يزالون. وهم على صلة بأقربائهم في المغرب.

هذه ذكريات عزيزة عن العمل المغربي العربي في تلك الأيام.

ونتطلع اليوم، وقد نالت أقطار المغرب العربي الثلاثة استقلالها الكامل، واحتلت أمكنتها المرموقة على الصعيدين العربي والدولي، ونحمد الله على النهاية الايجابية لذلك الجهاد المثمر الذي خاضه اخواننا المغاربة لسنوات عديدة حتى ظفروا بأمانيهم القومية.

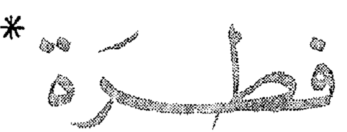
والعقبى لفلسطين، وللفلسطينيين!

دعاية للوطن *

كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة في أيام بني أمية، فقال له رجل من اهلها — وكان عاقلاً ظريفاً: اتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والاسلام! قال: وبماذا تمدح؟ قال: بصحة هوائها، وطيب مائها، ونزهة ظاهرها، تصلح للخف والظلف، سهل وجبل، وبادية وبستان، وبر وبحر، محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومثواهم، وقد قدمتها — أصلحك الله — مخفاً(١) فرجعت مثقلاً، ووردتها مقلاً فأصارتك مكثراً، قال: فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل؟ قال: بأن تصير إلي، ثم ادع ما شئت من لذات العيش، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه!

قال: فاصنع لنا صنيعاً(٢)، واخرج من قولك. قال: افعل، فصنع لهم طعاماً، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صيد من وحشها: من ظباء ونعام وارانب وحبارى(٣) وسقاهم ماءها في قلالها، وأجلسهم على رقمها(٤)، ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولديها ومولداتها، من خدم ووصائف ووصفاء كأنهم اللؤلؤ، لغتهم لغة أهلها، ثم غناهم حنين وأصحابه في شعر عدى بن زيد شاعرهم وأعشى همدان لم يتجاوزهما، وحياهم برياحيها، ونقلهم على شرابها — وقد شربوا — بفواكهها. ثم قال له: هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشت وشممت وسمعت بغير ما في الحيرة؟ قال: لا والله، ولقد أحسنت صفة بلدك، ونصرته فأحسنت نصرته والخروج مما تضمنته، فبارك الله لكم في بلدكم.

* الأغاني: ٢ — ٣٥١.
(١) يقال أخف الرجل: إذا خفت حاله ورقت.
(٢) الصنيع هنا: الطعام.
(٣) طائر طويل العنق رمادي اللون.
(٤) الرقم: الوشى المخطط.

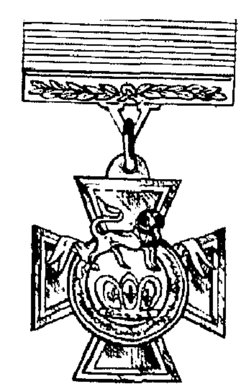


اجتمع المهاجرون والأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبوبكر: وعيشك يا رسول الله ما سجدت لصنم قط، فغضب عمر بن الخطاب، وقال: تقول: وعيشك يا رسول الله ما سجدت لصنم قط، وقد كنت في الجاهلية كذا وكذا سنة؟ فقال أبوبكر: ذلك أني لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة(١) بيدي، فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشم العوالي، فاسجد لها، وخلاني وذهب.

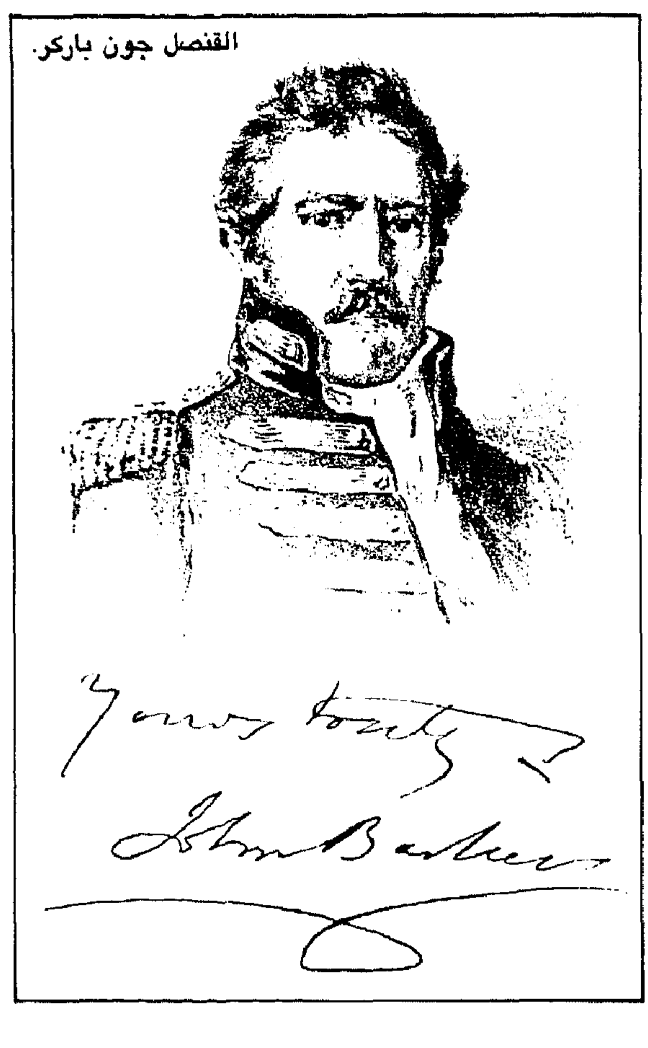
فدنوت من الصنم، وقلت له: إني جائع فأطعمني، فلم يجبني. فقلت: إني عطشان فاسقني، فلم يجبني. فقلت له: إني عار فاكسني. فلم يجبني. فأخذت صخرة، وقلت: إني ملق هذه الصخرة عليك، فإن كنت إلهاً فامنع نفسك، فلم يجبني. فألقيت عليه الصخرة، فخر لوجهه، فاقبل والدي، وقال: ما هذا يا بني؟ فقلت: هو الذي ترى!

فانطلق بي إلى أمي؛ فاخبرها؛ فقالت: دعه فهذا الذي ناجاني به الله! فقلت: يا أماه، ما الذي ناجاك به الله؟ فقالت: ليلة جاءني المخاض لم يكن عندي أحد؛ فسمعت هاتفاً يهتف، فاسمع الصوت ولا أرى الشخص؛ وهو يقول: يا أمة الله، أبشري بالولد العتيق، اسمه في السماء صديق.

* أنباء نجباء الأبناء: ٤٣.
(١) أبوه.



من مذكرات الدبلوماسيين :


القنصل جون باركر.

سفير بريطاني يقابل السلطان العثماني

نجدة فتحي صفوة



كان «جون باركر» شابا انكليزيا يعمل في أحد البنوك البريطانية في القسطنطينية في أواخر القرن الثامن عشر، فاعجب بذكائه ونشاطه السفير البريطاني في العاصمة العثمانية «سبنسر سمث» وعينه سكرتيراً له. وبعد سنوات من العمل في السفارة نقل «باركر» قنصلاً لبريطانية في حلب في أوائل القرن التاسع عشر، ثم قنصلا عاما لبلاده في الاسكندرية أيام محمد علي باشا.

وقد أقام باركر في تركية ومصر أكثر من خمسين عاما، وكتب مذكراته في جزئين ضخمين بعنوان «سورية ومصر تحت حكم السلاطين الخمسة الأخيرين»[1] وحررهما ونشرهما ابنه «ادوارد باركر» في سنة ١٨٧٦، وهما يحتويان على معلومات تاريخية مهمة وطريفة عن الحياة في عاصمة الدولة العثمانية وحواضرها في تلك الفترة.

ومن الذكريات التي رواها باركر في كتابه وصف مقابلة للمستر سمث، السفير البريطاني، مع السلطان العثماني «سليم الثالث». وكان سلاطين آل عثمان في ذلك العهد لايظهرون لسفراء الدول الأجنبية اهتماماً كبيرا، مغترين بعظمة امبراطوريتهم المترامية، ولم يكونوا يقابلونهم الاّ نادرا وبعد الاستعطاف الكثير والمفاوضات الطويلة والانتظار الممل، فاذ قابلوهم اصطنعوا الكبرياء، وتعمدّوا استصغار شأن

● نجدة فتحي صفوة: دبلوماسي سابق، عمل في وزارة الخارجية العراقية حتى عام ١٩٧٦، يهتم الآن بالابحاث والدراسات التاريخية، يتعاون مع مركز الدراسات العربية في لندن. نشر عدداً من المقالات في مجلة «آفاق عربية»، وكتابا بعنوان «العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب» (بيروت ــ ١٩٦٩) وله كتب عدة ودراسات عديدة.

السفير بل اهانته. وربما كان ذلك اظهارا لثقتهم بقوتهم، وتأكيدا لعظمتهم، وارهابا للدولة التي يمثلها السفير.

واتفق أن «تفضل» السلطان سليم الثالث على ذلك السفير بالمقابلة أيام كان «باركر» سكرتيرا له في أواخر القرن الثامن عشر، فاستصحبه السفير مع سائر موظفيه وأتباعه كما كانت تقضي بذلك المراسم في ذلك الوقت. وقد وصف باركر في مذكراته تلك المقابلة وما جرى خلالها بالتفصيل قائلاً:

«استدعينا في الساعة السادسة صباحا، ووضعنا في قارب اتجه بنا الى «السراي»، ونزلنا في أحد المراسي التابعة لدواوين الباب العالي. وهنا اضطررنا الى ارتقاء سلّم ضيق متداع يهتزّ تحت الأقدام، حتى وصلنا «كشكا» أو غرفة خشبية معلقة، مفروشة ــ شأن جميع الغرف التركية ــ بالأرائك الواطئة المنتشرة على فرش ضيقة في الأرض والمحيطة بالغرفة كلها تقريباً، وخلفها وسائد مسندة الى القسم السفلي المبطن بالخشب من الجدران. وكانت الستائر من أحطّ الأنواع ومن أرخص المنسوجات القطنية، وكانت قذرة جداً، رثة، وممزقة في مواضع عديدة. وفي هذا المكان أجبرنا على الانتظار أربع ساعات ونصف الساعة. وكنا محاطين برجال من شتى الأزياء، وكلهم مسلحون كما هي عادة الأتراك جميعا، وكانوا يدخنون ويتكلمون ويتضاحكون فيما بينهم، دون أن يظهروا أدنى اهتمام بنا. وأخيرا، ولما عيل صبر السفير تماما، تطوّع أحد الحرّاس وذهب ليرى هل نستطيع أن نتقدم، وبعد مرور ما يقارب نصف ساعة عاد يبشرنا بأن أوان التحرك قد آن. فحدثت ضجة وجلبة، وكان المقصود استعجالنا لئلا نجعل أحدا ينتظرنا، واقتادونا الى السلم الضيّق المهتزّ الخالي من السياج مجازفين بكسر رقابنا، وبعد أن مررنا بساحة القصر الشاسعة اقتادونا الى بوابة ضخمة تؤدي الى خارج الفسحة الكبيرة، وامتطينا خيولا ذات سروج تركية مكسوة بأغطية مزركشة يقود كلاّ منها مرافقان يرتديان ملابس أنيقة جدا، فألفنا موكبا، على الرغم من أن المسافة التي سنقطعها راكبين لم تكن أكثر من مائة ذراع ولم يكن علينا الاّ أن نذهب من باب



السلطان سليم الثالث.

حتى نبلغ غيره. وبعد أن تقدم هذا الموكب حوالي ثلاثين أو أربعين ذراعاً صدرت الأوامر بأن نتوقف، فلم نفهم السبب في احتجازنا، ولكن بعد مرور ربع ساعة، ولعلها كانت عشر دقائق، رأينا موكب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) مقبلا من جهة أخرى، يصحبه حوالي خمسين أو ستين من الخدم والحشم، وكلهم على صهوات الجياد، فدخلوا من بوابة القصر الكبيرة، وسمح لنا بعد ذلك أن نتبعهم.

«ولما ترجلنا، اقتادونا الى شقة ذات مظهر عادي، ولكنها واسعة. وكانت منفصلة عن الأبنية الأخرى، ومفروشة بشكل يشابه جميع الغرف في قصور تركية أو مكاتبها الرسمية، حيث ينهمك الموظفون بالكتابة، وحيث الأرائك تحيط بجوانب الغرفة جميعاً، ربما باستثناء المدخل. وهنا، وبعد دخولنا مباشرة، جاء عدد من الخدم يحملون «صواني» معدنية كبيرة، عليها أطباق المأكولات المتنوعة ــ كانت في الواقع عشاء تركيا اعتياديا. وبعد أن تناولنا ما فيها بأصابعنا، وغسلنا أيدينا، استدعينا الى قاعة الاستقبال.

«خرجنا من هذه الشقة الى المبنى الرئيسي، مخترقين دهليزا فيه نوافذ تطل على باحة القصر،

SYRIA AND EGYPT UNDER THE LAST FIVE SULTANS OF TURKEY:

BEING

EXPERIENCES, DURING FIFTY YEARS, OF MR. CONSUL-GENERAL BARKER.

CHIEFLY FROM HIS LETTERS AND JOURNALS,

EDITED BY HIS SON,

EDWARD B. B. BARKER,

HER MAJESTY'S CONSUL.

IN TWO VOLUMES.

VOL. I.



London:

SAMUEL TINSLEY,

10, SOUTHAMPTON STREET, STRAND.

1876.

غلاف كتاب جون باركر.

حتى وصلنا في جلبة، وحثّ على الاسراع في السير، الى باب صغير لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام، ويؤدي الى قاعة الاستقبال الكبرى. وألقي على كتف كل منا معطف من الفرو، على الرغم من أننا كنا في منتصف الصيف، ولم تكن فروة السفير مختلفة عن فراء الآخرين، وأمسك بكل واحد منا رجلان طويلا القامة من الحرس وسحبونا الى الحضرة العلية مجبرين ايانا على الانحناء لأجل المرور من الباب الواطيء، أو المنفذ، الذي سبق ذكره. وجرّدونا من سيوفنا وسحبونا كما يسحب المجرمون، حتى وقفنا على بعد عشرين ذراعا من العرش الذي كان السلطان سليم جالسا عليه، واضعا كلتا يديه على فخذيه. وكان الصدر الاعظم واقفا الى جانبه، على مسافة غير بعيدة منه، وفي مكان متوسط بيننا وبين العرش. ولم يحرّك عظمته عضلة ولا عضوا، ولكنه رفع حاجبيه، وحرّك أجفانه ببطء شديد مسفراً عن عينين ساهمتين ونصف مغلقتين، وحوّل رأسه قليلا ملتفتا الى «الصدر الأعظم»، مستفسرا: «من هذا الكافر»؟ فقيل له انه عبد أرسله ملك انكلترة لالتماس رضاه (وفي الوقت نفسه أخرج الصدر الأعظم من صدره كتابا طويلا مغلفا بالحرير، وكان قد أعده مسبقا، فحمله في يده، وقال أنها رسالة أمر هذا العبد برفعها الى أعتاب العرش) وانتبه السلطان بعد لحظات من التأمل، كان السلطان خلالها يبدو شديد النعاس، استدار نحو الصدر الأعظم مرة أخرى، وسأله ببطء شديد: «هل أطعموا هذا الكلب، وكسوه»؟ ولما أجيب بالايجاب، قال: «حسنا».

«ولم يكد ينطق بذلك حتى سارع الخدم الذين كانوا ممسكين بأذرعنا بشدّة بسحبنا الى خارج الغرفة، ونحن نمشي متراجعين، وجعلونا نحني رؤوسنا بأن ضغطوا بأيديهم على مؤخرة رؤوسنا، وعلى أثر خروجنا من الحضرة العلية، نزعت عنا الفراء، وأعيدت الينا سيوفنا. واقتادونا مرّة أخرى بالمراسم نفسها الى «الكشك» الخشبي المهتز، ولكننا لم نجتز السلالم، فقد وجدنا القوارب بانتظارنا في أسفل الكشك لتقلنا الى منازلنا.

«وينبغي ألاّ يفوتني أن أذكر أننا حينما كنا واقفين في حضرة السلطان كان هنالك زنجيان ضخما الجثة من أطول الرجال قامة وأقبحهم منظرا، وقد وقف كل منهما على أحد جانبي العرش، وكانا طيلة الوقت يكشران مرّة ويعبسان أخرى، ويحركان وجهيهما بحركات مضحكة يريدان بها التهكم علينا، ويقولان بصوت يكاد يكون مسموعا: «كش... كش...» ومعنى ذلك «اطردوهم... اطردوهم...».

ولا يمكن على وجه التحديد التثبت من صحة هذا الوصف، ولا مدى ما فيه من دقّة أو مبالغة، على أنه وصف يدعو الى التأمل، خاصة اذا رجعنا الى سيرة السلطان سليم وعهده.

كان سليم الثالث السلطان الثامن والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية، ولد سنة ١٧٦١ وولِيَ السلطنة في سنة ١٧٨٨ خَلَفا لعمّه السلطان عبد الحميد الأول وهو في السابعة والعشرين من العمر. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت قد آلت الى حالة من التدهور والبلبلة، فحاول سليم الثالث اخراجها منها، ولكن شخصيته لم تتوافر لها الارادة اللازمة، والظروف المحيطة بالدولة كانت أقوى من أن يستطيع مثله التغلب عليها. فمن جهة، كانت روسيا قد استولت على القرم، وجيوش النمسا كانت تحتل بلغراد. ومن جهة أخرى كانت فرنسة قد احتلت مصر، بل هاجمت دمشق أيضاً، والوهابيون استولوا على الكعبة، ومنعوا الحجاج من الوصول اليها، كما أن والي «يانية» ـــ «تبه دلنلي علي باشا» ـــ قام بحركة للانفصال عن الدولة العثمانية، ومحافظ بلغراد كان يحاول تأسيس دولة مستقلة عنها، وكانت بلاد الصرب في ثورة عارمة.

وازاء هذه المشاكل الداخلية والخارجية التي أحاقت بالدولة العثمانية، لم يقدّر سليم الثالث أهمية التفاهم مع روسيا والنمسا حالا، بل واصل الحرب. فلما انحدرت جيوشه أخيرا، اضطرّ الى عقد عدد من اتفاقات الصلح الضارة بمصلحة الدولة.

على أن سليما الثالث، كرجل دولة، لم يخل من بعض المزايا، ولعل أهم مزاياه كان ادراكه، الى حدّ ما، تغيرات العصر، وخاصة تقديره لضرورة اجراء بعض الاصلاحات العسكرية. وكان أهم ما حاول القيام به هو الغاء تنظيمات

«الانكشارية» الذين كانوا قد تجاوزوا حدودهم وصلاحياتهم، ولم يعد لهم من دور سوى الاضرار بالدولة، وتأسيس تشكيلات عسكرية جديدة، أو جيش نظاميّ، عرف باسم «نظام جديد». كما أنه أنشأ كثيراً من التكنات العسكرية منها ثكنة «السليمية» القائمة حتى الوقت الحاضر، وقدّر أهمية العلوم الحديثة في شؤون الحرب والستراتيجية، فأسس «المهندسخانة»، واستقدم عدداً كبيراً من المهندسين من فرنسة.

ولكن سليم الثالث كان ضعيف الشخصية، لين العريكة، متساهلا، وفي الوقت الذي كان فيه بامكانه القضاء على «الانكشارية» بحركة آنيّة وخاطفة، فانه فضّل تحقيق ذلك بصورة تدريجية ومسالمة، حتى قام أخيرا عصيان «قاباجي الذي انتهى بخلع سليم الثالث وتنصيب مصطفى الرابع بمكانه في سنة ١٨٠٧. وقد حاول «علمدار مصطفى باشا» القيام بحركة عسكرية لاعادته الى العرش، واحياء «النظام الجديد»، وتنفيذ اصلاحات سليم الثالث الأخرى، فدخل استانبول على رأس قوة كبيرة، ولكنه حينما وصل الى قصر «طوب قابو» وجد أمامه جثّة سليم الثالث ممزقة، اذ أن حركة مصطفى باشا كانت قد بلغت مسامع مصطفى الرابع، فأمر بقتل سليم الثالث حفاظاً على عرشه وربما حياته أيضا.

وكان سليم الثالث بالقياس الى غيره من سلاطين آل عثمان، وبالنسبة لزمانه، يعدّ من السلاطين المثقفين والمستنيرين. وكان ينظم الشعر ويهوى الموسيقى. وتعدّ قدرته الموسيقية بصورة خاصة، والألحان التي وضعها، بين أرقى آثار الموسيقى التركية الكلاسيكية. وله أيضاً قصائد كثيرة لها مكانتها في الأدب التركي، وله ديوان غير مطبوع.

ان مقارنة هذه الصفات التي عرفت عن السلطان سليم الثالث، بما جاء في وصف سكرتير السفير البريطاني وطريقة مقابلته للسفير تدعو الى كثير من الشك والحيرة. وعلى الرغم من أن التقاليد المتبعة والمألوفة في عهد من العهود تتحكم كثيرا في المقابلات الدبلوماسية، الّا أن الجانب الانساني لايختفي أثره تماما في تصرفات سلطان كان يعدّ متحررا بالقياس الى عصره، بل سابقا لزمانه، ذلك السبق الذي كلفه عرشه، ثم حياته. ●

المراجع

(١) Consul-General John Barker, *Syria and Egypt Under the Last five Sultans of Turkey*, Edited by his son Edward B.B. Barker, London, 1876.

ذنب لايطمع صاحبه في غفرانه(*)

قال يوسف الكوفي ــ وكان قد روى الاشعار والاحاديث:

حججت ذات سنة، فاذا أنا برجل عند البيت، وهو يقول: اللهم اغفر لي وما أراك تفعل! فقلت: يا هذا؛ ما أعجب يأسك من عفو الله! قال: إن لي ذنباً عظيماً! فقلت: أخبرني.

قال: كنت مع يحيى بن محمد بالموصل، فأمرنا يوم جمعة؛ فاعرضنا المسجد؛ فقتلنا ثلاثين ألفاً، ثم نادى مناديه: من علق سوطه على دار فالدار وما فيها له، فعلقت سوطي على دار ودخلتها، فاذا فيها رجل وامرأة وابنان لهما، فقدمت الرجل فقتلته، ثم قلت للمرأة: هاتي ما عندك! وإلا ألحقت ابنيك به؛ فجاءتني بسبعة دنانير: فقلت: هاتي ما عندك؟ فقالت: ما عندي غيرها، فقدمت أحد ابنيها فقتلته. ثم قلت: هاتي ما عندك والا ألحقت الآخر به، فلما رأت الجد منى قالت: ارفق! فان عندي شيئاً كان أودعنيه أبوهما، فجاءتني بدرع مذهبة لم أر مثلها في حسنها؛ فجعلت أقلبها فاذا عليها مكتوب بالذهب:

إذا جار الامير وحاجباه ... وقاضي الارض أسرف في القضاء
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضي الارض من قاضي السماء

فسقط السيف من يدي وارتعدت، وخرجت من وجهي الى حيث ترى.

(*) امالي الزجاجي: ٣٥.



سهل النبطية من قلعة «بوفور»

البعثة العسكرية الأميركيّة لاستكشاف لبنان وأنهاره

د. ابراهيم فريد الدّر

كثيرون هم الذين زاروا لبنان قديماً. منهم من جاء مأخوذاً بسحر الشرق، مثل لامارتين والليدي ستانهوب. ومنهم من جاء في مهمات علمية أو تجارية أو عسكرية.

من الذين استكشفوا لبنان الملازم وليم لينش عام ١٨٤٨. انتدبته وزارة البحرية الاميركية على رأس بعثة لاستكشاف نهر الاردن والبحر الميت. بعد أن أنهى رحلته الاستطلاعية، توجه شمالاً إلى لبنان.



الملازم وليم لينش أول من ركب نهر الاردن وخرج منه سالما مع أفراد بعثته. ولقد أوصى لينش طبيب البعثة وبحاثتها الدكتور اندرسون الايبوح بأهداف الرحلة ولا بما يجمعونه من معلومات، ويقول له (... لكنني سأخبرك ببعض هذه الأهداف لتستفيد البعثة من خبرتك وعلمك... ولا ينبغي أن تتوقف عند هذه الأبحاث، بل قمْ بما تراه ضروريا لنجاح المهمة...).

من الأهداف المعلنة

١ ــ دراسة التركيب الجيولوجي والصفات الطبيعية لشواطىء البحر الميت وضفاف نهر الاردن، وجبال لبنان إذا تيسر الوقت.

٢ ــ الحصول على نماذج معدنية وغيرها ولمعرفة الطبيعة البركانية للمنطقة.

٣ ــ دراسة النباتات والأتربة... ولماذا يكبر حب العنب في هذه البلاد.

٤ ــ يقال إن جبال الضفة الغربية غنية بالحجر الفحمي القابل للاشتعال.

ــ يقول في التقرير عن البحر الميت: سبرنا البحر بدقه، وخططنا شواطئه، وسجلنا الحرارة، وقسنا العرض والعمق وسرعة الروافد... جمعنا نماذج من كل شيء... راقبنا الرياح، والتيارات، والتقلبات الجوية، وسجلنا أخبار الرحلة بكل تفاصيلها مما يعطي الفكرة الصحيحة عن هذا البحر العجيب... وطبقنا النهج نفسه على كل المناطق في فلسطين وسوريا ولبنان...

وساوجز في هذا البحث تجوال البعثة في الأراضي اللبنانية وما جمعته من معلومات.

بدء الرحلة

في أواخر عام ١٨٤٧ أبحرت سفينة أميركية من نيويورك تحمل مؤونة للسفارات الاميركية في البلاد العربية. لكن الأهم أنها نقلت بعثة عسكرية من البحرية الاميركية هدفها استكشاف البحر الميت ونهر الاردن ومنابعه. ولقد بدأت وزارة البحرية تدرس هذه المهمة منْ حزيران ١٨٤٧ الى ان وافقت عليها بعد أشهر قليلة.

رأس هذه البعثة الملازم وليم لينش، عسكري صارم وخبير استخدمته بلاده في استكشافات كثيرة. تطوع للبعثة عشرة جنود أقسموا ألا يتناولوا المسكرات، كما التحق بالرحلة خبراء قديرون. أهداف البعثة دراسات جيولوجية وكيماوية، ومسح جغرافية المنطقة مع تحديد درجات الحرارة والرطوبة، ومجرى النهر، والنباتات والحيوانات الموجودة، وخطوط العرض والطول لمواقع الاماكن الواقعة والمحيطة بالغور، مع التأكيد على مناطق «يقال انها غنية بحجر شديد الاشتعال».

يركب نهر الاردن

بعد وصوله اسطمبول (الأستانة) وحصوله على فرمان ٢٦ شباط ١٨٤٨، ويقابل السلطان، ثم يغادر لينش الى بيروت وعكا، التي هي نقطة البدء لرحلته.

خلال هذه المدة جهزت رسله في عكا خيلا وجمالا وبغالا للرحلة البرية. وتسعده الأحوال فيحظى بحماية زعماء القبائل العربية بعد ان امتنعت السلطات العثمانية من تقديم أي عون له. وفي ٤ نيسان يتوجه شرقا مغادراً عكا الى طبريا. بعد أسبوع ينزل بقاربين في البحرة الشهيرة. ثم يقسم البعثة قسمين، الأول يركب النهر نزولاً الى البحر الميت، والثاني يرافقه على الشاطىء. انهى الملازم رحلته النهرية في ١٨ نيسان فكان لينش أول رحالة ركب الاردن ووصل بحر الميت سالما مع رفاقه.

بقي في منطقة البحر الميت مستكشفا حتى أواسط أيار، زار خلالها الكرك الى الشرق، والسبخة (مستنقعات البحر الميت في أقصى الجنوب)، وعين جدي بمحاذاة الخليل غربا. بعد ذلك توجه الى القدس ومن ثم الى يافا مروراً بالرملة، فأنهى القسم الأول من بعثته بعودته إلى عكا في الثامن من حزيران ١٨٤٨، أي بعد شهرين من مغادرتها. ولقد حمل معه معلومات ثمينة بالاضافة الى نماذج من الحجار المعدنية والنفطية، ونباتات الحقها كلها بتقرير ضخم قدمه الى سكرتارية البحرية.

لم يكن يعلم الملازم لينش أنه سينهي استكشافه، خلال شهرين، فقرر أن يشتغل بقية

الوقت لاستكشاف منابع الأردن، ذلك أن هذا الأمر كان مجهولا، وتضاربت الآراء حوله. في عكا جهز رحلة ثانية غطت منابع الاردن والجليل الأعلى ولبنان باستثناء الهرمل والشمال، كما استكشف جبل الشيخ وقطعه حتى جاء دمشق ودخل لبنان من بقاعه، كما دخله من جنوبه.

يمر بالناصرة

في صباح السبت، العاشر من حزيران ١٨٤٨ انطلقت البعثة متوجهة شرقا الى صفورية حيث زار آثارها الرومانية وحيث تجمعت فلول الصليبيين قبل سحقهم في حطين. أكمل مسيرته نحو الناصرة فأشرف عليها الساعة الرابعة بعد الظهر من النهار نفسه.

كان عدد سكان الناصرة آنذاك ٥٠٠٠ نسمة. أعجب الملازم بموقع الناصرة فقال (... عزلتها وراء واد ضيق وجبال محيطة بها جعلتنا نحبها أكثر مما أحببنا بيت لحم... ظنناها أجمل موقع في فلسطين... شوارعها هادئة، والسكينة تحضن بيوتها...). ثم توجه في ١٢ حزيران الى جبل الطور شرقا، فيرى شجر البلوط في الوديان (... لكن الأراضي غير مزروعة...). باقترابه من جبل الطور يكون قد اخترق مدخل مرج ابن عامر، ثم تسلق الجبل المشجر حتى اعتلى القمة (٥٦٢متراً فوق سطح البحر).

قريبا من قمة جبل الطور وجد لينش بقايا قبور وسراديب رومانية، والخراب منتشر «... لكن السكان يفلحون الأرض بنشاط... ومن ذرى الجبل شاهدنا مرج ابن عامر من جبل الكرمل غربا الى جبل جلبوع (فقوعة) قرب جنين جنوبا... الناصرة غربا شمالاً... وطبريا شرقا شمالا، وصفد وقمة جبل الشيخ المعممة بالثلوج... جداول نهر الاردن تلتقي عند بيسان...» ثم توجه لينش بعد تعرجات الى الشرق، ويسترعي انتباهه نبات «الأرضي شوكي» البري، أو الخب، حاملا زهره الكبير والمدور بلون بنفسجي واريج له عطر الزعتر. يتابع جولته بين عمران وخراب حتى يلتقي مع المساء عند جسر سمخ المهدم. وفي الثلاثاء ١٣ حزيران يأخذ طريق الضفة الغربية لبحيرة طبريا، ويستحم أفراد البعثة في حمامات ساخنة (درجة حرارة ٦٢ مئوية) ذات مياه مالحة وكبريتية.

بحيرة طبريا

قام لينش باستكشافات الضفتين، الغربية والشرقية، لبحيرة طبريا المنخفضة ٢١٠ أمتار تحت سطح البحر، ثم استراح عند المجدل. من شمالي البحيرة أكمل رحلته الى الحولة (١٧ كيلومتر على خط مستقيم من طبريا)، وكانت صفد وجبلها الجرمق (علو ١٢٠٨ أمتار) الى شماله. أما جبل الشيخ فكان أمامه. مر بعين التين والطابغة وتل الحوم (خرائب تقع ١٥ كيلومتر شمال شرق طبريا) حيث يوجد حصن صليبي قديم. تعرف المنطقة باسمها القديم كفرناحوم.

يسجل لينش اعجابه بجمال المنطقة وهدوء (لا يعكره الا تصويت ابن آوى). في ١٤ حزيران يكمل تسلقه الهضاب والتلال وصولا الى جسر بنات يعقوب (قبل الحولة بقليل) حيث يهدر الاردن بشدة، ويكون عرضه أربعين مترا وحوضه يفيض بمائه. استراحت البعثة عند عين الملاحة (شمال غربي الحولة). ومما يذكر أن بحيرة الحولة التي تعلو سطح البحر ٧٥ متراًقد اختفت الان بعد ان جففها العدو.

غداة الخامس عشر من حزيران توجه لينش شمالا شرقا الى تلال مشرفة على أرض الحولة وتل القاضي وبانياس، وأطل على سهول مزروعة بالأرز والذرة وقليل من القمح، وفي السهول شاهد روافد بانياس. بعد مسيرة ساعتين يقطع قنطرة رومانية ذات دعائم ثلاث تغطي «نهر الحاصباني الهادر ذي الزبد» ويقول الملازم (ان نهر الحاصباني هو حقا نهر الاردن!»

تل القاضي

بعد ساعة يصل تل القاضي (دان) الذي يعلو السهل ٢٦ متراً والبحر ٥٥٠ متراً، وعند تل القاضي يلتقي اللدان وبانياس والحاصباني. يصف لينش تل القاضي بأنه غني بالبلوط والنوافير القوية والجداول المعربدة، فيظن أنه منبع الاردن وأعلى القمم التي تغذي النهر. لكنه



جسر على نهر قاديشا الذي ينبع من شمال لبنان.

يدرك بعدئذ ان منابـع الاردن أبعد من تـل القاضي.

بعد ذلك توجه لينش الى نبع بانياس (٩١٤ متراً فوق البحر) الواقع عند قاعدة جبل الشيخ على بعد ٥ كيلومتر شرقي شمال تل القاضي.

الى حاصبيا

انحدر لينش شمالا غربا في طريق متعرج نحو وادي التيم (مجرى الحاصباني) ودخـل حاصبيا (٧٠٠ متر فوق البحر) في ١٦ حزيران. وكانت تعرف حاصبيا قديما باسم (مدينة بعل). واستقبلته وفود رسمية وشعبية في حاصبيا التي يقـدر سكانهـا بتسعة آلاف نسمـة شيـوخـا وأطفالا، استنادا الى أن ١٥٠٠ شخص (السن ٢١ ــ ٤٠) يـدفعون الضـرائب. يعدد الملل الموجودة في حاصبيا ويعجبه جو التسامح المخيم على المدينة.

في حاصبيا يزور البعثة الأمير علي شهـاب الذي رافقت عائلته صـلاح الدين الأيوبي في فتوحاته المعروفة. يصطحب الأمير علي أفـراد البعثة الى المنبع الحق لنهر (الاردن، فيهبطون الوادي متوجهين شمـالا خلال كـروم الزيتون والتين والتوت. ثم يقطعون النهر المجلل بالحور والصفصاف، وبعد أن يسيروا شرقا لمدة عشر دقائق يفاجأون بصخرة ضخمة عمودية رابضة على منحدر ١٣ متر عند أقدام جبل الشيخ. من تحت هذه الصخرة ينفجر ماء فرات بارد شفاف منقسم الى فرعين شمالاً شرقاً وشمالاً غرباً. الفرع الأول هو ارتداد الماء الى الوراء وكأنه نهر جديد، لكنه تجمع احاطته ورود البر والزهر الرائع من أوليائدر أبيض وزهر (الدَّفل). وهكذا ينبع الحاصباني على علو ٥١٠ متر فوق البحر وعلى بعد كيلومتر جنوب غربي حاصبيا.

أما الفرع الغربي فهو النهر الذي يهبط بعد مئات الأمتار وكأنه يقفز سدا ليستمر في مجراه نحـو فلسـطين. يقـول لينش (... الصخـرة الضخمة كلها جلال، ضفتا النهـر مزخـرفتان بجمال الزهر وأريجه... روعة تليق برأس النبع

لنهر قدّر له أن يستقر في الأرض المقدسة... وما كان لفنان أن يزيد من جمال المنظر جمالا). وفي الحاصباني ينتهي نهر مرجعيون (البريغيت) ويجري ١٩ كيلومتراً الى تل القاضي فيكون أطول أنهار الاردن، أما اللدان فهو أغزرها.

الليطاني والبقاع

في ١٧ حزيران يزور الملازم لينش نهر الليطاني والبقاع الجميل الذي يفصل ما بين الجبال الشرقية وجبال لبنان، مكونة حدود لبنان وسوريا. في البقاع تجمع البعثة نباتات كثيرة منها الرَتم ذو الزهر الأبيض، والذي تصنع منه المكانس، كما يجمعون «فم السمكة» وغيرها. ويفحص حجر الحمر (الأسفلت الممزوج بالصخر الكلسي)، ويشاهد الحفريات التي يستخرج منها هذا الحجر المشتعل يقول لينش ان هذه المادة ترخو على درجة ٢٤ مئوية ثم تشتعل وتنصهر على درجة ١١٠ مئوية فتعطي لهيبا أصفر، ثم يتفتت الحجر شظايا لا تتحول رمادا حتى لو أحرقت في لهيب الغاز والاوكسجين. ويذكر أن أفضل أنواعه تستخرج من عمق تسعين ذراعاً، وأن أربعة قناطير استخرجت من بئر أو حفرة واحدة. ثم يقابل بين حمر حاصبيا وحمر البحر الميت. يقضي يومين يحلل الصخور وينبش الاحفورات (بقايا الكائنات البائدة)، ويعطي وصفا دقيقا للمنطقة، فلا يهمل حتى أزياء الرجال والنساء، ويقول (... ما تستعمله النساء من كحل وصبغة للتبرج يشوه جمالهن كثيراً...).

يتسلق جبل الشيخ

غداة التاسع عشر من حزيران ١٨٤٨ يقرر لينش اختراق جبال الجنوب وفحص جبل الشيخ، والتوجه الى دمشق. غادر حاصبيا الواقعة في السفوح الغربية الجنوبية لجبل الشيخ ويأخذ فيه صعدا بين كروم الزيتون والعنب والتوت (... كلما صعدنا خف الزرع وكثر البلوط ثم الطحالب... والبنفسج. وديان جبل الشيخ لا تحصى وجداوله كثيرة... وقممه مغطاة بالثلج في حزيران...) ومن ذراه يرى البحر الأبيض غربا وحوران شرقا جنوبا ودمشق شمالا شرقا، والجليل الى الجنوب الصخور من الصوان الداكن، فيها عروق بلور السيليكا (كورتز). قاس لينش ارتفاع الجبل فجاء تقديره قريبا من الصحيح (٢٨١٤ متر). يذكر لينش رؤيته آثاراً رومانية وقصر الشبيب من بين قمة جبل الشيخ والقمم المجاورة جنوبا اخترق (مضيق الوسطاني) ثم انحدر مروراً بعين النحاس حتى أدرك السهول الخصبة في ٢٠ حزيران فكانت الورود البرية عند أقدام الجبل، وأمامه سجادة خضراء. تابع سيره المتعرج مروراً بقطنة العامرة، والى جوارها الصالحية على سفح الجبل شمالا (... بين أشجار مثمرة ومزهرة، من جوز وزيتون، وزهر رائع في حدائق غن تلعب فيها الجداول دخلنا وادي بردى... ولا أجرؤ على مزيد من الوصف بعدما جاءت به قريحة لامارتين...).

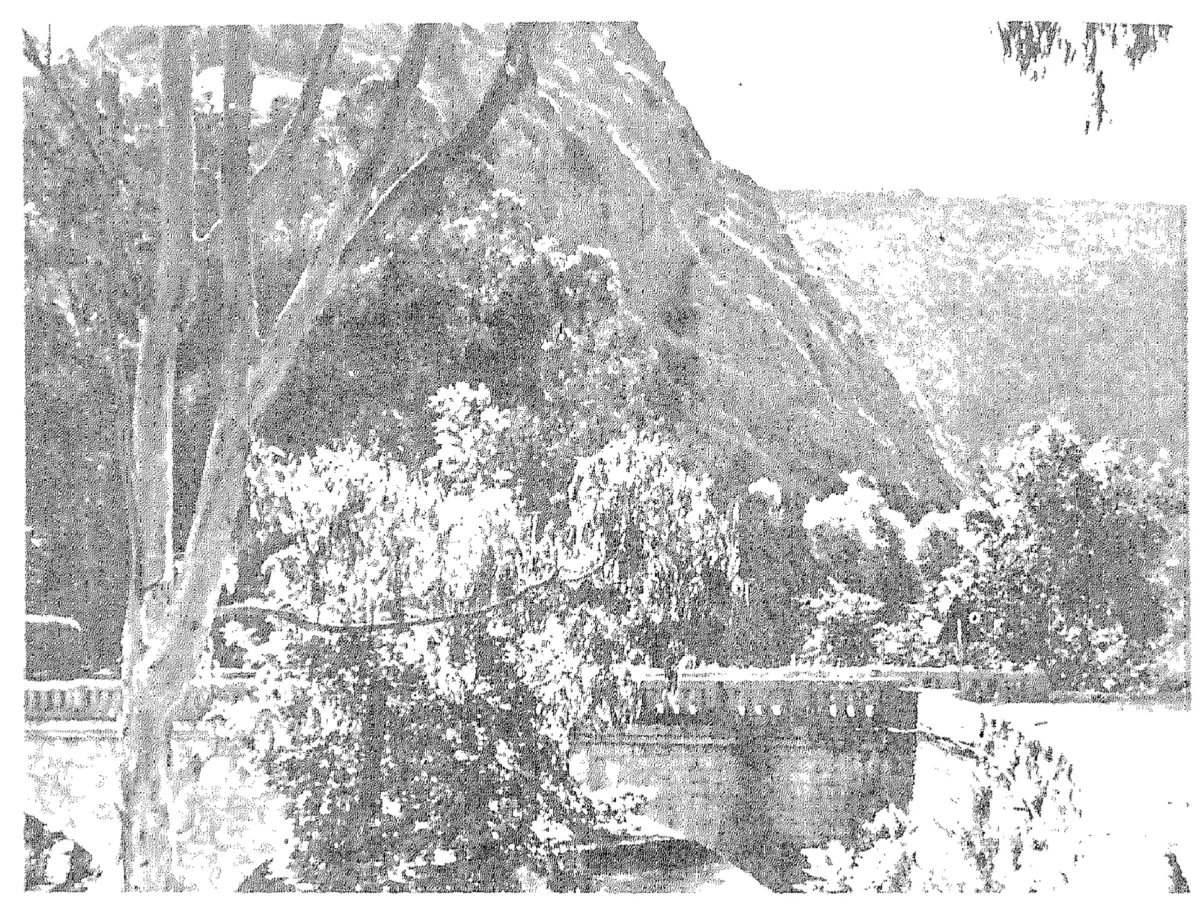
إلى دمشق

من وادي بردى الفاصل بين الجبال الشرقية وجبل الشيخ شاهد الشام الرابضة عند منحدر قاعدة الجبل الشرقي، على الشط المقابل من نهر بردى. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر من ٢٠ حزيران حين وقف على باب القنوات فواجه السهل الذي يمرح فيه بردى. قطع الجسر على بردى فتوجه شرقا لاحقين السور الشمالي، مروراً بالمقابر الى أن قابلهم ممثل القنصل (الأميركي عند باب السلام، ثم قادهم الى مقرهم على احدى حافات بردى).

مكث الملازم في دمشق أربعة أيام زار خلالها الآثار والأسواق المسقوفة ويسجل (... تستورد دمشق خمسين طن من الحرير اللبناني... وهذا نصف ما استوردته من قبل... لأن القطن أضحى منافساً للحرير...). اجتمع بأعيان البلد فيذكر أن الدكتور مشاقة قدر سكان دمشق بمئة وخمس عشرة ألف نسمة. ويصف الملازم دمشق بأنها (مهد الانسانية).

إلى دمر والزبداني

قبل غروب ٢٥ حزيران توجه الى دمر التي بلغها في السابعة مساء فخيم على نهر نردى. ثم قصد الزبداني وخيم خارجها. وفي فجر ٢٧



نهر الكلب.

حزيران يدخل لبنان قاصدا بعلبك التي أدركها عصر النهار نفسه، فزار الهياكل وقضى يوما آخر مخيماً على نهر بعلبك ليرتاح بعد أن أصيب كل أفراد البعثة بالحمى.

زحلة وبيروت:

صباح ٢٩ حزيران مر بزحلة والمعلقة، ويتغنى بجمال البقاع وجلاله، لكن ضعف أفراد البعثة وضيق خلقهم يحرضانه على الاسراع الى بيروت مرورا بضيعة بحمدون، الى أن يصل الى بيروت في ١ تموز ١٨٤٨. بعد أيام تحسنت صحة الجميع إلا مساعده الأول الذي ارتأى الرجوع الى بحمدون ليستفيد من مناخها الصحي. لكن المرض اشتد عليه في ١٧ تموز وتوفي بعد أسبوع بالرغم من العناية الشديدة التي لاقاها من أطباء أميركان وعلى رأسهم فانديك الشهير. نصحه الأطباء بالابحار رأسا ولاسيما أن الكوليرا أخذت تدق أبواب بيروت آنذاك.

من جونية الى الجليل

لم تستطع البعثة مغادرة لبنان بسرعة، ذلك أن سفينة المؤن المفروض أن تنقلهم الى أميركا لم تصل، فقرر الملازم القيام باستقصاء دقيق لمناطق لبنان باستثناء الهرمل والشمال. خلال هذه المدة (شهر تموز) بدأ بتحليل صخور بيروت العكسية، والتي يرجع عهدها الى العصر الجيولوجي المسمى بعصر الطبشور (١٥٠ مليون نسمة)، ثم استكشف البر المعروف برأس بيروت، وحرش الصنوبر (الذي زرعه فخر الدين قبل مئتي سنة)، ثم إلى برج البراجنة (الغنية بالزيتون)، والحدث وبعبدا.

بعد ذلك ذهب إلى جونية وبكركي ونهر الكلب، ثم الى عينتورة. في غزير يشاهد الترتيب المرحلي للصخور المتراكمة من عصر الطباشير، ويدهش لقلة الأحفورات فيها.

كانت جولته الثالثة الى عالية فيستكشف الشوف ويزور بشامون، عين تراز، عيتات

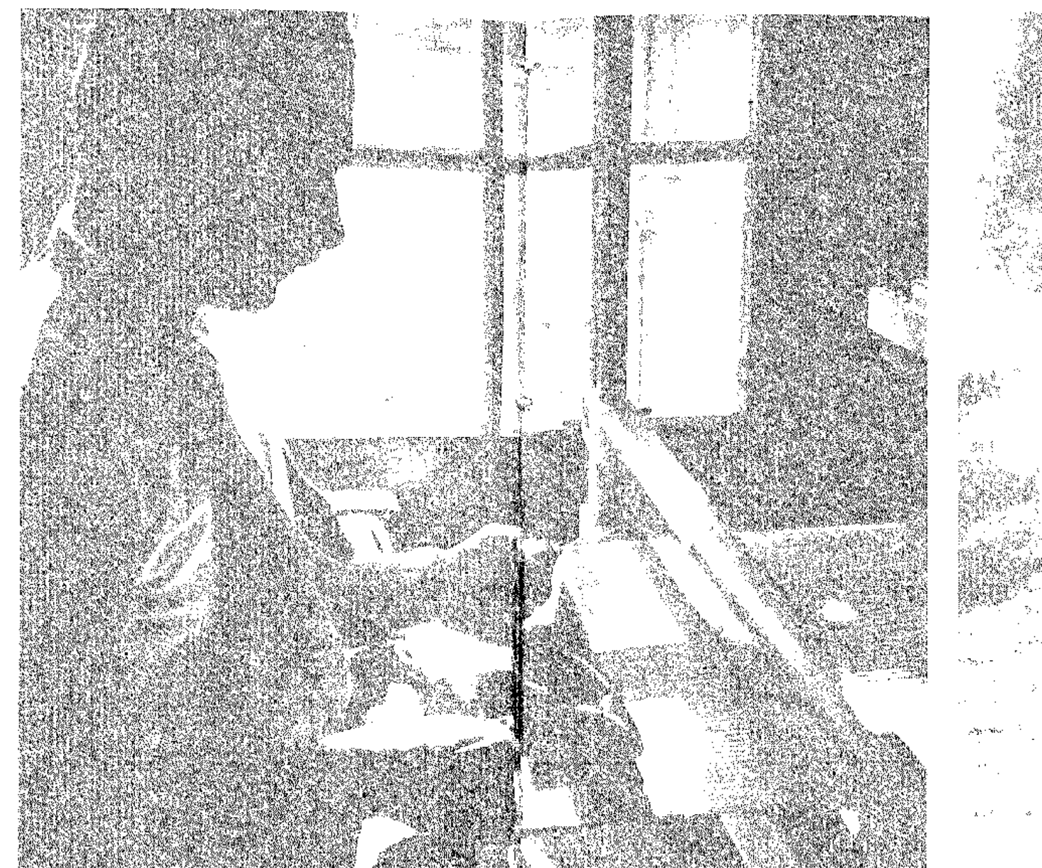
ذري الحنطة عند القرويين في لبنان.

وعيناب وغيرها حتى ينتهي الى جسر القاضي. من هذا الجسر يتوجه الى دير القمر ويقول (... الطريق متعرج، يعلو ويهبط، لكنه يتفتح دائما على مناظر جليلة...) ثم الى المختارة وما حولها (... وروعة المختارة تتبدى بضخامة المواقع وتنوع المناظر...) تابع سيره الى الباروك وعين زحلتا، ثم الى حمانا وقرنايل وما جاورهما. كان يحلل الصخور والنباتات ويسجل درجات الحرارة والرطوبة وكل ما يتعلق بالمنطقة، ويلفت انتباهه ما في قرنايل من فحم طبيعي!

من بيروت يتوجه الى الزهراني (حيث الصخور غنية بالحديد)، ثم الى النبطية ومرجعيون وراشيا، ويزور قلعة الشقيف المحصنة. بعد ذلك يتجه جنوبا شرقا الى الحدود السورية عند وادي المغر فيقطعه الى وادي العسل قرب جوباتا، التي تقع على بعد ١٦ كيلومتر شمال شرقي بانياس. ومن جوباتا التي تعلو البحر ١٥٠٠ متر يرى الطور والناصرة. ثم يزور المطلة وصفد مستقصيا قرى الجليل الأعلى كما استقصى أنهار وجسور وقرى الجنوب يرجع إلى راشيا وجزين ليرى الأحفورات (لكنني وجدتها أقل مما كنت أتوقع).

انتهاء الرحلة

وهكذا يكون لينش قد فلى المناطق تفلية



صناعة الحرير اليدوية.

دقيقة نلخصها بقوله (... بعد دمشق صعدنا لبنان... جامعين ما استطعنا من معلومات موثوق بها... درسنا حتى ما تنتجه جبال لبنان ووديانه، والخصائص الدينية والسياسية والاجتماعية لفئاته جميعاً...) ويشكر الكولونيل هيو روز القنصل العام لبريطانيا في البلاد السورية آنذاك. هذا الكولونيل الذي أغرق لبنان في الدماء والويلات فقال عنه أميل خوري وعادل اسماعيل في الجزء الثالث من «السياسة الدولية في الشرق العربي» ان للكولونيل روز (نفساً لا تميز بين الحرام والحلال... بل تجنح مطمئنة الى الحرام... لمصلحة بلاده... خلت نفسه من كل احترام للقيم الروحية).

وفي بيروت يحصل من القنصل الاميركي على لوائح التصدير والاستيراد فيدون مثلا (... يستقبل مرفأ بيروت سنويا ٢٠ ـ ٣٠ سفينة مثقلة بالبضاعة البريطانية... ولا سيما القطنية منها؛ ومن فرنسا ١٠ ـ ١٢ سفينة تحمل القهوة والسكر ومنتوجات سويسرا الحريرية والقطنية، ومن تريستا ٥ ـ ٦ سفن من البضائع الالمانية). ويسجل الأسعار فنقرأ (ثمن كيلو سكر أبيض ٦ قروش أو ٢٧ سنت اميركي، وكذلك حب القهوة الأخضر الصغير). ويذكر صادرات لبنان (الحرير الخام وثمنة ٤½ دولار للكيلو...).

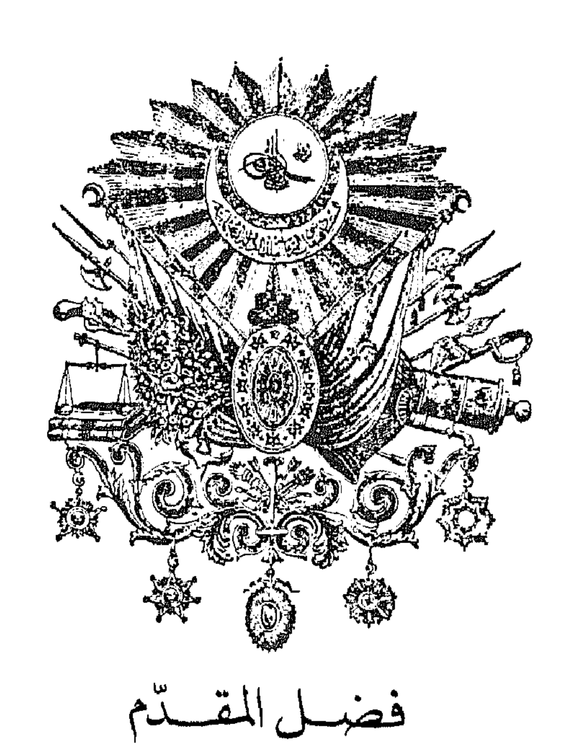
الرجوع إلى أميركا

بعد أن فقد الأمل بعودة سفينة المؤن استأجر لينش سفينة فرنسية وأبحر الى مالطا مساء الثلاثين من تموز ١٨٤٨ مع (... ما جمعناه من نماذج معدنية ونباتية... ولقد أحضرت معي عجلين، ذكر وأنثى، من البقر الشامي لتحسين النتج في بلادنا... واحضرت من الحبوب الحنطة... والفواكه والخضرة لمزارعي بلادنا... وقد سلم قليل من الحمام والتدرج...).

بعد ٢٨ يوما من الشقاء والعناء وصل مالطا فالتقى بسفينة المؤن، التي كانت قد جاءت الى بيروت بعد ٣ أسابيع من مغادرتهم هذه المدينة، لكنها لم تقترب من بيروت لأن الكوليرا كانت قد انتشرت آنذاك. انتقل الملازم الى سفينته في مالطا وأبحر مروراً بنابولي ومرسيليا الى أن وصل نيويورك في أوائل كانون الأول ١٨٤٨.

قدم لينش تقريره الرسمي مع الملحقات (كتقرير عن الطير والنبات المجلوبة) والتحاليل الكيماوية الى جيمس ميسون، سكرتير البحرية الاميركية، في ٣ شباط ١٨٤٩. أما الخرائط والتفاصيل الجيولوجية فلم تكتمل إلا في ١٦ كانون الأول ١٨٥١، وهي الآن محفوظة في خزائن مجلس الشيوخ وسكرتارية البحرية. بالاضافة إلى التقرير الرسمي، صنف لينش كتاباً يروي قصة رحلته باسهاب. يوجد في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت نسختان من التقرير المختصر ونسختان من قصة البعثة. ●





فضل المقدّم

لقد استقر في أذهان الناس، بفعل مؤثرات عدة، ان عهد الولاة العثمانيين كان وحده، عهد ظلم واستبداد واغتصاب لحقوق الإنسان، وأنه لاوازع ثمة من دين أو ضمير. حكم يطلقونه على جميع الولاة، متناسين طبيعة العصر، وما هو حاصل في الغرب، في مثل ذلك العهد، وبعد ذلك العهد، مع اختلاف بالوسائل فقط! في حين أن الانصاف يقضي بالقاء نظرة شاملة على التاريخ، واجراء مقارنة، بتجرد، على ما كان يحصل هنا وهناك.

وسنرى في هذا البحث إن ما أدخل في روعنا من أحكام مبتسرة في هذا الشأن كان من غرض الطامعين (بالرجل المريض).



كان بدعاً في تاريخ الولاة، عثمانيين أو غير عثمانيين، ان يتداول أخوة ثلاثة أمرة الساحل الشامي في فترة امتدت من عام ١٦٥٩ الى العام ١٧٢٦. حدث هذا في عهد كان الوالي فيه لا يمكث في ولايته إلا سنة أو بعض السنة! وهذا ما حصل للباشوات أبناء أحمد آغا المطرجي: قبلان وأرسلان وبشير. وقبل أن نأتي على نبذ من أخبارهم، وأبرز ما وقع في أيامهم، لابد من كلمة واقية عن التنظيمات الادارية أبان الحكم العثماني:

بعدما تم للأتراك العثمانيين دحر المماليك عام ١٥١٦ في معركة (مرج دابق) الفاصلة، استسلمت لهم، بل ورحبت بهم (نيابات) الديار الشامية، او (مملكاتها) كما كانت تدعى أيضاً أيام المماليك. دخل الفاتح السلطان سليم الأول مدينة حلب ثم دمشق، وبايعه أهل طرابلس[1] أبقى الفاتحون على التقسيمات الادارية التي وجدوها مع استبدال الايالة ثم الولاية بنيابة السلطنة، وذلك تدريجياً، لأن مؤرخاً كالبطريرك الدويهي (١٦٣٠ ــ ١٧٠٤) ظل يطلق في كتابه (تاريخ الأزمنة) على الوالي لقب نائب. والفرق ظاهر: فالوالي يمثل في ولايته (الصدر الأعظم) والنائب يمثل السلطان!

كما أبقى العثمانيون على أمراء جبل لبنان وعلى رأسهم الأمير فخر الدين المعني الأول وكان هذا الأمير قد حضر معركة (مرج دابق) ولكنه لم يشارك فيها! فقد (قال لمن معه دعونا



قرويين من ساحل الشام أيام العثمانيين.

ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه)[٢]، وعندما تمت الغلبة للسلطان سليم ذهب على رأس وفد من الأمراء لمقابلته في دمشق، وخطب في حضرته، ودعا له. فأعجب السلطان بشخصه لا بأخلاصه، وخلع عليه لقب (سلطان البر).

كانت ولاية طرابلس آنذاك تضم خمسة (سناجق): طرابلس، حماة، حمص، سلمية، جبلة. ولم تكن هذه التقسيمات ثابتة. فقد تتسع أو تضيق، تبعا لقوة الوالي وضعفه، أو لرغبات الدولة العلمية!

والمبدأ الذي اعتمده العثمانيون في سياسة الولايات والامارات يقوم على خلق نوع من التوازن بين حكامهم، فلا يطغى أحد حتى يشق على الدولة امر اخضاعه. فعندما استفحل أمر المعنيين أوجدوا لهم بني سيفا في عكار وطرابلس ليكونوا ألد أعدائهم. وإن كانوا قد اعترفوا بسلطة الحماديين في البقاع ونواح من لبنان، وهم حلفاء المعنيين، فإن عين ولاتهم لم تغفل عنهم قط. ولمراقبة أمراء الجبل صدرت الأوامر من استانبول عام ١٩١٤ بأحداث ولاية صيدا، وضمت سنجقي صيدا ــ بيروت وصفد. والظاهر أنه لم يعين لها وال إلا في العام ١٦٦٠[٣] حين رفعت الشكوى إلى الباب العالي على (القيسية) فكانت فرصة الدولة لدعم (اليمنية)، فاختفى المعنيون وتشتت الشهابيون وهرب آل حمادة.

عهد، في الشرق العثماني، حالك السواد ولا شك. ولكنه إذا ما قورن بالغرب الاوروبي تبين أن ما عاناه الشرق من ظلم وعنف وتنكيل لا يقاس بحال بما كان يجري في اوروبا أبان استفحال الملكية. فحيثما توجد (رعية) لابد من وجود (راع). فهنا (السلطان) ظل الله على الأرض، وهناك (الملك) يحكم بالحق الإلهي. وكلاهما حاكم متحكم في رقاب العباد وأرزاقهم. ولقد قال أحد ملوك فرنسا[٤]: أنا القانون. وهي مقولة لم يجرؤ عليها السلطان العثماني، لأن قوانينه لا تصبح نافذة إلا بفتوى من (شيخ الاسلام). وما وقع من مظالم على جميع الطوائف التي استظلت بالعلم العثماني، وقع أشد منه وأفظع على الطوائف التي لا تدين بمذهب الملوك، وعلى الأخص (الملكات) في أوروبا. فلم يمارس الأتراك القتل الجماعي كالذي حدث أيام (الحروب الدينية)، ولم ينشئوا (محاكم تفتيش)، ولم يقترفوا مذبحة (بارتلمي ــ S. Barthélemy). هذا شأنهم فيما بينهم. أما عندما توجهوا لاستعمار البلاد التي تغلبوا عليها بالقرة، أو بالحيلة والخديعة، فبأسهم فيها

الامير فخرالدين المعني.



أشد. وبطون الكتب التي ألفها منصفون من الشرق والغرب ملأى بجرائم لم يسطر تاريخ بني عثمان مثلها. والحقيقة التي لا مراء فيها أن العثمانيين لم يحاولوا (تتريك) البلاد التي حكموها، فلم يفرضوا معتقدهم على المغلوبين ولا لغتهم ولا آدابهم. وما فعله الاتحاديون الذين أعادوا الدستور عام ١٩٠٨ لم يبلغ غايته، إذ دهمتهم الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨. ولماذا نذهب بعيداً في المقارنة وبأرضنا غرس الغرب دولة الصهاينة. ولا يتوهمن أحد أنني أسوق هذا الحديث لتبييض صفحة العثمانيين، وقد قلت أنها حالكة السواد، وهم بالطريقة التي كانوا يختارون بها الولاة جلبوا على أنفسهم كل ما ألصق بهم من تهم:

ومن دعا الناس إلى ذمه
ذمّوه بالحق وبالباطل

فقد اعتمدوا طريقة من كان قبلهم، وهي ببساطة (التلزيم) تلزيم الولاية لمن يدفع أكثر، ليستوفي فيما بعد أضعاف ما دفع. وشذ عن هذه القاعدة أحمد آغا المطرجي، وهو من بلدة بهذا الاسم، كان من أغوات البلاط السلطاني، فاختاره السلطان لسنجقية اللاذقية، لما أنس فيه من حزم وكياسة في تصريف الأمور، ومن تقوى بمفهوم ذلك العصر. وهي صفات أورثها بنية، وأبرز ما ظهرت في سيرة أرسلان، كما سنرى:

ولنبدأ بقبلان باشا الذي تولي إيالة طرابلس عام ١٦٥٩ ومعه أمر من الدولة العلية (بالاقتصاص) من المشايخ آل حمادة بسبب مخرفاتهم وسطوهم[٥] أو لحفظ التوازن! ولما عرفوا بالأمر فروا الى كسروان بعيالهم ومواشيهم فهدم الباشا دورهم وقرى وادي علمات[٦] وراح يناوشهم، تارة يقسو وأحياناً يلين، لا يبغي استئصالهم، بل ترويضهم وتحصيل المترتب عليهم من المال، لأنهم مطل يسوفون! وذلك مدة ولايته وقد طالت. فلم يذكر الذين أرخوا للحكم العثماني أن والياً شغل منصب الولاية، بصورة متقطعة طبعا، من عام ١٦٥٩ حتى ١٧١٥ سوى قبلان باشا، في حين أكثر الولاة لا يمكثون في ولايتهم إلا سنة أو بعض السنة!.

إلا أنه قد اخذ عليه قتله الشيخ يونس البشعلاني الذي كان قد أعلن إسلامه، وتزوج من امرأة مسلمة، ثم ارتد. فالذي ذكر هذه الحادثة من المؤرخين انما نقلها عن (تاريخ الأزمنة). ويورد (دي لاروك) رواية أخرى[٧] تظهر أنه أعدم بتهم شتى غير الارتداد. وعلى أي حال فهذا حادث فردي. ومما يذكر بالتقدير أن (شيخ الاسلام) كان قد أصدر فتوى بأن تظاهر يونس بالإسلام لا يعول عليه لصدوره عن إكراه، إذ (لا اكراه في الدين ــ الآية ٢٥٦ البقرة).

ثم تولى ارسلان باشا على طرابلس عام ١٦٩٣ فكانت المهمة الأولى التي أوكلت اليه، كالتي أوكلت الى أخيه، تأديب المشايخ الحمادية. ولكن الأمير أحمد المعني، حليف الحمادية، حال دون ذلك. فشكا الباشا أمره الى (الدولة العلية) فصدرت الأوامر السلطانية بعزل ابن معن، وبتجهيز حملة من ولاة دمشق وحلب وصيدا وغزة لنجدة والي طرابلس[٨] فاختفى الأمير المعني وهرب الحماديون. وبعد أربعة أعوام رفع يد الحماديين عن بلاد جبيل فتشفع بهم الأمير بشير الشهابي، وكفل ما يترتب عليهم، (وفوض ارسلان باشا الأمير بشيرا على بلاد جبيل والبترون فولاهم الأمير عليها وارسل بعض خواصه، فجمع المال منهم ودفعه الى الوزير) وكان المحبة قد جرت بينهما[٩] وذلك أنه بوفاة الأمير أحمد المعني دون عقب عام ١٦٩٧ اجتمع أعيان الجبل للتشاور فيمن يتولى على

ما كان بيد ابن معن، فاتفقت كلمتهم على انتخاب الأمير بشير، أمير راشيا لأنه ابن أخت الأمير المعني، ويتحلى بمزايا تؤهله لتولي إمارة الجبل. وعرض الأمر على مصطفى باشا والي صيدا ليرفع ملتمسهم إلى (أعتاب الدولة العلية). وبعد مدة يسيرة نقل مصطفى باشا والي صيدا الى مصر وحل مكانه في ولاية صيدا أرسلان باشا، فحضر من الدولة العلية فرمان بتولية الأمير حيدر الشهابي، سبط الأمير أحمد المعني (فأرسل أرسلان باشا الأمر السلطاني الى الأمير بشير، فأجابه ملتمساً أن يعرض للسلطان أن الأمير حيدراً عمره اثنتا عشرة سنة، فلا يمكنه أن يتولى الحكم بنفسه وأنه هو يكون نائباً عنه. فعرض أرسلان باشا ذلك وأتاه الجواب أن يكون الأمير بشير واليا بطريق النيابة والوكالة[10] على هذا أكثر المؤرخين. أما البطريرك الدويهي فيقول بالحرف وبلغته (فاحتج الحاج أرسلان عن الأمير بشير أنه كفوا ولم يليق أحد غيره على رضى أعيان المقاطعات. وفي أوائل شهر شوال وردت البرايا من طرف الوزير ــ أرسلان ــ الى الأمير بشير وتولى على المقاطعات التي كانت بيد ابن معن) انتهى عن تاريخ الأزمنة ص ٣٨٣.

وهذه الرواية في نظرنا أصح، لأنه عند وفاة الأمير بشير عام ١٧٠٧ اجتمع من جديد أكابر البلاد وأعيانها وقرّ رأيهم على تولية الأمير حيدر. فلو كان ثمة فرمان سابق لما احتاجوا الى استصدار فرمان جديد. فعرضوا الأمر على أرسلان باشا فأجاب سؤالهم، وعندما وردت الموافقة من استانبول كان أرسلان قد عزل أو اعتزل، وحل محله في ايالة صيدا أخوه بشير باشا[11] ومما تجدر الاشارة إليه في تاريخ أرسلان باشا دعوته لعلامة عصره، العارف بالله، الشيخ عبد الغني النابلسي. فزار طرابلس عام ١٧٠٠ فسجل الشيخ بدقة متناهية مراحل سفره ذاك في كتاب أسماه (التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية) وقد أثنى فيها ما وسعه الثناء على الباشا لتقاه وتواضعه وكرم ضيافته. أما التحفة فلا غنى عنها لكل من يؤرخ لذلك العهد[12].

ومما يزيد في قدر الأخوين قبلان وأرسلان



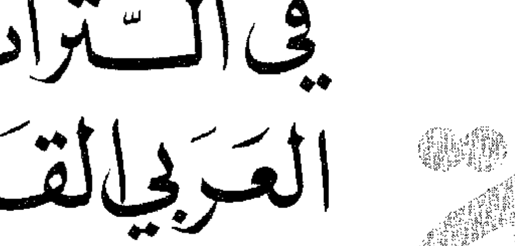
الأمير بشير الشهابي.

أنهما توليا امارة الحج أكثر من مرة، وهذا تشريف لم يحظ به إلا كبار الولاة.

اعتزل أرسلان باشا الحياة السياسية، وانسحب إلى سنجقية أبيه (اللاذقية) وانقطع الى أعمال البر والعبادة، فبنى جامعاً لا يزال قائماً يحمل اسمه، وخلف أسرة معروفة هناك. أما آل المطرجي في طرابلس فهم من ذرية قبلان باشا. ثم راح الأخوان قبلان وبشير يتناوبان على امرة الساحل الشامي حتى عام ١٧١٥ وظل بشير باشا حتى ١٧٢٦ والياً على طرابلس.

الهوامش

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي، ج ٢ ص ٢٢٣.
(٢) الغرر الحسان للأمير حيدر الشهابي، طبعة مصر، ص ٥٦٠.
(٣) محاضرات في تاريخ لبنان الحديث للدكتور عمر عبد العزيز، ص ٣٢.
(٤) لويس الرابع عشر (Larousse du XXe S.P. 527).
(٥) تاريخ سوريا للدبس. المجلد ٧ ص ٢٠٥، طبعة ١٩٠٣.
(٦) أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق، ص ٢٠٨، طبعة ١٩٥٤.
(٧) تاريخ لبنان العام للدكتور مزهر، ج ١ ص ٣٩٩ ــ ٤٠٠.
(٨) تاريخ سوريا لجورجي يني، ص ٤١١.
(٩) تاريخ سوريا للدبس. المجلد السابع، ص ٢١٧.
(١٠) باختصار عن الغرر الحسان طبعة لبنان، ج ١ ص ٤ و٥ وتاريخ الدبس، مجلد ٧، ص ٢٢٣.
(١١) عن مخطوطة لدينا. وقد طبعت هذه (التحفة) مؤخراً بمعرفة المكتب الألماني في بيروت.
(١٢) تاريخ الدبس. المجلد السابع، ص ٣٦٧.



في التراث العربي القديم

نادية عبد العزيز

غانة.. اسم تردَّد على الالسنة والاسماع في الايام الاخيرة؛ فهي أحدث دولة حصلت على استقلالها بعد كفاح طويل للاستعمار الانجليزي، وهي الدولة التي ما ان استقلت حتى انضمت الى هيئة الأمم المتحدة، وطلبت الى زميلاتها من دول افريقية المستقلة ــ عقد مؤتمر لبحث المسائل المؤدية الى النهوض باقطار أفريقية، والاخذ بيد مالم يتسقل منها بعد ليصل الى نعيم الحرية.

وغانة.. اسم حديث قديم؛ فان هذه الدولة الحديثة أطلقته على نفسها فور خلعها نير الاستعباد، فاسترجعت بذلك ماضيها البعيد الذي كانت تعرف، به. وألقت عن نفسها الاسم الذي اشتهرت بـه أيام الاستعمار، ويوحي ــ فيما يوحي ــ بالاستغلال، وهو: اسم ساحل الذهب».

الساحل الغاني كان ولا يزال «الباب المفتوح» للاقتصاد الغاني نحو الخارج.

ان الاتصال الذي تريده غانة بأقطار أفريقية يحيي اتصالاً وثيقاً كان بينها وبين الاقطار العربية الافريقية خاصة.

فقد عرف العرب غانة منذ زمن بعيد، ووصفها جغرافيوهم ورحالوهم في كتبهم منذ القرن الثالث الهجري، وكانت رحلات العرب اليها منتظمة من أقطار ثلاثة: المغرب الأقصى، وطرابلس، ومصر. وأطلقوا عليها أسماء غانة، وبلاد التبر، وأرض السودان. ويحاول هذا المقال أن يقوم بجولة في كتب هؤلاء المؤلفين، والتعرف على الوجوه التي وصفوها من هذه البلاد.

وأول من نعرض له ابن الفقيه صاحب كتاب البلدان، والمتوفي عام ٢٨٩ هـ، وقد وصف في اختصار طريقين من طرق الاتصال بغانة، هما: طريق المغرب الاقصى ومصر، وكذلك بعض عادات أهل غانة قال:

ومن طرقلة (وهي عاصمة السوس الاقصى، وهو في أقصى غرب المغرب الاقصى) الى مدينة غانة مسيرة ثلاثة أشهر: مفاوز، وقفار، وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتاً في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس. وطعامهم الذرة واللوبياء، ويسمون الذرة الدخن. ولباسهم جلود النمور، وهي هناك كثيرة... واذا جاوزت بلاد غانة الى أرض مصر، انتهيت الى أمة من السودان يقال لها: كوكو، ثم الى أمة لها مرندة، ثم الى أمة يقال لهـا مراوة، ثم الى واحات مصر».

ووصف ابراهيم بن محمد الاصطخري، من أهل القرن الرابع، في كتابه مسالك الممالك، اتساع أراضي غانة، وأهلها، وطعامهم. فقال:

«وبلدان السودان بلدان عريضة الا أنها قفرة قشفة جداً، ولهم ـ في جبال لهم فيها ـ عامة مايكون في بلاد الاسلام من الفواكه، الا أنهم لا يطعمونه، ولهم أطعمة يتغذون بها من فواكه ونبات وغير ذلك مما لا يعرف في بلدان الاسلام. والخدم السود الذين يباعون في بلدان الإسلام منهم، وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا من البجة، الا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى. ويقال: انه ليس في أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم اقليم هو أوسع منه، ويمتدون الى قرب البحر المحيط مما يلي الجنوب، ومما يلي الشمال على مفازة تنتهي الى مفاوز مصر من وراء الواحات، ثم الى مفاوز بينها وبين أرض النوبة، ثم على مفاوز بينها وبين أرض الزنج. وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات الا من وجه المغرب، لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم».

وواضح أن الاصطخري أخطأ في عبارته الاخيرة؛ لأن ابن حوقل أشار الى طريق كان بين غانة ومصر عن طريق الواحات، فليست الصلة الوحيدة بينها وبين العالم المعروف قديماً ـ عن طريق المغرب وحده. ولكن ابن حوقل يزيل الاشكال ـ وهو من أهل القرن الرابع أيضاً ـ في كتابه المسالك والممالك، اذ يقول:

«ويكون بين دبرته وبلاد الزنج براري عظيمة ورمال، كانت في سالف الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر إلى غانة، فتواترت الرياح على قوافلهم ومفرداتهم، فأهلكت غير قافلة، وأتت على غير مفردة. وقصدهم أيضاً العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق، وتركوه الى سجلماسة... ومن أودغشت الى غانة بضعة عشر يوماً بالمفردة، ومن غانة الى كوغة ١٥ يوماً، ومن كوغة إلى سامة دون الشهر ومن سامة إلى كزم نحو شهر أيضاً، ومن كزم الى كوكو شهران، ومن كوكو الى مرندة شهر، ومن مرندة الى زويلة شهران».

وزويلة هذه بطرابلس. وابن حوقل لا يعرض لشيء غير وصف الطريق، ولكنه ذكر في موضع آخر أن بغانة جالية كبيرة من المسلمين، سمح صاحب غانة لها بأن تتحاكم إلى قاض مسلم.

واذا انتقلنا الى القرن السادس وجدنا الادريسي يصف غانة وصفا مطولاً، تختلف فيه صورتها عن الصورة السابقة كثيراً. قال:

«ومن مدينة ملل الى مدينة غانة الكبرى نحو ١٢ مرحلة في رمال ودهاس لا ماء بها. وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطراً، وأكثرها خلقاً، وأوسعها متجراً، واليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الاقصى. وأهلها مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي. وله قصر على ضفة النيل (يريد نهر النيجر) وقد أوثق بنيانه، وأحكم اتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والادهان وشمسيات الزجاج. وكان بنيان هذا القصر في عام ٥١٠ من سني الهجرة. وتتصل مملكته وأرضه بأرض «ونقارة»، وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيباً. والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علماً يقينياً لا اختلاف فيه أن له في قصره لبنة من ذهب، وزنها ٣٠ رطلاً من ذهب، تبرة واحدة خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة، وقد نقر فيها ثقباً، وهي مربطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربة التي ليست عند غيره، ولا صحت لأحد الا له، وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان.

وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه. ومن سيرته في قربه من الناس وعدله فيهم، أن له جملة قواد يركبون الى قصره في صباح كل يوم. ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فاذا وصل الى باب القصر سكت. فاذا اجتمع اليه جميع قواده ركب وسار يقدمهم، ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد. فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له. فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته. ثم يرجع الى قصره ويفرق قواده. فاذا كان بعد العصر وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده. فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول اليه. وركوبه في كل يوم مرتين، سيرة معلومة. وهذا مشهور من عدله.

ولباسه ازار حرير يتوشح به، أو بردة يلتف بها، وسراويل في وسطه، ونعل شراكي في قدمه. وركوبه الخيل. وله حلية حسنة، وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده. وله بنود كثيرة وراية واحدة. وتمشى أمامه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش التي في بلاد السودان.

ولهم في النيل زوارق وثيقة الانشاء يتصيدون فيها، ويتصرفون بين المدينتين بها. ولباس أهل غانة الازر والفوط والاكسية، كل أحد على قدر همته.

وأرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مقزارة، ومن شرقيها ببلاد ونقارة، وشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر، وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية وغيرها .

«ومن مدينة غانة الى أول بلاد ونقارة ٨ أيام. وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة. وهي جزيرة طولها ٣٠٠ ميل وعرضها ١٥٠ ميل، والنيل يحيط بها من كل جهة في معظم السنةفاذاكان في شهر أغشت (أغسطس) وحمى القيظ، وخرج النيل وفاض، غطى هذه الجزيرة أو أكثرها، وأقام عليها مدته التي من عادته أن يقيم عليها، ثم يأخذ في الرجوع. فاذا أخذ في الرجوع والجزر، رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين الى تلك الجزيرة بحاثاً يبحثون طول أيام رجوع النيل. فيجد كل انسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر، وما يخيب منهم أحد. فاذا عاد النيل الى حده، باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر، وتاجر بعضهم بعضاً. واشترى أكثره أهل وارقلان، وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه الى دور السك في بلادهم فيضربونه دنانير، ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة. وهي أكبر غلة عند السودان، عليها يعولون: صغيرهم وكبيرهم.

وأرض ونقارة فيها بلاد معمورة، ومعاقل مشهورة، وأهلها أغنياء، والتبر عندهم وبأيديهم كثير، والخيرات مجلوبة اليهم من اطراف الارض وأقاصيها. ولباسهم الأزر والأكسية والقداوير، وهم سود جداً.



زراعة جوز الهند في غانة من أهم ركائز الاقتصاد الغاني.

فمن مدن ونقارة «تيرقي»، وهي مدينة كبيرة، وفيها خلق كثيرة، ولكن ليس لها سور ولا حظيرة. وهي في طاعة صاحب غانة، وله يخطبون، واليه يتحاكمون. وبين غانة وتيرقي ٦ أيام، وطريقها مع النيل.

ومن مدينة تيرقي الى مدينة مداسة ٦ أيام. ومدينة مداسة هذه مدينة متوسطة، كثيرة العمارة، صالحة العمالات، وفي أهلها معرفة. وهي على شمال النيل، ومنه شربهم. وهي بلد أرز وذرة، كبيرة الحب طعمها صالح، وأكثر معايشهم من الحوت (وهو السمك) وتصيده، وتجارتهم بالتبر.

ومن مدينة مداسة الى بلد سغمارة ٦ مراحل. وبين مداسة وسغمارة الى جهة الشمال ومع الصحراء، قوم يقال لهم بغامة، وهم برابر رحالة لايقيمون في مكان، يرعون أجمالهم على ساحل نهر يأتي من ناحية المشرق فيصب في النيل. واللبن عندهم كثير ومنه يعيشون.

ومن مدينة سغمارة الى مدينة سمقندة ٨ أيام. ومدينة سمقندة هذه مدينة لطيفة، على ضفة البحر الحلو.

ومنها الى مدينة غربيل ٩ أيام. ومن مدينة سغمارة الى مدينة غربيل جنوباً ٦ أيام. ومدينة غربيل هذه على ضفة البحر الحلو. وهي مدينة لطيفة القدر، في سفح جبل يعلوها من جهة الجنوب. وشرب أهلها من النيل، ولباسهم الصوف، وأكلهم الذرة والحوت وألبان الابل. وأهلها يتصرفون في تلك البلاد بضروب من التجارات التي تدور بين أيديهم.

ومن مدينة غربيل مع الغرب الى مدينة غيارة ١١ مرحلة ومدينة غيارة هذه على ضفة النيل، وعليها حفير دائر بها، وبها خلق كثير، وفي أهلها نجدة ومعرفة، وهم يغيرون على بلاد لملم يسبونهم ويأتون بهم ويبيعونهم من تجار غانة. وبين غيارة وأرض لملم ١٣ مرحلة. وهم يركبون النجب من الجمال، ويتزودون الماء، ويسرون بالليل، ويصلونه بالنهار، الى أن يغنموا ويرجعوا الى بلدهم بما يفتح الله عليهم من السبي من أهل لملم. ومن مدينة غيارة الى مدينة غانة ١١ مرحلة، وماؤها قليل.

وجملة هذه البلاد التي ذكرناها هي في طاعة صاحب غانة، واليه يؤدون لوازمهم، وهو القائم بحمايتهم...

وصحراء نيسر (التي تؤدي الى غانة وهي الصحراء الكبرى الآن) قليلة الانس ولا عامر بها. وبها الماء القليل، ويتزود به من مجابات معلومة، ومنها مجابة نيسر التي ذكرنا أنها ١٤ يوماً لاماء بها، ولا يوجد له أثر فيها، وهي مشهورة بذلك. وفي هذه الصحراء المعروفة بصحراء نيسر حيات كثيرة، طوال القدود، غلاظ الأجسام، والسودان يصيدونها ويقطعون رؤوسها ويرمون بها، ويطبخونها بالملح والماء والشيح ويأكلونها، وهي عندهم أطيب طعام يأكلونه. وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف. وصفة السير بها أنهم يوقرون أجمالهم في السحر الأخير، ويمشون الى أن تطلع الشمس، ويكثر نورها في الجو، ويشتد الحر على الأرض، فيحطون أحمالهم، ويقيدون أجمالهم، ويعرسون أمتعتهم، ويخيمون على أنفسهم ظلالاً تكنهم من حر الهجير وسموم القائلة. ويقيمون كذلك الى أول وقت العصر، حين تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب، يرحلون من هناك، ويمشون بقية يومهم، ويصلون المشي الى وقت العتمة. ويعرسون أينما وصلوا، ويبيتون بقية ليلهم الى وقت الفجر الأخير، ثم يرحلون. وهكذا سفر التجار الداخلين الى بلاد السودان على هذا الترتيب لايفارقونه، لان الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض».

ويكمل ياقوت الحموي في القرن السابع صورة الرحلة في هذا الطريق الشاق، ويرسم صورة المبايعات بين التجار، فيقول:

«بلاد التبر اليها ينسب الذهب الخالص، وهي في جنوب المغرب، تسافر التجار من سجلماسة الى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة، وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر... وخرز الزجاج الأزرق، وأسورة نحاس أحمر، وحلق، وخواتم نحاس لا غير. ويحملون منها الجمال الوافرة القوية أوقارها. ويحملون الماء من بلاد لمتونة ــ وهم الملثمون، وهم قوم من بربر المغرب، في الروايا والأسقية. ويسيرون فيرورون المياه فاسدة مهلكة، ليس لها من صفات الماء الا التميع. فيحملون الماء من بلاد لمتونة، ويشربون ويسقون جمالهم. ومن أول ما يشربونها تتغير أمزجتهم ويسقمون خصوصاً من لم يتقدم له عادة بشربه حتى يصلوا الى غانة بعد مشاق عظيمة. فينزلون فيها ويتطيبون ثم يتصحبون الأدلاء، ويستكثرون من حمل المياه. ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر. فيمرون بطريقهم على صحار فيها رياح السموم تنشف المياه داخل الاسقية. فيتحايلون بحمل الماء فيها ليرمقوا به، وذلك أنهم يستصحبون جمالاً خالية لا أوقار عليها يعطشونها قبل ورودهم على الماء نهاراً وليلاً، ثم يسقونها نهلا وعللا الى أن تمتلىء أجوافها ثم تسوقها الحداة. فاذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا الى الماء، نحروا جملاً وترمقوا بما في بطنه، وأسرعوا السير حتى يردوا مياهاً أخر. فملئوا منها أسقيتهم، وساروا مجدين بعناء شديد حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر.

فاذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان، ويقال: أنهم من مكامن وأسراب تحت الأرض، عراة لا يعرفون ستراً، مع أن هؤلاء القوم لا يدعون تاجراً أبداً يراهم، وانما هكذا تنقل صفاتهم. فاذا علم التجار أنهم سمعوا الطبل، أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة. فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك، كل صنف على جهة، ويذهبون عن الموضع مرحلة. فيأتي السودان ومعهم التبر، فيضعون

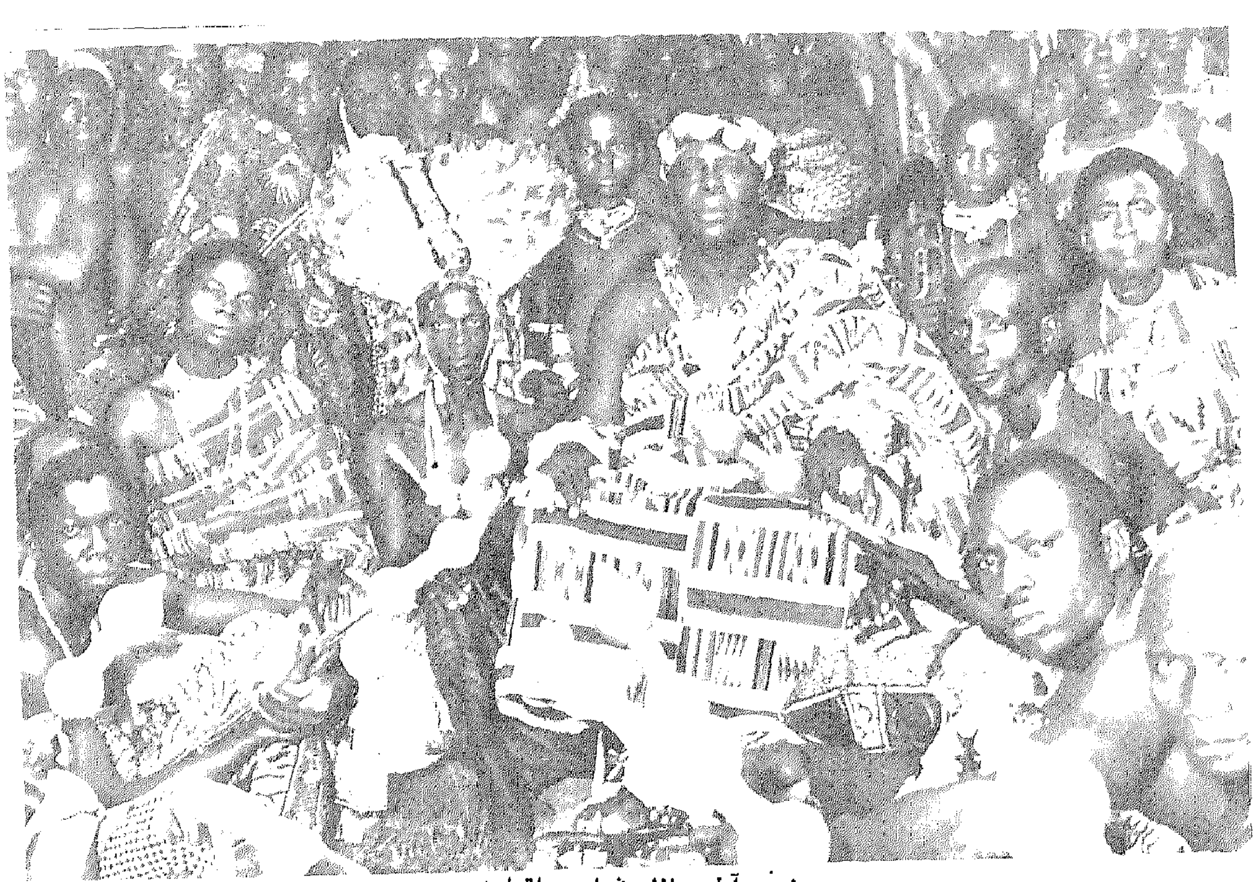


زعيم اقطاعي في محفة التكريم.

الى جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون. ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر، ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم. وليس وراء هؤلاء ما يعلم، وأظن أنه لا يكون ثم حيوان؛ لشدة احراق الشمس. وبين هذه البلاد وسجلماسة ثلاثة أشهر.

وأختتم هذه الجولة بالسير مع ابن بطوطة في رحلته:

«ولما عزمت على السفر الى «مالي»، وبينها وبين «ايوالاتن» مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجد، اكتريت دليلاً من «مسوفة» اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق... وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظلّ الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان. وبعض تلك الاشجار قد استأسن داخلها، واستنقع فيه ماء المطر، فكأنها بئر. ويشرب الناس من الماء الذي فيها، ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها. ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب بها برمته وهو ينسج فعجبت منه... وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس، فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه، ويباع بالأسواق، ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها، وطعمها كطعم الحمص المقلو، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج، وقلوه بالغرتى، وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة، مضر بالبيض اذا أكلوه، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع، فمنها أنهم يطبخون به، ويسرجون السرج، ويقلون به هذا الاسفنج، ويدهنون به، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا. والقرع ببلاد



زعيم آخر ينظر في امور اتباعه.

السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان، يقطعون القرعة نصفين، فيصنعون منها جفنتين، وينقشونها نقشاً حسناً. واذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها، وهي من القرع. والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً، انما يحمل قطع الملح، وحلى الزجاج الذي يسميه النظم، وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل، والمصطكى، وتاسرغنت وهو بخورهم. فاذا وصل قرية، جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرزوالفوني ــ وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو ــ والعصيدة ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك، الا أن الارز يضر أكله بالبيض، والفوني خير منه.

وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن، وصلنا الى قرية زاغرى، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراته، ويسكن معهم جماعة من البيض يذهبون مذهب الاباضية ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم تورى...

ولسلطان «مالي» قبة مرتفعة، بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات. ولها من وجهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب أو هي فضة مذهبة، وعليها ستور ملف. فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور، فعلم أنه يجلس؛ فاذا جلس أخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم، فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والأبواق. ثم يخرج من القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح والدرق. فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة، ويجلس أصحاب القسي كذلك. ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين، ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين. وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى. وتأتي الفرارية، وهم الامراء، ويأتي الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة في

المشور. ويقف دوغا الترجمان على باب المشور، وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواش، لهم في تعميمها صنعة بديعة، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب، وفي رجليه الخف والمهامين. ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفاً وغيره، ويكون في يده رمحان صغيران: أحدهما من ذهب، والآخر من فضة، وأسنتهما من الحديد. ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور في شارع هنالك متسع فيه أشجار. وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأطبال والأبواق، وبوقاتهم من أنياب الفيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع، ويضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب. وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده، وهو راكب فرساً، وأصحابه بين مشاة وركبان. ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف، فمن أراد أن يكلم السلطان، كلم دوغا، ويكلم دوغا لذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان...

والسودان أعظم الناس تواضعاً للكهم وأشدهم تذللاً له، ويحلفون باسمه... فاذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقة، ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة، ودخل رافعاً ثيابه وسراويله الى نصف ساقه، وتقدم بذلة ومسكنة، وضرب الارض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه. واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه، كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء... واذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام، وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام.

ومن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها، ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة، وانما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. واذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الانسان الى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه.

ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة؛ فان عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا، ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعرى بناته. ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر...».

ويجب الاشارة الى أن كلام ابن بطوطة كله عن «مالي» ولا يذكر غانة. ولا أهمية لذلك، لأن بعض الغزاة دمروا مدينة غانة قديماً، ثم قامت بعد ذلك دولة أخرى اتخذت مدينة مالي عاصمة لها.

●

المراجع

(١) ابن الفقيه: كتاب البلدان، من المكتبة الجغرافية، طبع ليدن.

(٢) الاصطخري: مسالك الممالك، من المكتبة الجغرافية، طبع ليدن ١٨٧٣.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مخطوط بدار الكتب المصرية.

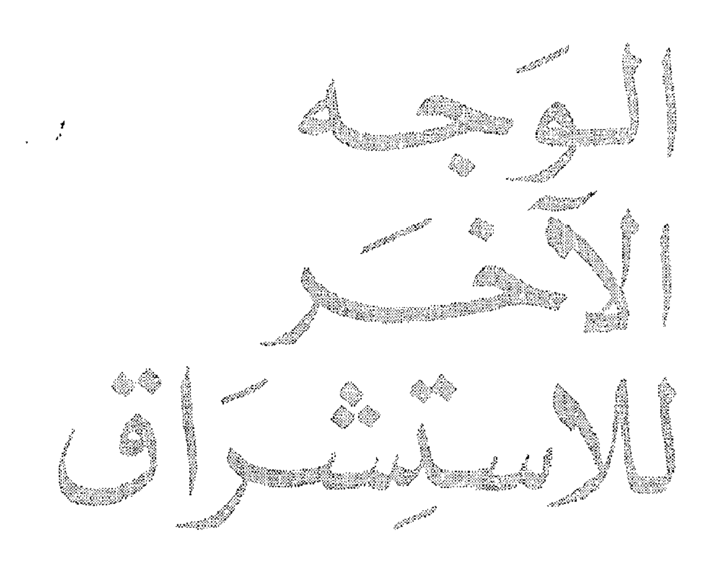
(٤) ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، طبع ليبسك ١٨٦٦.

(٥) ابن بطوطة: رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ.

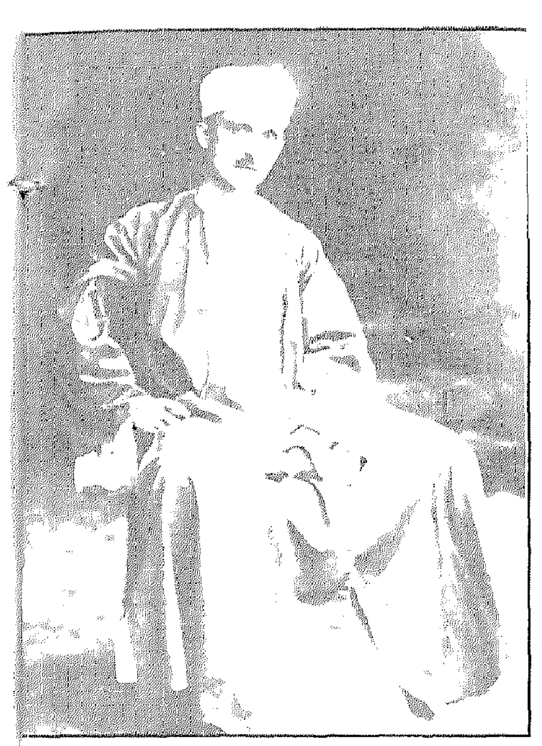
(٦) Gibb: Ibn Battuta travels in Asia and Africa London 1929.



غادة المقدّم عدرة



الوجه الآخر للاستشراق



ماسينيون، الطالب في جامعة الأزهر سنة ١٩٠٩ باللباس الشرعي.

«للاستشراق وجهان: وجه ظاهر، ووجه كامن، فالاستشراق الظاهر يتغير في المعرفة بالشرق بين أفكار كاتب وآخر. أما الاستشراق الكامن فهو مستتر وثابت ويكاد لايتغير لانه نتاج لقوى ونشاطات سياسية معينة...».

الاستشراق كلمة حديثة الاستعمال اتخذها اللبنانيون في القرن التاسع عشر للدلالة على علم جديد أقبل عليه الغربيون بدراستهم الشعوب الشرقية في مواطنها الاصلية ومهاجرها المتتابعة في أصولها العرقية وفروعها، في جغرافياتها وآثارها، في تواريخها وأساطيرها، في لغاتها وآدابها، في دياناتها ومذاهبها، في تقاليدها وعاداتها، ومايتعلق بكل ذلك من خصائصها المعاشية والحضارية، فسمّوا العلم «الاستشراق» وسموا أربابه المستشرقين(١).

أما صيغة «الاستشراق» فهي استفعال من الشرق اشارة الى مايقوم به هؤلاء العلماء من طلب معرفة الشرق في مختلف شؤونه وأحواله.

فما هي معايير الاستشراق؟ أهي الجغرافية؟ أم الاعراق البشرية؟ أم الديانات؟ أم اللغات؟ هي في الواقع كل هذه مجتمعة ومتفرقة فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

بدأ الاستشراق في ساحات القتال بين الشرق والغرب. وقد اختلف المؤرخون وتباينت آراؤهم حول الاستشراق، فمنهم من قال إن الاستشراق هو تتمة للحملات الصليبية، ومنهم من رده الى المسألة الشرقية من تخوف أوروبا من قوة وضغط السلطنة العثمانية ودقهم لابواب

غادة مقدم عدرة: ماجستير في الدراسات الاسلامية ـ تشغل حاليا رئاسة قسم شؤون الدراسات العليا. لديها نشاطات اذاعية سابقة.

فيينا وتهديدها قلب أوروبا. ومنهم من رده الى قرار المجمع الكنسي الكاثوليكي بانشاء مؤسسة أو معهد خاص رسمي (Fide) لنشر الدعـوة الكاثوليكية سنة ١٣٢٥.

أما البستاني في دائرة المعارف فيبرز دور الموارنة في الاستشـراق وقد اعتبـر الرهبـان اللبنانيين أول المستشرقين خـصوصاً وأن البابا غريغوريوس الثالث عشر أنشأ الكلية المارونية في روما.

إذاً الاستشراق قام عـلى أكتاف الرهبـان والمبشـرين في أول الامر ثم اتصـل بعد ذلك بالمستعمرين، فهو ما زال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك ولو أن أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم ويـؤثـرون أن يحتفـوا وراء مختلف العناوين والاسماء.

فالمستعمرون يسخّرون قواهم المادية لسحق العالم العربي والاسلامي، والمستشرقون يقدمون الاسباب العلمية والتاريخية لهذا العدوان بأن يظهروا المجتمع العربي وأصحابه في شكل مغاير للواقـع ويغلفوا عـاداتـه وتقـاليـده وأصـوله بـافـتـراءات عـديـدة. فـاتسـعـت الدروس الاستشـراقية وتـطورت شيئاً فشيئـاً وتخطت موضوعاتها شؤون الدين والفلسفة وتجـاوزت جمـع المخطوطات والتـرجمة والتعليق الى نشر النصوص القديمة والتأليف. وهو ما ظهر في ابان نهضته في القرن السابع عشر.

اذاً الاستشراق له وجهان: وجه ظاهر، ووجه كامن، فالاستشراق الظاهر يتغـير في المعرفـة بالشرق بين أفكار كاتب وآخر وهي فروق في الشكل والأسلوب الشخصي.

أما الاستشراق الكامن فهو مستقـر وثابت ويكاد لا يتغير ذلك، انه نتاج لقوى ونشاطات سيـاسيـة معينـة، لذلك فـالمضمـون واحـد للاستشراق الكامن في كل الفترات.

وهنـا نحن بصـدد الوقـوف عـنـد أهم المستشرقين الفرنسيين الذين كـان لهم الدور الفعال في التصوف الاسلامي بصورة خـاصة وبدراسة المجتمع والحضارة الاسلامية بصورة عامة ألا وهو لويس ماسينيون.

في هذه الآونة فترة مابـين الحربـين كانت سورية الكبرى المحرق الرئيسي للنشاط الفرنسي وللصـراع الانجلو ــ فـرنسي عـلى الغنـائم العثمانية. لكن المستشرقين والخبـراء المحليين الفرنسيين قد هزموا على صعيد الذكاء والمناورة التكتيكية من قبل البريطانيين عـدا عبقري استثنائي مثل لويس ماسينيون.

فمن هو لويس ماسينيون؟

ولد في ٢٥ تمـوز سنـة ١٨٨٣ في نـوجن سيرمارن والده فرناند نحات ورسام وعرف باسم

Annexe N° 3 COPIE FAITE 260

LE SOUS-LIEUTENANT MASSIGNON A MONSIEUR G.PICOT(?), ADJOINT AU HAUT COMMISSAIRE DE LA REPUBLIQUE FRANCAISE DANS LES TERRITOIRES OCCUPES DE PALESTINE ET DE SYRIE.

RAPPORT SUR LES CONDITIONS DE LA PROPAGANDE FRANCAISE AUPRES DE LA LEGION ARABE.

26 Octobre 1917.

1). Comment est appréciée la méthode d'instruction ~~française~~ au point de vue de l'influence française.

Les troupes arabes, cadres et soldats, ont, dès le premier contact, senti l'intime accord qui régnait entre les deux Advisers, français et britannique ~~pour la méthode d'instruction~~. Rien de plus instructif à ce sujet que les tentatives multipliées esquissées, sous des formes variées, pour tâter cet accord, par les différents commandants d'unités depuis les Cdts de Cies, jusqu'aux Major Cdt le Bataillon. Au point de vue des Advisers, ~~cette suite~~ de tentatives avortées a abouti à consolider l'emprise morale qu'ils avaient acquise de concert sur les troupes, et à ramener chaque fois, plus nettement, la ligne de conduite du Cdt du Bataillon aux directives qu'ils lui avaient fait accepter.

Ni les officiers ni les soldats n'ont d'objection de principe à cette intime collaboration franco-britannique pour la direction de la Légion Arabe. Ils ont saisi de suite le bien matériel et moral qu'ils en retireraient, et ils estiment que ce bien leur est dû, et que l'Angleterre et la France ne font vis-à-vis d'eux que leur devoir, en leur donnant la préparation militaire qu'ils en attendent.

Tout naturellement, les spécialités se sont affirmées, et, tandis que l'Adviser britannique initiait les cadres arabes aux rouages administratifs et confiait à ses sous-officiers le soin d'expliquer le mécanisme du fusil anglais et de la mitrailleuse Maxim, - l'Adviser français avec

صورة عن الصفحة الأولى من تقرير ماسينيون، ونلاحظ بعض التصحيحات بخط يده.

فني هو بيير روش ــ تعرف أثناء دراسته الثانوية بهنـري مـاسبيـرو ابن غـاستـون مـاسبيـرو الاختصاصي في الدراسات المصرية الـتي أيقظت عند ماسينيون الاهتمام بالشرق.

وعند بلوغه سن السابعة عشرة كانت أول زيارة له الى الجزائر، وفي سنة ١٩٠١ ــ ١٩٠٣ بدأ الخدمة العسكرية في الفرقة الجامعية.

وفي سنـة ١٩٠٤ كـانت له أول رحلة الى مراكش، وفي سنة ١٩٠٥ اشتـرك في مؤتمـر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر حيث التقى جو لدزيهر.

فـي سنـة ١٩٠٦ عـين عضواً في المعهـد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة حيث ابتدأ بدراسات وأبحاث مصرية ولم يلبث أن أنصب

اهتمامه على الفن والحضارة العربية.

وفي سنة ١٩٠٧ اكتشف شخصية المتصوف الحسين بن منصور الحلاج حيث بقي كل حياته يدرس ويتمحص في شخصيته.

وفي سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ شارك في بعثة أثرية للعراق.

في سنة ١٩٠٩ قام بأبحاث عن الحلاج من خلال محتويات مكتبات اسطنبول وعودته الى القاهرة حيث قبل في جامعة الازهر كطالب في قسم الفلسفة.

وفي سنة ١٩١٢ ــ ١٩١٣ عين استاذاً في جامعة القاهرة لتدريس مادة الاصطلاحات الفلسفية.

وفي سنة ١٩١٤ ــ ١٩١٧ عين في قسم الصحافة في وزارة الخارجية حيث ربطته صداقة حميمة مع فيليب بريكو وهنري بنسو (Pansot)، ومن ثم طلب ارساله الى الجبهة الشرقية كملحق للمفوض السامي جورج بيكو (التقي لورنس العرب) وحاز على وسام صليب الحرب.

وفي سنة ١٩١٩ كلف بمهمة من قبل وزير الخارجية في حكومة كليمنصو لدراسة الوضع السوري فساهم في انشاء المملكة في سورية مع الملك فيصل.

وبعد حصوله على درجة الدكتوراه في رسالته الحلاج استمر ماسينيون في انتاجه ونشاطاته وأبحاثه، والمشاركة في المؤتمرات وانشاء الجمعيات في المشرق والمغرب حتى وفاته بنوبة قلبية عام ١٩٦٢.

وفيما يلي الوثيقة الموجودة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ضمن مجموعة الحرب التركية ١٩١٤ ــ ١٩١٨.

من صف ضابط ماسينيون الى السيد ج. موغراس معاون المفوض للجمهورية الفرنسية لأراضي العدو المحتلة في فلسطين وسوريا.

تقرير حول شروط الدعاية الفرنسية للفرق العربية ــ في ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧.

كيف قيّمت طريقة التدريب من وجهة نظر التأثير الفرنسي شعرت الفرق العربية من الضباط والجنود من البداية بتقارب بين الفرنسيين والانكليز في طريقة التدريب.

وخير دليل على ذلك، المحاولات المتكررة للوصول لهذا الاتفاق بين القواد المختلفين للوحدات بدءاً بقائد الفرق وانتهاء بالقائد العام.

وكان نتيجة هذه المحاولات، من وجهة نظر المنتدبين، الوصول الى تدعيم الناحية المعنوية للفرق، والتوصل الى قبول التوجيهات وجعلها مقبولة.

ان التعاون الفرنسي البريطاني لادارة الفرق العربية لم يلق أية معارضة مبدأية من الضباط والجنود.

وقد لمسوا الفائدة المادية والمعنوية التي سيحصلون عليها وقدروا بأن هذه الفائدة عائدة لهم، وأن انكلترا وفرنسا تعملان واجبهما في تحضيرهم العسكري الذي ينتظرونه.

وبصورة طبيعية وزعت الاختصاصات فالمشرف الانكليزي مسؤول عن تعليم الضباط العرب كيفية العمل الاداري، وصف ضباطه مسؤول عن العمل العسكري من حيث استخدام البندقية الانكليزية والبندقية الرشاشة ماكسيم.

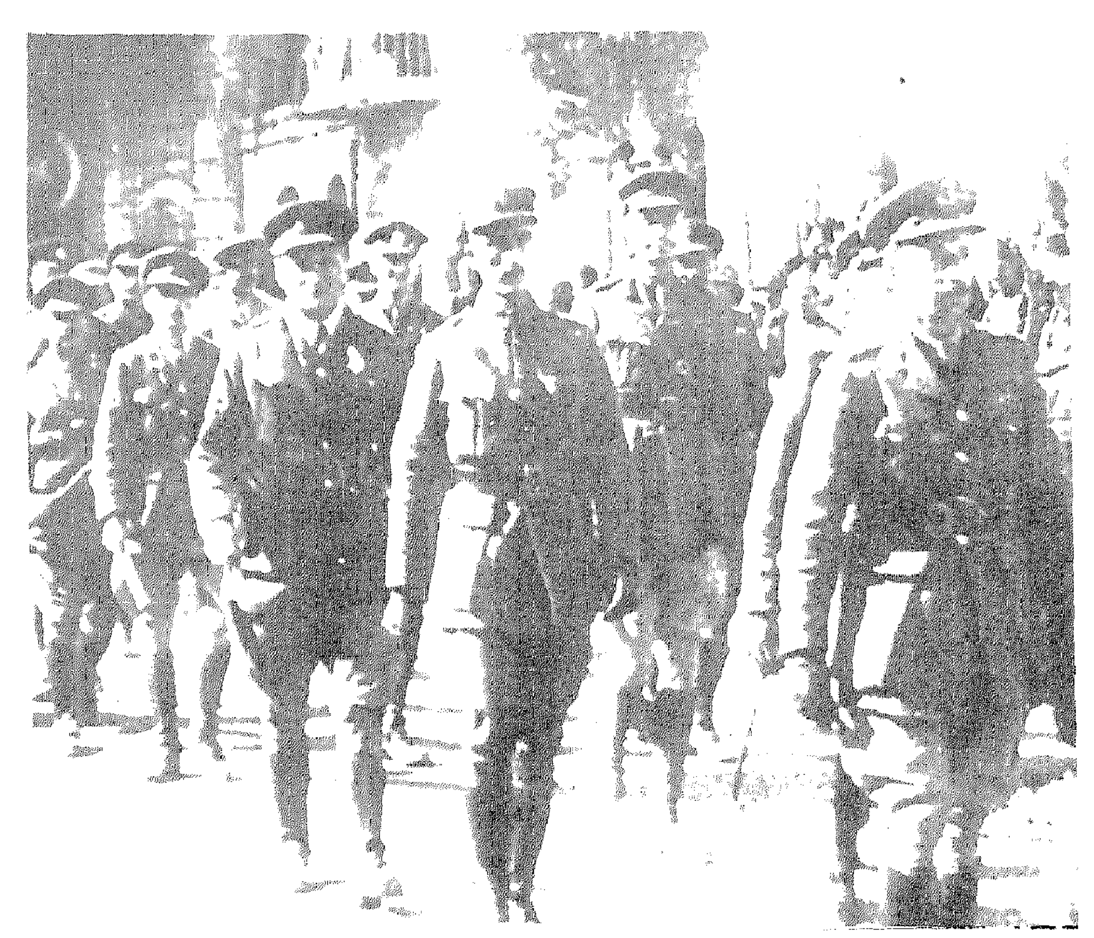
أما المشرف الفرنسي مع صف ضباط فكانت مسؤوليته تنشيط التدريب العسكري بالمعنى الفعلي.

ومن خلال متابعتي للتمارين العملية ومحادثاتي مع الضباط العرب تبينت أن المشرف الفرنسي استطاع أن يؤهل الفرق التي دربها على الحرب إذ نفذ الجنود تدريباتهم البدنية دون تردد كما أن الضباط تابعوا برنامجهم التدريبي لجمع الصفوف والخدمة الجماعية.

ويمكننا الاستنتاج من خلال محادثاتنا أن الجنود وصف الضباط لديهم الاستعداد لتفهم واستيعاب النظام الفرنسي النشط والمفهوم.

ان طبيعة الفرق العربية تتوافق مع النظام العسكري الفرنسي الذي يتفهم العلاقة بين القائد وجنوده ذلك أنه يشرح قبل أن يأمر بعكس النظام التركي السلبي والذي حاول الأتراك تطبيقه على المجندين العرب حيث تعارض مع حريتهم الفطرية.

والخلاصة أن الفرق العربية تقبلت طريقة التدريب المتبعة ذلك أنها توافقت وتكيفت مع النظام الفرنسي وخصوصاً في التحضير المباشر للحرب الحقيقية. والحقيقة اذا استمر انتشار الدعاية الفرنسية الحسنة بين الفرق العربية



دخول جيوش الحلفاء مدينة القدس سنة ١٩١٧ (ماسينيون مع لورانس العرب)، الرابع من اليمين.

تستطيع أن تعطي نتائج اجتماعية دائمة وجيدة عند الشعب العربي.

ـ كيف تفكر الفرق العربية بالدور الفرنسي في تحرير الشعوب العربية من النير العثماني؟

ان الفرق العربية تعرف تماماً، أن فرنسا تلعب دوراً في هذا التحرير دون محاولة التفكير في النتائج التي قد تحدث.

ومن الخطر التكلم أو التفكير في هذه النتائج، المهم هو التأكيد على مشاركة فرنسا في هذا التحرير.

□ مادياً:

ان صورة الدعم المالي والعسكري الفرنسي للحركة العربية هي صورة مشوشة في نظرهم. لذلك ففي كل مناسبة مؤاتية كنت أذكر بأن فرنسا تدفع منا صفة كل التجهيزات التي تقدمها الادارة الانكليزية للفرق.

□ ثقافياً:

ان الدور المهم لفرنسا في يقظة العرب على الحضارة الحديثة هو واقع معروف من الجميع، وليس بحاجة لبرهان. وهذا يدل على نبل فرنسا.

من المؤكد أن الناحية الاخلاقية والفكرية لفرنسا مهمتها العالمية لنشر الافكار الثقافية كالارساليات، وهي مقبولة ومعجب بها علناً. ولكن اذا أردنا تقييم كثافة امتدادها على عقول الفرق، نلاحظ أن مقدرتها على جذب المجندين العرب للقضية العربية الهاشمية بواسطة الدكتور حسن شرف تنقص بالصورة الآتية:

ـ مسيحيون، مسلمون، يهود:

(أ) المسيحيون العرب:

كانت اتصالاتي بالمسيحيين العرب قليلة ٦٤ من ٤٢٠.

منذ البداية لاحظ الضابط (Coulondre) أنه على الرغم من التعاطف التقليدي والارتباط

القديم للمسيحيين بفرنسا، تكاتفوا ضد قنصل فرنسا.

وقد كان للضباط الانكليز الوسائل للتحرك المباشر.

ولم يظهر من الفرق العربية أي تعصب ديني اسلامي. وقد أظهر المسلمون منذ البداية محبتهم وتعاطفهم مع الجنود المسيحيين.

وعلى الرغم من أن هؤلاء (المسيحيين) لم يتخلوا عن انعزالهم القديم كطائفة محرومة ولا عدم انجذابهم للجندية.

هذا النمط من التفكير برز بوضوح في الايام الاولى من بداية الباسهم الزي العسكري، وقد رفض المسيحيون عامة لباس الزي العسكري كما قبلوا بملء ارادتهم ان يستمروا في الفرق بصفة خياطين وحذائين وخدام وممارسة المهن الاخرى ماعدا بصفة جنود محاربين. وبعد انذار من المجلس الحربي وبعد هدنة أصبح تصرف الـ ٦٤ مسيحي أكثر تفهماً وقبلوا بلباس الزي العسكري والذهاب الى التدريب. ولكن كان علينا وعدهم بأننا لن نجبرهم على حمل السلاح. ولكن ما الذي سيحصل عندما نوزع السلاح للمسلمين فقط؟ وقد وُضع المسيحيون في موقف حرج ومعقد: كل مسيحي عربي قبل أن يصبح جندياً محارباً في الجيش العربي يحارب للأغلبية المسلمة التي حرمته في الماضي. وكل مسيحي عربي يبقى غير محارب في الجيش العربي فهو غير متعادل مع المسلم المحارب رفيق في السلاح، وهذا يؤثر تأثيراً عكسياً في غير مصلحته على حقوقه السياسية لأنه لم يخاطر بحياته في الجبهة.

(ب) العرب المسلمون:

لقد شغلت نفسي بصورة رئيسية بالحوار وبالعلاقة مع العرب المسلمين (٣٢٤ من ٤٢٠).

فالاغلبية ــ العظمى ــ منهم أتت من بغداد وكان حواري معهم سهلاً لاقامتي هناك من ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨.

الضباط:

١ ــ الكوادر. تطور تفكيرهم:

بالمراقبة النشطة للمشرف تغيرت عقلية



في القدس سنة ١٩١٨ في الدير الفرنسي ماسينيون مع المفوض الفرنسي جورج بيكو (يبدو جالساً إلى شمال الراهب).

الضباط. وضع السياسيون تدريجياً تحت تصرف جيش العقبة، أما الباقون من الكوادر فقاموا بواجباتهم الوظيفية الآنية.

من هذه الناحية لابد لي من الاشارة أن حياة المعسكر ضيعت الناحية الشاعرية عندما أبعد بعض الضباط الأكثر حيوية والذين كانوا ملفتين للنظر.

٢ ــ الجنود:

بعيداً عن الشعور الديني المرهف الدقيق هناك شعوران جماعيان أظهرا تلاحماً لهذه

المجموعة الاسلامية العربية خارج ساعات التدريب ذلك أنه يجبرهم على الانضباط عفوياً وقد كانت العقلية القبلية عند البدويين الشيعة لبلاد ما بين النهرين وعند العرب الاكراد وبصورة خاصة مدينة كركوك. وهنا أؤكد قليلاً على العرب الاكراد الذين لايتعدون الخمسين بالاضافة الى بعض صفوف الضباط الاشداء والممتازين المستعدين للثورة.

ــ البدويون الشيعة الاكثر أهمية: ليسوا شيعة فرساً هم عرب رحل وهم شيعة بالروح القبلية تحدروا من قبائل جند من الكوفة، مقربين من علي وحسين اللذين يجلونهما ويرتحلون من البصرة الى سامراء.

ان التجنيد الاجباري التركي وضع يده على عدد منهم بعد المراقبة العددية للفرق وتدقيق للاسماء المميزة لهم (عبد الرضا ــ عبد الحسين ــ عليان)، اذ وجد أكثر من سبعين بدوي شيعي كانوا جنود ترك بين الجنود المنتظمين في الفرق ــ وقد خانوا أنفسهم في ٤ تشرين الاول في نهاية اللقاء.

من شنافيه وعندما ابتدأ ٣١ شيعياً بدوياً غير نظامي بتحية الوفد الهاشمي أخذوا يرقصون



ماسينيون باللباس العسكري سنة ١٩١٨.

رقصتهم للحرب هذه الرقصة التي تخلد موت الحسين في كربلاء حيث تركه أتباعه يقتل دون مقاومتهم وبعد استشهاده حملوا السلاح وقتلوا في محاولة للانتقام. اعتمد الملك على هؤلاء بتأليف نواة جيش عربي، لأن انتقالهم المكره من الجيش التركي وثورتهم الداخلية ضد الاتراك عودتهم على حياة الحرب وعلى كره اسم عثمان وهم مضحون للمذهب الشيعي صادقون في دعم أهل البيت. وليس عندهم الكره لجيرانهم. أما باقي المسلمين وهم حوالي ٢٠٠ هم خليط فهم حوالي ١٥٠ عربياً من سكان المدن، ومن دم خليط من وادي دجلة والفرات ومن ديار بكر حتى الموصل وبغداد وعلى الاخص من الموصل.

وهناك خمسون من سوريا وفلسطين والاغلبية من فلسطين و١٩ من دمشق وهم جماعة بحاجة الى توجيه. وقلة عددهم واصلهم المختلط لا يسمح لهم بتكوين مجتمع. وهل يسمح لهم في المعسكر أن يدعوا للقومية العربية.

ان الشعور الثاني الجماعي الواضح والنابع من الفكر والمنطق والاكثر صدقاً ومثالية، هو

الشعور القومي العربي.

هنا هو سياسياً هاشمي ويتمثل بالملك: هو العلم الحالي للامة العربية لا أكثر ولاأقل، وليس المقصود الاخلاص الشرعي للشخص المتحدر من الرسول، ولا الاخلاص الاسلامي لحامي الكعبة، ولكن الرغبة في تأسيس أمة تحت راية الدولة العربية، أمة كغيرها من الامم المتمدنة. خارج كل المعتقدات والعصبيات مدعومة من قبل أصحاب التراث المشترك: الحضارة العربية، لأنهم يتكلمون اللغة العربية.

هل هذه القاعدة المثالية كافية للعيش سوياً حسب قول رينان: هل من الممكن أن يتعايش المسلم مع المسيحي واليهودي على الرغم من حرمان جدود هذه الشعوب في أيام الحضارة العربية. في الواقع كل الاحتمالات واردة.

ان الانسحابات الحديثة بين السوريين المسيحيين واللبنانيين الذين التحقوا بالقيادة العامة للشريف فيصل في العقبة تثبت أن الذهب والانجذاب الفكري لأمة عربية يمكن ان يكون لها تأثير على المسيحيين العرب في كل الاحوال هذا العامل الوحيد الذي جعل الخطباء المحاربين أن يغالوا وذلك بتحياتهم لبعثة الحجاز، والشيخ فؤاد الخطيب لخص جيداً في جوابه أهمية هذا الشعور المتأجج وأمانيه، هذا الشعور الوطني المستقل عن كل اعتبار أورابطديني اختار نشيداً من تأليف رفيق رزق سلوم وهو مسيحي عربي من حماه شنقه الاتراك ١٩١٥ ويبتدىء هكذا:

لـــن نـــنـــحـــنـــي لـــلـــذل
لانـــنـــا أبـــنـــاء قـــحـــطـــان

هذا النشيد يدرس منذ شهرين للفرق العربية في العقبة وتنشده الفرق من الثالث من تشرين الأول: هذا الشعور الوطني لا ينم عن أية عداوة لفرنسا، أما انكلترا فتساعد وتشجع على نموه وتحلم في نشره ووصوله لكافة العرب وافريقيا الشمالية ولذلك من الصعب مساندة كل هذا الحماس المثالي. ان العقلية القبلية المشار اليها عند البدويين ما بين النهرين هي غير موجودة وقابلة للتطبيق وممكنة في سياسة لامركزية لأنه يمكن مقابلة نفس العقلية عند البدويين السوريين ولكن بدرجة أقل. أما ثقل المدنيين العرب من سكان المدن فهي أقوى بكثير في سوريا من بلاد ما بين النهرين.

ـ اليهود العرب:

لا يوجد في الفرق العربية سوى ٣٢ يهودياً عربياً منتقى بعناية في بغداد للملك بواسطة الدكتور شرف.

منذ البدء تبنوا الطريقة العنصرية وبدلاً من أن يتصرفوا تصرفاً غير طائفي مثل المسيحيين بدون ضجة على وظائف مساعدة أعفتهم فردياً من الخدمة، وطالبوا بشدة «باللحم المذبوح للتغذية» ولم يظهروا أي اهتمام لحركة القومية العربية وكانوا فكرياً مغلقين.

وفي ١ أكتوبر (تشرين أول) أتى من الاسماعيلية حاخام صهيوني الى حد ما يذكر المدربين على الواجب الديني لهؤلاء اليهود ويوقظ آمالهم الوطنية، وحيث أنه كان عيد الشكر في ١ ــ ٩ تشرين الاول وقد توصل الحاخام الى قيادتهم للكنيست في الاسماعيلية على دفعتين.

أعتقد أن الملك قد خسرهم وأشك بقدرتنا تجنيد اليهود العرب وخصوصاً اليمنيين.

ومن المؤكد أن الصهيونية تشكل حالياً عازلاً لانتشار الملكية في سوريا رغم صعوبة انتشار الصهيونية في مصر، ولذلك اقترح أن ترسل فرنسا موظف تسوية لتوازن بين الديانات.

انتهى تقرير ماسينيون.

وبعد فان هذا التقرير لا يحتاج الى أي تعليق فهو يشرح ويقدم كل الادلةالتي تدين المستشرقين والاستشراق الذين يسخرون قواهم المادية لسحق العالم العربي والاسلامي بأية وسيلة.

وهنا لا بد لنا من الاشارة الى أن ماسينيون هو من المستشرقين المعتدلين الذين وقفوا الى جانب القضية الفلسطينية.

وعلى الرغم من ذلك نجد بأن وجه الاستشراق الكامن قد ظهر في تقريره ولعب دوره كأي مستشرق عادي.

●

الهوامش

(١) ر.أ.: البستاني، دائرة المعارف.
(٢) الاستشراق والمستشرقين، د. أدورد سعيد.
(٣) التبشير والاستعمار، د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدي.

هَل مَاتَ ستالين مَوتاً طبيعيًا؟
هَل اغتَاله رفاقه في القيَادة؟

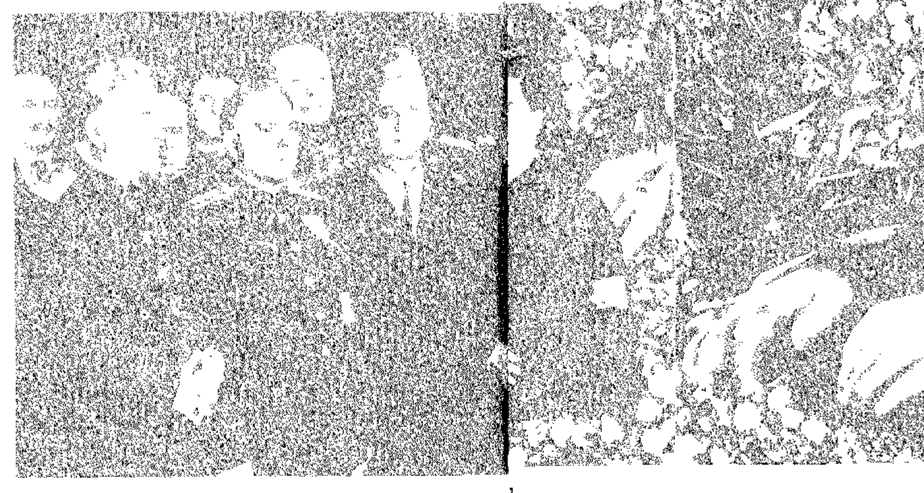
د. ريَاض العَالي

«اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ومجلس وزرائه يعلنون عن المصيبة التي أصابت حزبنا، بمرض رفيقنا ستالين الخطير، ففي ليل ١ ــ ٢ آذار، أصيب الرفيق ستالين، وكان في بيته في موسكو، بنزيف دماغي، وبلغ مناطق حيوية من الدماغ. وقد فقد الرفيق ستالين الوعي. وشل النصف الايمن منه، وفقد القدرة على الكلام. وحدثت في القلب والتنفس اضطرابات. وقد استدعيت أعلى الكفاءات الطبية لمعالجة الرفيق ستالين...

«وقد وضعت معالجة الرفيق ستالين تحت المراقبة الدائمة للجنة الحزب الشيوعي المركزية، والاتحاد السوفيتي. ولخطورة حالة الرفيق ستالين، قررت اللجنة المركزية للحزب والاتحاد السوفيتي أن تصدر منذ اليوم نشرات طبية يومية حول صحة جوزيف ستالين.

«واللجنة المركزية للحزب الشيوعي والاتحاد السوفيتي ومجلس الوزراء، والحزب نفسه والشعب كله يقدرون تماماً معنى مرض رفيقنا ستالين ومايحدثه عدم مساهمته، الذي قد يطول أو يقصر، في ادارة شؤون البلاد.

«واللجنة المركزية ومجلس الوزراء يعبرون عن قناعتهم أن الحزب والشعب السوفياتي، في هذه الايام العصيبة، يبرهنون عن الوحدة الوثيقة، والالتحام، ورباطة الجأش، ويضاعفون جهدهم لتوطيد الشيوعية في بلادنا، ويتحدون بقوة حول اللجنة المركزية والحكم في الاتحاد السوفياتي».



□ ستالين مسجى قبل الدفن، وأمامه القادة السياسيون والعسكريون، وبينهم كاغانوفيتش، الماريشال فوروشيلوف، بيريا، ومالنكوف، في الخلف ميكويان، خروتشيف، غروميكو. ويلاحظ غياب مولوتوف.

بهذا البيان الطويل الذي قرىء الساعة ٨,٣٠ الاول من آذار ١٩٥٣ من راديو موسكو، سمع السوفيات والعالم بالنبأ الذي لايكاد يصدق: وهو احتضار ستالين.

لقد أذيعت النشرات الطبية، في الاول والرابع والخامس من آذار، معطية بين الحين والحين بعض التفاصيل، ومشيرة الى العناية الفائقة بستالين، رغم التدهور المستمر في صحته...

السادس من آذار، في الساعات الاولى من الصباح، أذيع النشيد الوطني، ثم قرأ المذيع بصوت هادىء جليل، بياناً رسمياً طويلاً الى كل أعضاء الحزب، الى كل العمال في الاتحاد السوفياتي»:

«أيها الرفاق الاعزاء!

بحزن عميق فاجع تعلن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ومجلس الوزراء، وبيريزيديوم السوفيات الاعلى، الى كل العمال في الاتحاد السوفياتي، أن قلب جوزيف ستالين، رفيق لينين في السلاح، والمكمل العبقري لعمله، والقائد الحاذق، ومعلم الحزب الشيوعي والشعب السوفياتي، قد توقف عن الخفقان.

«ان اسم ستالين الخالد سيعيش دائماً في قلب الشعب السوفياتي وكل الانسانية التقدمية. عاشت عقيدة ماركس ــ انجلز ــ لينين ــ ستالين العظيمة».

تفسيرات متناقضة:

لم يمض يوم على اعلان موت ستالين، حتى عرف السوفيات قادتهم الجدد. ولأول مرة يعلن عن «قيادة جماعية» من مالينكوف، وبيريا، ومولوتوف. ولكن الاحداث تسارعت، فبعد ثلاثة أشهر يستقيل السيد شفيرنيك رئيس الدولة، حتى قبل أن يوقع على مرسوم تعيين مالينكوف رئيساً للحكومة.

وقد فتح تسارع الاحداث الباب أمام افتراضات لايمكن القول انها معللة أو انها غير منطقية، حول ظروف موت ستالين وتاريخه. فقد سرت شائعات، بعضها مضحك وفاجع (كالقول أن باب بيت ستالين خلع عنوة، أو أن بيريا رقص أمام جثمان ستالين المحتضر). وتوالت التفسيرات المتناقضة المحيرة.

فحسب إيليا أهرنبورغ، مات ستالين في ٢٨ شباط، اثر نزيف دماغي تلا مشادة حادة بين

APRÈS STALINE

LE FIGARO

...INE EST MORT
...SOIR A 19 H. 50

LE GÉNÉRAL CLARK
VA SE RENDRE EN INDOCHINE

ستالين وكاغانوفيتش. أما أفتوركانوف فيدافع عن نظرية «الموت الطبي البطيء». ويستعين بعضهم ببعض «كذبات» في البيان الرسمي عن مرض ستالين، لها دلالتها: «في ليل ١ ــ ٢ آذار، والرفيق ستالين في بيته في موسكو...» مع العلم أن ستالين لم يصب في الكرملين، ولكن في فيلا في بليجنيانيا، قرب كونتسيفو. وهناك مات. كذلك القول: «عدم المساهمة الذي قد يطول أو يقصر في ادارة الأعمال» «لإصابة مناطق حيوية من الدماغ»، بينما كان ستالين ميتاً مؤجلاً لبضع ساعات.

كما أن خروتشيف وابنة ستالين سفتلانا، رويا ساعات ستالين الأخيرة. ففي عام ١٩٥٩ قدم خروتشيف لأول مرة تفسيراً (ورد في الجزء الاول من مذكراته) للسفير الاميركي أفريل هاريمان. وقد قال له: كان ستالين يعتزل في الفيلا وقد أغلقت عليه كل الابواب التي لا تفتح الا الى الداخل. وهكذا يوحي أن ليس ثمة اغتيال، اذ كان يستحيل دخول أحد الى الفيلا.

في المذكرات، أمر مستغرب. فقائد حرس ستالين الشخصي، فلاسيك، بدل أن يخبر مباشرة رئيس مكتبه الخاص، الجنرال بوسكربيشيف، أكثر الناس اخلاصاً لستالين، والمسؤول مباشرة عن قائد الحرس، أخبر رأساً أعضاء البريزيديوم الاربعة، الذين تغدوا مع ستالين في ٢٨ شباط. ويؤكد خروتشيف «أن ستالين لم يكن يعاني من شيء». غير أنهم وجدوه في ٢ آذار الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، محتضراً.

قدم الى الفيلا، اذن، مالينكوف، وبيريا، وبولغانين، وخروتشيف واصطحبوا معهم الماريشال فوروشيلوف، وكاغانوفيتش. وشكل الستة حرساً لستالين، ليلاً نهاراً، يسهرون على حالته الصحية.

أما سفتلانا ابنة ستالين، التي دعاها خروتشيف في ٢ آذار، لتكون قرب والدها، فتصف احتضار ستالين وموته في كتابها: «عشرون رسالة الى صديق» الذي كتب في الاتحاد السوفييتي، عام ١٩٦٣، وطبع في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧. ولا تقدم أي تفسير، وتوحي بأنها تصف الحدث كما وقع.



□ ستالين مع ابنته

ولكنها تذكر أن بيريا، غداة موت أبيها، أفرغ الفيلا، وسرح الخدم، ونقل ضباط حرس ستالين الخاص الى الأرياف، وأعدم اثنين رمياً بالرصاص، وهكذا تغلف الاسرار موت ستالين.

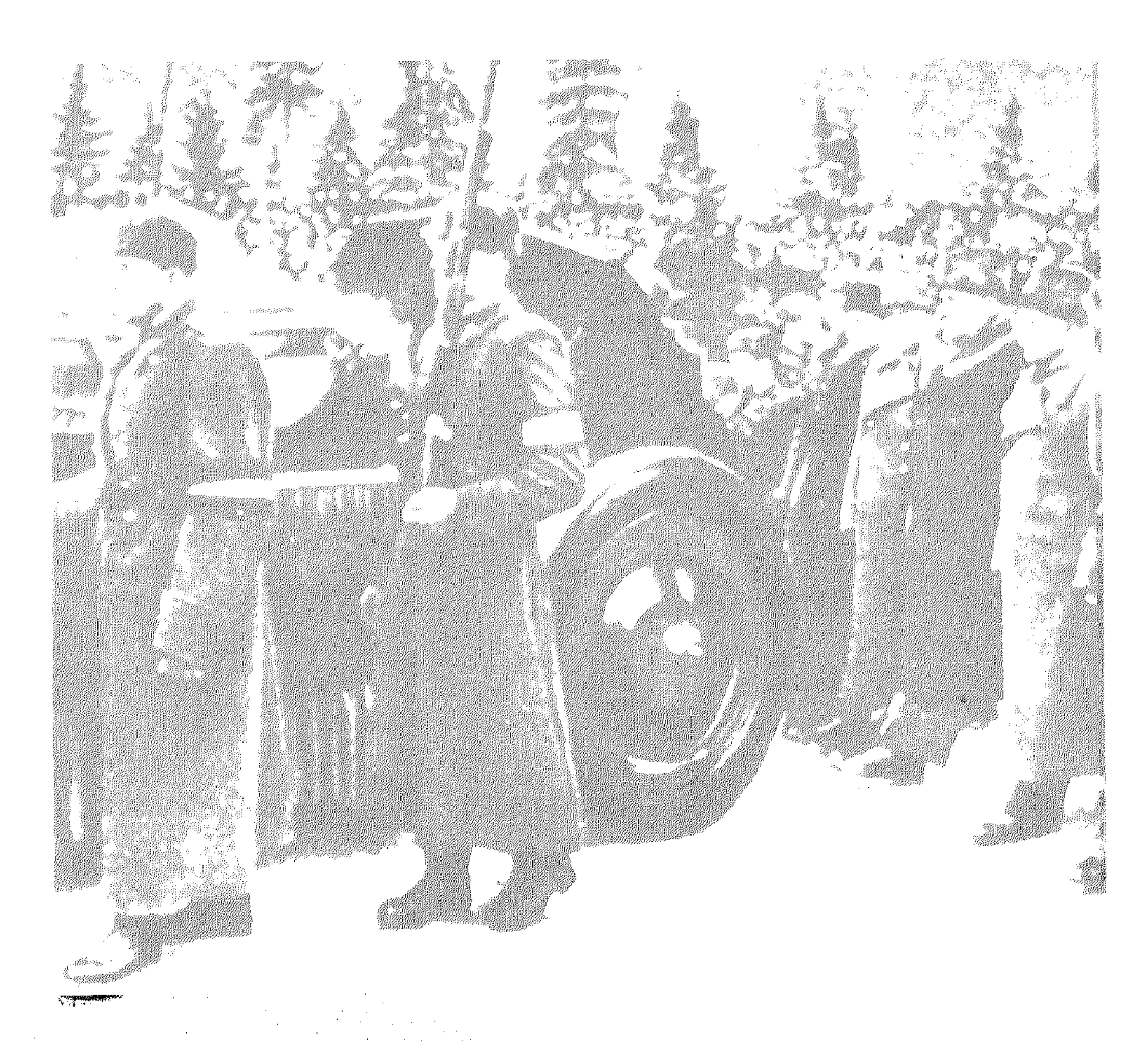
تحضير غزو أوروبا:

يطرح دائماً السؤال التالي: هل كان ستالين يعد لحرب عالمية ثالثة يجتاح فيها أوروبا؟ وما هي الدلائل التي تسمح بطرح السؤال؟

عام ١٩٥١، كانون الثاني، وخلال اجتماع في الكرملين، ضم كل قادة الأحزاب الشيوعية ووزراء دفاع دول أوروبا الشرقية الاشتراكية، تقرر غزو أوروبا بجيوش حلف فرصوفيا، خلال الفترة ما بين ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥. وكانت نسبة النجاح مشجعة، خلال تلك الفترة، حتى في رأي ستالين.

ولكن القيادات العليا العسكرية السوفياتية لم تشاطر ستالين هذا التفاؤل. بل أظهر بعضهم رفضاً قاطعاً للمشروع. وكان بين من أيدوا رأي ستالين بوسكربيشيف، وبولغانين، وخروتشيف، وبوسبيلوف، وسوسلوف. وكان بين المتحمسين من العسكريين شتيمنكو رئيس هيئة الاركان العامة.

ومن الدلائل تعيين الماريشال كونييف قائداً لقطاع ترانسكارباتي الحربي، ــ نقطة القفز



المتازة من أجل أي هجوم على يوغسلافيا ـ. ولكن عدداً من كبار القادة حكموا على مشروع ستالين بالتهور، ووقفوا وراء جوكوف الذي رفض المشروع.

ويقال ان ثمة بغضاً بين جوكوف وكونييف منذ الحرب العالمية الثانية، حين عينٌ كونييف قائداً للقوات التي دخلت برلين، وان ستالين حاول استغلال هذا البغض المتبادل، ولكنه كان يبقي على التوازن بينهما.

وقد أعد كونييف ملفاً لنقد مشاريع غزو أوروبا عرضه رئيس الاركان العامة الجنرال شتيمنكو، وكانت الانتقادات قد وجهها القادة الذين يؤيدون جوكوف. وقد ألح كل هؤلاء القادة على أن يقيل ستالين شتيمنكو.

ولكن عزل شتيمنكو ظل سراً ولم يعلن عنه الا في عيد «يوم الجيش» في الكرملين (٢٧ شباط ١٩٥٣)، وأعلن عن خلفه الماريشال سوكولوفسكي.

□ نعش ستالين على عربة مدفع، يحف به القادة الكبار، في الطريق الى ضريح لينين

لم يشأ ستالين أن يجعل الجيش يدفع ثمن قرار القادة العسكريين. ولكن الشهرين الأولين من عام ١٩٥٣، تتابعت الاعتقالات، والنفي، والاعدام. يصف الكاتب كورزويومالابارت في مذكراته عن رحلته الى الاتحاد السوفياتي، الجو المخيم في موسكو بقوله: «كان الناس في موسكو يمشون في صمت. الكل، رجالاً وتساء، وجوههم صفراء، والعيون يمور فيها الشك، في الترامواي، يرفع الرجال أحياناً أعينهم ويتحدثون بصوت خافت. كان زمن الخوف والشك المتبادل».

على أن المسألة التي دعيت قضية «الأطباء» ـ «القتلة بثياب بيضاء» ـ هي التي ستجعل نهاية المرحلة مأساوية.



□ الجماهير تنتظر دورها لزيارة الضريح. على الواجهة اسمان: لينين ــ ستالين

مؤشرات:

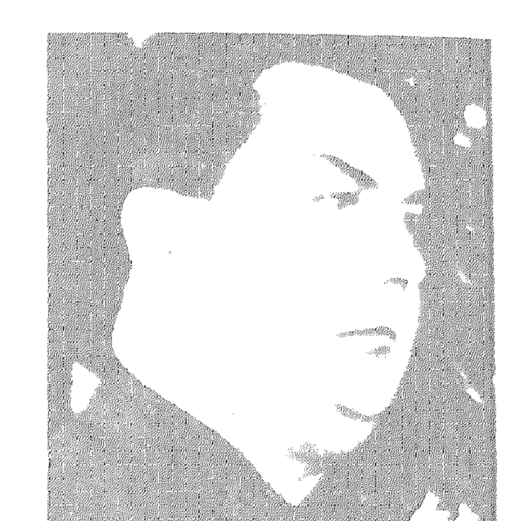
كان ستالين منذ ١٩٥٠ يريد أن يكون حامي «الديموقراطيات الشعبية»، وأن تكون على مثال الاتحاد السوفياتي. وقد قاد فيها عمليتي تطهير. الأولى ضد «القومية البورجوازية»، والثانية ضد «الكوزموبوليت». وضرب، دون رحمة، القادة «القوميين» وعين مكانهم «ستالينيين». مما يسمح بربط الدول الاشتراكية ربطاً محكماً بالاتحاد السوفياتي. وفي الاتحاد السوفياتي، جرت عام ١٩٥٢ عملية تطهير كبرى في الحزب، في المؤتمر التاسع عشر (من ٥ ــ ١٤ تشرين الأول ١٩٥٢)، الذي فصله عن المؤتمر السابق ثلاثة عشر عاماً. وأعاد تنظيم سلطات الحزب العليا من أساسها، ليجعل الحزب: «الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي».

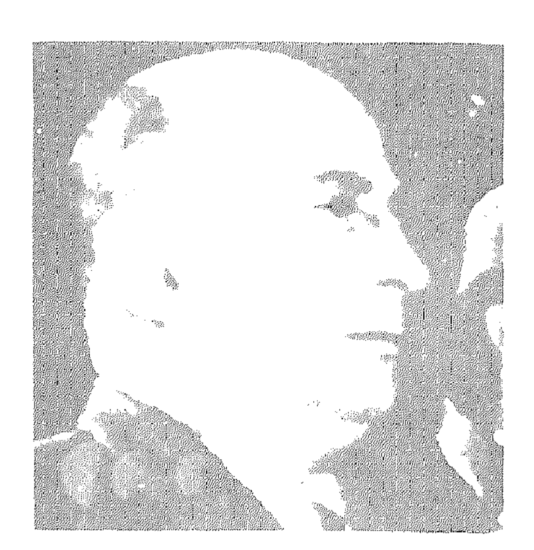
وتحول المكتب السياسي الذي كانت تسيطر عليه «القيادة القديمة» الى البريزيديوم المكون من ٣٦ عضواً، سماهم ستالين [٢٥ أعضاء دائمون ــ ١١ احتياط]. يضاف اليهم مكتب مصغر. وقد غرق «القدماء» في خضم الجدد. أما المكتب، فغدا مع مرور الايام السلطة الرئيسية، بينما البريزيديوم أصبح أقل أهمية.

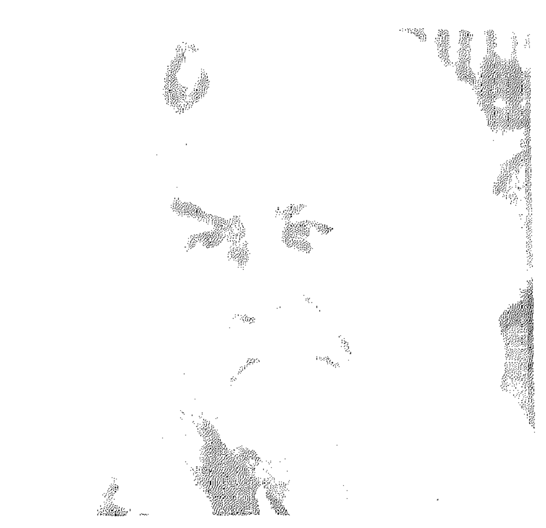
كان ستالين يسعى الى الاستعاضة عن «القدماء» بتكنوقراط اداريين ينفذون ارادته، ولا يفكرون في عزله. وبدا أن الوقت حان لتصفية مساعدي ستالين القدماء، قبل أن يزيحوه عن منصبه. وقد سمح التطهير لستالين بالتخلص منهم، وتحديد النخبة القائدة. ولهذا بدأت المعارضة الصامتة بين صفوف «الضحايا».

ولكن سياسة ستالين الخارجية بدأت تنحو منحى جديداً، ففي كتيب له صدر عام ١٩٥٢ بعنوان: «مسائل الاشتراكية الاقتصادية» في الاتحاد السوفياتي، يوجه الكلمة التالية الى الرفاق: «بعض الرفاق يؤكدون أن الظروف الجديدة العالمية بعد الحرب العالمية الثانية تجعل الحروب بين الدول الرأسمالية غير حتمية... هؤلاء الرفاق مخدوعون. يرون الاحداث الخارجية تطفو على السطح ولا يرون القوى العميقة».

وهكذا لم يتراجع ستالين أبداً عن نظرية لينين حول الحرب الحتمية مع العالم الرأسمالي،







□ خلفاء ستالين، مالينكوف، بيريا، بولغانين

لسحقه نهائياً: وهذا مطمح الماركسية الرئيسي.
في هذا الوقت كان التصلب الاميركي تجاه قضية كوريا، وخاصة بعد احتلالها الى الخط ٣٨°، يفرض على ستالين زيادة عدد المحاربين لاعدادهم لأي معركة أوروبية.

المؤامرة الأخيرة:

الثالث عشر من كانون الثاني ١٩٥٣ نشرت البرافدا (جريدة الحزب الشيوعي السوفياتي اليومية الرسمية) على يمين رأس الصفحة الأولى، عنواناً مثيراً: «جواسيس أشقياء، وقتلة في أقنعة ساتذة طب». ولخص ناطق رسمي من وكالة تاس المسألة كما يلي:

جرب الأطباء المجرمون، أن يلغموا صحة الشخصيات العسكرية السوفياتية، بوصفها خارج القدرة على ممارسة مهماتها، وبالتالي، القضاء على حماية بلادنا. لقد حاولوا أن يوقفوا نشاطات الماريشال فاسيليفسكي، والماريشال غوفوروف، والماريشال كونييف، والجنرال شتيمنكو، والأميرال ليفتشنكو، وغيرهم. ولكن توقيف الاطباء حال دون تحقيق غايتهم الدنيئة ومخططاتهم المجرمة.

«بين المساهمين في العمل الاجرامي البروفسور فوفسي، والبروفسور فينوغرادوف، والبروفسور كوغان (م.ب) والبروفسور كوغان (ب.ب) والبروفسور رايغوروف، والبروفسور فلدمان، والبروفسور ايتنغر، ومايوروف وغيرهم.

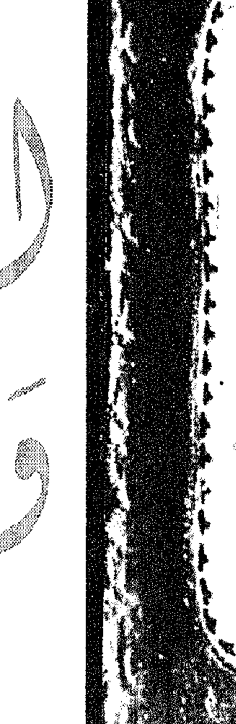
«ومعظم أعضاء هذا الفريق المجرم، مرتبط بالمنظمة العالمية اليهودية البورجوازية القومية «جوانت»، التي أنشأتها المخابرات الأميركية، بحجة مديد المساعدة ليهود البلدان الاخرى. وقد صرح فوفسي أنه يتلقى التوجيه بـ«تدمير الكادر القيادي في الاتحاد السوفيتي» بوساطة طبيب من موسكو، اسمه شيميليوفتش، والقومي البورجوازي اليهودي المعروف ميكوبل، باسم المنظمة».

في هذا الجو المحموم، توالت الاشاعات حول موت ستالين. ومايزال هذا الموت، في نظر الكثيرين، سراً من الاسرار. هل هو موت طبيعي؟ هل هو موت بطيء بأدوية كانت تعطى له؟ هل هو اغتيال؟ لا أحد يعرف الحقيقة حتى اليوم.

●

المؤتمر السادس لتاريخ العلوم عند العرب





أحمد عبيدلي

شهدت جامعة حلب وللمرة السادسة انعقاد المؤتمر السادس لتاريخ العلوم عند العرب في منتصف نيسان هذا العام. وخصص المؤتمر جلساته لمناقشة مسألة الترجمة عند العرب قديماً وحديثاً مع الاطلال على آفاق المستقبل. وكانت لفتة مهمة من المعهد ألا يقتصر اهتمامه على البحث في تاريخ الترجمة في عصورها السابقة، وإنما أن يحقق مقارنة بين شروط بروز الترجمة قديماً وحديثاً، وأن يناقش كيفية ضبط الترجمة والنقل من اللغات الأخرى بحيث تشكل مصدر ثراء وقوة للعرب بدل أن تضحى وسيلة من وسائل الغرب للسيطرة الثقافية والحضارية بعد أن قضى الوطن العربي على أشكال عديدة من السيطرة العسكرية والسياسية.



افتتح المؤتمر في ظل تصاعد الاحداث في الارض المحتلة، وقد انعكس في كلمات الافتتاح حيث تمت الاشارة الى الجانب الحضاري في تلك المعركة حيث تحاول اسرائيل أن تقضي على الوجود الحضاري العربي، وأن تلبس ذلك بلبوس العلم والوثائقية وذلك بمحاولة استباق العرب في محاولتهم لتسجيل تراثهم، وتقوم بعد ذلك بنسبته لنفسها. ولذلك تم التأكيد على أهمية الاسراع بانجاز ذلك بأسرع وقت وعلى أفضل مايكون على يد المؤسسات العربية المختصة.

أبحاث المؤتمر:

توالى انعقاد جلسات المؤتمر ليومين متتاليين شارك فيها مجموعة من المختصين العرب وتمحورت حول عدة مواضيع على النحو التالي: «الترجمة من الفارسية في العصر العباسي الأول» للدكتور محمد ألتونجي و«المراكز الثقافية المهتمة بالترجمة والتي أثرت في الحضارة العربية» للخور فسقفوس برصوم يوسف أيوب و«السريان ونقلهم التراث العلمي اليوناني إلى الحضارة العربية» للأستاذ صلاح الدين الخالدي و«الألفاظ والمصطلحات السريانية في الطب العربي» للدكتور محمد زهير البابا و«مسلمة المجريطي وترجمة كتاب تسطيح الكرة لبطليموس» وهو بحث بالانكليزية للدكتور ريتشارد لورش و«أضواء على حياة وإنتاج قسطنطين الافريقي وغيره ممن تولى ترجمة الكتب الطبية» للحكيم أحمد بن ميلاد و«نتائج الترجمة ــ التوسع في مسألة تحول نطاق الجدل البحث الى الاهتمام بالبحث العلمي والفلسفي» للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا والمجموعة النباتية الطبية مابين ديسكوريدس وابن البيطار» للدكتور محمد نذير سنكري و«من مشاكل الترجمة والتعريب في مصطلحات الطب» للدكتور طه اسحق الكيالي. و«حنين بن إسحاق شيخ المترجمين «للأستاذ محمد علي الزركان و«الترجمة: بداياتها ــ أدوارها وتوجهاتها ــ وبعض نتائجها» للأستاذ شحادة كرزون و«مساهمة الرقة وديار مضر (حران والرها) في الترجمة العربية» للأستاذ عبد الحميد حمد وأثر حركة الترجمة والابداع في اللغة العربية للأستاذة سليمى محجوب و«المعاجم الفلكية المعاصرة للدكتور عبد الرحيم بدر ومصطلحات العلوم البحرية عند العرب بين الأصالة والتعريب» للدكتور فايز الداية و«طب العيون في عصر الترجمة» للدكتور نشأت الحمارنة و«في حلب، خزائن كتب عامرة وعلماء عباقرة وأثر ذلك في حركة الترجمة» للأستاذ محمود حريتاني، وحركة الترجمة العلمية وتوسعها في العصر العباسي «للدكتور محمد مروان السبع و«دور الترجمة في النهضة العربية الحديثة» للأستاذ فريد جحا و«تراثنا والترجمة» للأستاذ كمال شحادة و«الترجمة ودورها في إشاعة المعرفة للدكتور شوقي شعث ومأزق الترجمة الحضاري «للدكتور غانم هنا و«هل تستطيع الترجمة العلمية حالياً القيام بالدور الحضاري الذي قامت به عصور الازدهار العربي» للأستاذ شحادة الخوري و«أهمية الترجمة حضارياً ودورها في نشر الوعي العلمي العربي بعد الخطوة الأولى نحو الابداع والابتكار» للدكتور محمد سويسي. ولقد قدم البحثان الاخيران باسم المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم.

تظهر هذه المجموعة الواسعة من الابحاث التنوع والشمول في موضوعات المؤتمر الذي شكل انعقاده، مناسبة موفقة لاعادة بحث أمور قديمة جديدة تمتلك خواصها الملحة. لقد بحثت مسألة الترجمة العربية في نشأتها المبكرة وإلى أي مدى كانت تعبر عن حاجة موضوعية بعد أن بلغ العرب مستوى من الحضارة والرقي بحيث بات من الضروري أن يستوعبوا كل ما أنتجته الانسانية سابقاً تمهيداً لهضمه وايصاله الى ذرى جديدة وترد هنا محاولة فصل الدور العباسي عن الدور الأموي ومايتطوي عليه ذلك الايحاء من أن الدولة الاموية لم تكن لتنزع الى العلم والترجمة بسبب عدم اهتمام العرب بالعلوم، وانما كانت الدولة العباسية بحكم استيعابها للعناصر الاسلامية من غير العرب، ولذلك السبب بالذات، أكثر اهتماماً بالنقل والتعريب. ويوضح الاستاذ شحادة الخوري بعض هذه الجوانب فيقول «لم يخرج أجدادنا منذ أربعة عشر قرناً من قفارهم



فناء مجلس بيت قديم من القرن الثامن عشر من منطقة باب قنسرين بحلب

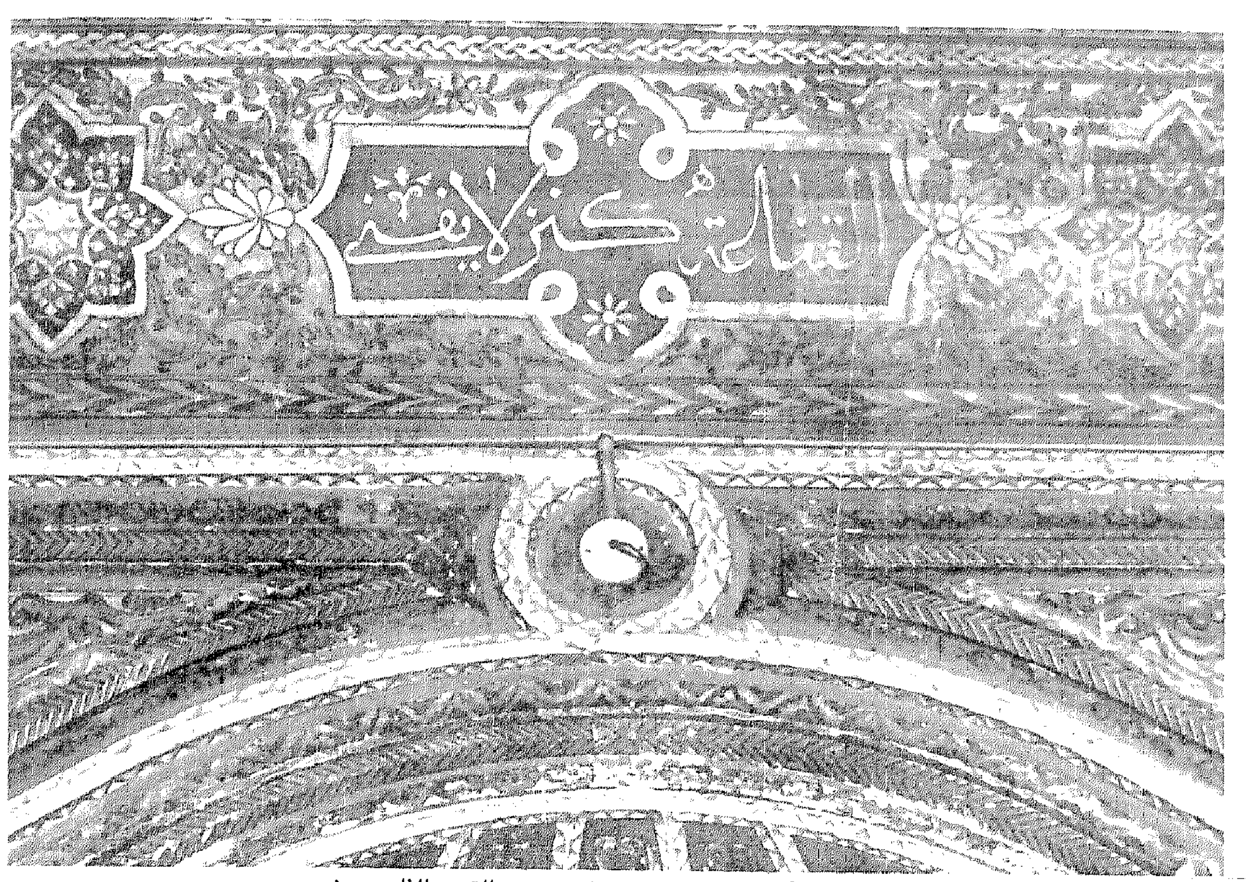
وبواديهم وقراهم إلى العالم خالي الوفاض، بل حملوا معهم هدى وحقالهم وللناس كافة ولغة واسعة سعة الارض... لغة تجلت قرآنا وقصيدا وحكمة... ومعارف هي عطاء البيئة والزمن... لم يشعر العرب آنذاك بضعف أمام الواقع الجديد ولم تأخذهم الدهشة ولم يحسوا غضاضة في تعلم أساليب الادارة والحكم...بدأت الترجمة أيام بني أمية... وخطت في أيامهم أولى خطواتها «... أما في زمن العباسيين فقد ازدهرت الترجمة لأن العرب وجدوا أن الحضارة لا تقوم إلا على العلم فمالوا إلى طلبه».

وأثيرت في المؤتمر قضية انتماء العناصر الاسلامية المختلفة الاصول الى التراث العربي. وفي الحقيقة لم تكن مثل هذه القضية لترتدي بالنسبة للعرب بالرغم من الصراعات التي عاشتها الدول الاسلامية العربية المتعاقبة بين التيارات القومية المختلفة، لو لم يقم المستشرفون (بكسر الراء) والمستشرقون (بفتح الراء) بمحاولة تقزيم الحضارة العربية الاسلامية بمجملها عبر تقزيم عنصرها الاول وهم العرب ومحاولة تبني نتاج بعض الاقوام على حساب النتاج الاجمالي بكامله ومحاولة اظهار كون اشتراك بعض العناصر الغير العربية والاوروبيين في بعض الجوانب الموغلة في القدم، هو السبب في نبوغ تلك العناصر كما يجري الامر حين يتحدث عن دور الناطقين باللغات الاندو أوروبية أو دور العناصر ذات المنشأ الآري. وهكذا يجري تصفية الحضارة الاسلامية وتفتيتها اذا ما صعب النيل منها كاملة.

ويرد الدكتور التونجي فيقول «هذا وانني أعتبر كل ما ألف في العربية عربياً، وان كان المؤلفون غير عرب. فما كتبه ابن سينا والخوارزمي والخيام والزمخشري والفيروز ابادي والطبري بالعربية عربي، لا يحق للفرس أو لغير الفرس نسبته اليهم. فلو لم ينضووا تحت لواء العروبة والاسلام لما عرف هؤلاء ولما عرف علمهم ولو لم تكن العربية هي السائدة لما برزت مؤلفاتهم. فان هم أعطوا قرائحهم فان تاريخنا أعطاهم شهرة ولغة يكتبون بها، وحضارة يتلاءمون بها. فلو أن مؤلفاً عربياً كتب بالفارسية الا يتسابقون الى تبني هذا المؤلف، ونسبته الى حضارتهم؟ ومازلنا نرى الصراع مستمراً بين أفغانستان وايران وروسية على الطبري وابن سينا والبيروني. كل أمة تحاول نسبتهم اليها، وهم ما برعوا ولا عرفوا الا في أراضي عربية وبلغة عربية... ويمكن الاحتفاء بهم عن طريق منافعهم للانسانية فقط».

ولقد شهد المؤتمر نقاشاً يستهدف الا يقع العرب في ما وقع فيه الاوروبيون فيه من تعصب ومركزية أوروبية ازاء الشعوب والقوميات الاخرى. ويبقى أن العرب حينما أسسوا دولتهم الممتدة من أطراف متعددة وشملت شعوباً وقوميات متنوعة تمازجوا معهم وتزوجوا منهم وأعطوهم وأخذوا منهم وشكلوا دولة عربية إسلامية تستوعب كل هذا المزيج، وإن أتاحة مثل هذا الجو من التسامح القومي والديني والحضاري يعتبر انجازاً هاماً لم تستطع أوروبا أن تحققه حتى وهي في أوج امتداد هيمنتها على أجزاء واسعة من العالم بسبب تعصبها القومي وازدرائها للعناصر غير الاوروبية. ولربما لم يكن من الصدف أن يتميز البرتغاليون والاسبان بمقدرة تفوق بقية الاوروبيين في التمازج والالتحام مع سكان المناطق التي استولوا عليها، فلربما عاد ذلك الى طبيعة الاحتكاك مع نمط الحكم العربي للاندلس.

ان العناصر الغير عربية التي شاركت في النهضة العلمية والحضارية تشكل جزءاً من كل التجربة العربية الاسلامية الانسانية، وهي تشكل أفضل ما قدمته شعوب المنطقة جمعاء عبر القرون من أجل المساهمة ضمن المسيرة



زخرف بسقف أحد بيوت التجار بحلب، يعود للقرن الثامن عشر

البشرية. وليس من الصحيح أن تتم التجزئة للعناصر المكونة لتلك التجربة أو عكس مقاييس القرن العشرين على أوضاع تلك الفترة. وهذا يضمن اتاحة الفرصة لبقية الشعوب من فرس وأفغان وأفارقة وبربر بأن يعتزوا ويفتخروا بأدوارهم ضمن تلك الحضارة وذلك بما يحفظ وحدتها الموضوعية، وفي ذلك فائدة لتحقيق نهوض وتقدم حتى في عصرنا الراهن. ونستحضر بهذا الصدد دعوة العالم الباكستاني الحائز على جائزة نوبل للفيزياء الدكتور عبد السلام لانشاء رابطة تضم العلماء العرب والمسلمين لتحقيق التقدم العلمي بشكل مشترك في قرننا الراهن.

وشهد المؤتمر مناقشة موضوع التراث العربي وكيفية التعامل معه. وأفرد الاستاذ كمال شحادة بحثه «الترجمة وتراثنا» للحديث عن هذا الموضوع فأكد في البداية بأن «التراث ليس شيئاً مضى وانقضى وانما هو يعيش مع الجماهير في حياتهم اليومية ويوجه كثيراً من سلوكهم وله وجود نفسي ووجداني فيهم جميعاً، فهو طاقات مختزنة تتجلى بشكل أو بآخر في حياتنا كما تتجلى في أفكارنا وتصرفاتنا، الا أنها طاقات مشوشة مضطربة تتطلب التنظيم كما تتطلب التطهير من الرسوبات والانحرافات المشوهة لها». وبعد أن استعرض تيارات ثلاثة تتمحور حولها الاتجاهات الباحثة في موضوع التراث حدد نقاطا رآها ضرورية للالتزام بها حين بحث موضوع احياء التراث فقال مؤكداً ضرورة «تحليل التراث العربي وتوضيح ظروف نشأته وتطوره وتحديد مساره ودوره في الحضارة الانسانية. وتحليل الواقع العربي وتوضيح مدى تأثيره بالجديد من جهة، ومدى تغلغل المفاهيم والمعطيات التراثية فيه من جهة أخرى، وابراز النواحي الايجابية الموجودة في التراث بشكل موضوعي وتوجيهها لتكون مؤثرة في نفسية الجماهير تزيل منها العقد وتدفع بها الى الثورة الاجتماعية والعلمية للقضاء على الواقع الفاسد. والعمل على الاستفادة من ايجابيات التراث وكنوزه وتطويرها لتكون

صالحة كأساس نبني فوقه من الحضارة المعاصرة بما ينسجم مع هذا الاساس ويرتبط به».

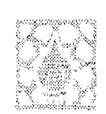
توصيات المؤتمر:

خرج المؤتمر بعدة توصيات شملت التأكيد على ضرورة انشاء دار للترجمة لتشجيع وتنشيط حركة الترجمة. وأن تخصص الجامعات جوائز مالية سنوية للترجمة واستثناء جوائز التأليف والترجمة والعمل الفكري من قانون التفرغ الجامعي. ودعا المؤتمر الى العناية بتعليم اللغات الاجنبية في جميع مراحل التعليم واقامة دورات تدريبية مكثفة للعاملين في دوائر الدولة والعناية الدائمة بالمصطلحات العلمية وتفريغها ومراجعتها واغنائها بما يتلاءم مع حركة التطور العلمي والتعاون في هذا المجال مع مكتب تنسيق التعليم في الوطن العربي في الرباط ودعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الى احداث مؤسسة عربية للتأليف والترجمة والنشر والتوثيق تعمل بقدرة كبيرة على نقل أمهات الكتب والمراجع في العلوم والمعارف المختلفة الى اللغة العربية والتأكيد على ضرورة دعوة الجامعة المنظمة الى اقامة المعهد العربي للترجمة لاعداد المترجمين الاكفياء لتغطية حاجة الهيئات العربية والاسلامية والدولية ولاسيما أن اللغة العربية قد اعتمدت لغة رسمية في سائر المجالات والهيئات العلمية.

وأوصى المؤتمر بأن يتم التعاون مع وزارة الثقافة والارشاد القومي في اصدار الكتب التراثية العلمية مترجمة الى اللغات الاجنبية الاخرى لإطلاع العالم على ماقدمه العرب للحضارة الانسانية. وأوصى باعادة ماسبق طبعه من المخطوطات ونفدت نسخة وأصبحت نادرة وذلك ليتسنى للباحثين في شؤون التراث العلمي العربي الاطلاع عليها. وتم التأكيد على التدريس باللغة العربية في مختلف مراحل الدراسة بما في ذلك الجامعات العربية وفي كافة الاقطار العربية وذلك لتعميم العلم والمعرفة. واتخذ المؤتمر توصية خاصة باحداث مؤسسة للترجمة والنشر في القطر العربي السوري تتولى ترجمة الكتب والمؤلفات المختلفة عبر اللغة الاجنبية وبالاخص مايرفد منها التعليم العالي والدراسات العليا.

واتخذت توصيات أخرى تمثلت في التوصية بدعم مؤتمر حلب الدولي من قبل المؤتمر ودعوة اليونسكو من قبل المعهد للتعاون في حفظ المخطوطات. ومن أجل تحسين عمل المؤتمرات دعي الى الاعلان المبكر عن المؤتمر السابع وأن يقدم ملخص شفهي من أبحاث المشاركين وذلك وقت المشاركة وأن تمدد فترة الانعقاد للمؤتمرات الى ثلاثة أيام بدلاً من يومين.

وبعد فلقد شكل المؤتمر ونقاشاته وتوصياته محطة هامة استحضر فيها الماضي بعظمته وشروط نجاح تجربته في الترجمة، ونوقش فيه الحاضر بايجابياته ونواقصه وتم النظر للمستقبل على ضوء ذلك بحيث يجعل العرب من كل ذلك وسيلة لخدمة حضارتهم ونهضتهم المعاصرة، ويجعلوا من ترجماتهم لنتاج الانسانية وسيلة لخدمة مسيرتهم التي ستنعكس بدورها في دفع عجلة البشرية جمعاء.



معارض على هامش المؤتمر

اقيمت على هامش المؤتمر السادس لتاريخ العلوم عند العرب سبعة معارض، الاول للكتب العلمية والتراثية المترجمة والثاني لصور من حلب القديمة والثالث ضم معهد التراث ومطبوعاته في الصحف والمجلات العربية والاجنبية والرابع لآلات رفع الماء العربية والخامس للادوات الفلكية القديمة والخامس السادس للمخطوطات والسابع للمنتجات الحرفية التقليدية.

ولقد انتقينا من معرض صور حلب القديمة والذي أقامه الدكتور احسان شيط والدكتور جان كلود دافيد. وفيما يلي بعض من ذلك المعرض.

المدافن الأثرية في بديع بنت سعود

دولة الإمارات العربية المتحدة

قسم الأبحاث والتوثيق

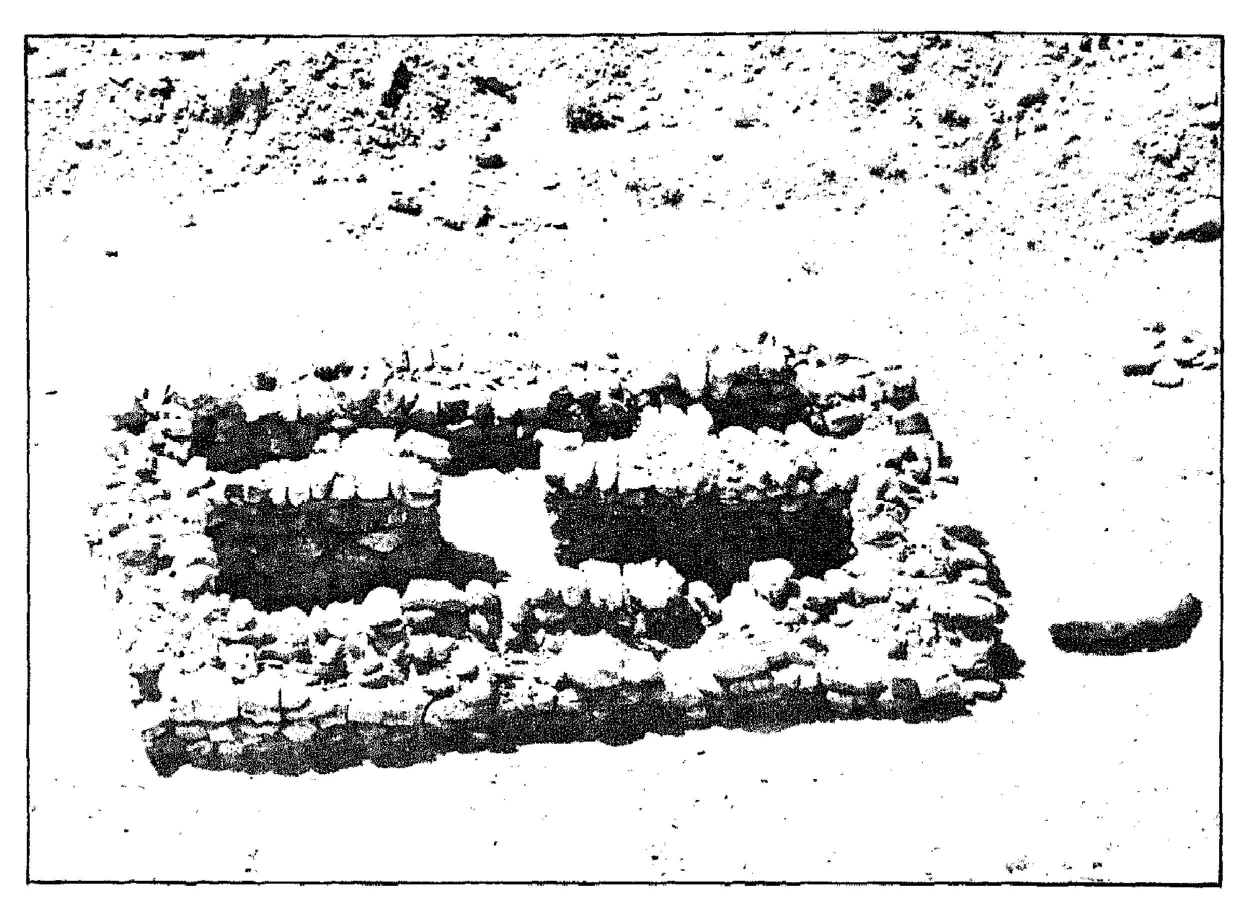
كشفت هذه المجموعة من المدافن في عام ١٩٧٠، عندما قام أحد المهندسين العاملين في منطقة بديع بنت سعود والذي كان آنذاك يبحث عن مصادر جديدة للمياه، باجراء حفريات غير مشروعة في الروابي الأثرية، ولما قام سكان المنطقة بأخبار إدارة الآثار والسياحة التي كانت منشأة حديثاً، فقد قامت البعثة الدنماركية العاملة في واحة البريمي آنذاك بايعاز من الادارة المذكورة باجراء كشف موقعي، استطاعت على ضوئه أن تحدد القيمة الاثرية لأكوام الحجر المنتشرة على قمم وسفوح المرتفع، والتي تمثل مدافن للموتى يزيد عددها على الأربعين.



يقع جرن بنت سعود على بعد ١٢ كم إلى الشمال من هيلي، والموقع عبارة عن مرتفع من الصخور الرسوبية طوله ٨٠٠م، وأعرض نقطة لاتتجاوز ٢٠٠م، أما ارتفاعه فيتراوح بين ٥٠ ــ ٦٠م تقريباً. لقد اتخذ سكان أبوظبي الأوائل هذا المرتفع ليكون مقبرة لموتاهم، كما حدث في جبلي حفيت والعوهة المحاذيين لواحة البريمي في جهتيها الجنوبية والشرقية على التوالي.

اختارت البعثة الدنماركية بعد الانتهاء من كشفها الموقعي الذي أجرته على هذه المجموعة من المدافن بعض هذه الأكوام، فأجرت التنقيب فيها حيث استطاعت خلال موسمين متتاليين من تنقيب ستة منها واستناداً الى هذه التنقيبات فقد أعطت البعثة المذكورة تاريخاً وهو ١٠٠٠ ــ ٨٠٠ سنة قبل الميلاد معتمدة في ذلك مقارنة المخلفات الاثرية المكتشفة في هذه المدافن مع اخواتها المكتشفة في لورستان في غرب ايران.

ان المدافن التي اختيرت من قبل البعثة تقع في مناطق متفرقة من المرتفع. اذ يقع اثنان منهما على قممه (٧,٣) والمدفن الثالث (رقم ١٨)



بديع بنت سعود ــ المدفن رقم (٣) المستطيل الشكل.

يقع في السفح الغربي والثلاثة الباقية (١٥، ١٦، ١٧) تقع عند أقدام السفوح الشرقية.

وفي شهر شباط ١٩٧٣ قامت إدارة الآثار والسياحة بايفاد بعثة محلية لاستئناف التنقيب في هذه المدافن حيث نقب المدفن رقم (٢) الواقع على قمة المرتفع. وفي موسم ١٩٧٤/١٩٧٥ نقبت عشرة مدافن أخرى وفيما يلي وصف لأهم المدافن المنقبة لحد الآن:

١ ــ المدفن رقم (٣):

مدفن مستطيل الشكل يقع على القمة الوسطية للمرتفع طوله ٨م وعرضه ٦م، ذو جدار طولي داخلي يتوسطه مدخل يقسم المدفن إلى قسمين طوليين. وهو المدفن الوحيد الذي وجد بهذا الشكل.

بني المدفن من الحجارة غير المهندمة بقياس ٢٠ × ٢٠ × ٥٠ سم. وقد استعمل الرمل الممزوج بالطين كمادة لربط الحجارة. وترتفع جدرانه ما بين ١/٢ ــ ١م، ولم يعثر على دلائل تشير إلى وجود مدخل خارجي. وقد كشفت داخل هذا المدفن عدة هياكل عظمية تالفة حيث وجد الموتى مع أسلحتهم التي تشمل أربعة خناجر وحربة برونزية واحدة.

وقد عثر خارج المدفن على كمية من العظام ممزوجة بالمكتشفات الاثرية المختلفة منها إناءان برونزيان وفأس يدوي دقيق الصنع مشابه لبرونزيات لورستان، اضافة الى مجموعة من رؤوس السهام البرونزية والخرز المعمول من الصدف والعقيق وصفائح رقيقة من الذهب. أما الكسر الفخارية فقليلة اذا ما قيست بكسر الأواني المحززة المعمولة من حجر الستيتايت. ويشير وجود هذه الكسر الى أن اناء واحداً على الاقل كان يدفن مع كل ميت.

المدفن رقم (٧):

يقع في أعلى نقطة في الطرف الشمالي وهو أكبر قبور هذا الجزء من المرتفع. ومما يجدر الاشارة إلى ذكره هو أن هذا الجزء ينفصل عن

بقية أجزاء المرتفع الأخرى بواسطة جدار فاصل وربما كانت للمدافن المبنية داخل هذا الجزء أهمية أكثر من بقية المدافن.

لهذا المدفن شكل دائري بقطر ٧,٢٠ م مقسماً من الداخل إلى ستة لحود بواسطة جدارين متجهين شمال ــ جنوب في وسطهما فتحتان متقابلتان. لقد استعملت الحجارة المحلية في بناء هذا المدفن كما هي الحالة في المدافن الأخرى.

أما المدخل الرئيسي فلم يعثر على بقاياه. لكن وجود تساقط في الجدار الشمالي من المدفن وآخر في جداره الجنوبي يشيران الى احتمال وجود المدخل في أحد هذين المكانين.

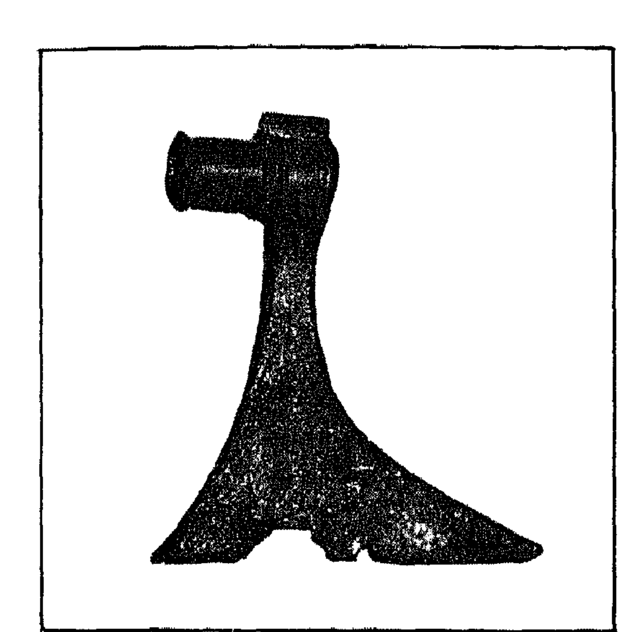
وفيما يخص المكتشفات الأثرية فلم يعثر فيه سوى على كسرة واحدة من الفخار إلى جانب كسر قليلة من أواني الستيتايت المحززة وقسم قليل من الخرز المعمول من الصدف والستيتايت والعقيق مع كسرتين من البرونز.

المدفن رقم (١٨):

أنشىء هذا المدفن على السلسلة الممتدة من المرتفع من جهته الغربية على ارتفاع ١٠ م من مستوى السهل المجاور. وقد جرى التحري فيه بسبب اكتشاف كسرة من الفخار تبدو وكأنها من عصر جمدة نصر في حدود ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهذا المدفن مدور وصغير لم يبق له أثر سوى مدماك واحد غير كامل مبني بالاحجار المحلية المقطوعة بخشونة. وقد عثر فيه على بعض الكسر الفخارية تعود جميعاً الى جرة مخروطية واحدة وكسرة واحدة من الستيتايت ــ أما العظام فقليلة عثر عليها داخل المدفن وخارجه.

المدفن رقم (١٥):

يقع عند أقدام السفح الشرقي للمرتفع وهو دائري الشكل له ملحقان وعدد من مواقد النار. ويختلف عن المدفنين ٣ و٧ من حيث له حجرة دفن واحدة ترتفع جدرانها بمقدار متر واحد وقد استعملت الحجارة الكبيرة (٧٥ × ٥٠ سم) في الاجزاء السفلى من الجدران. بينما استعملت في الاقسام العليا الحجارة الاصغر حجماً. أما الفجوة الوسطية التي يوصل اليها



فاس برونزية عثر عليها في أحد مدافن بديع بنت سعود.

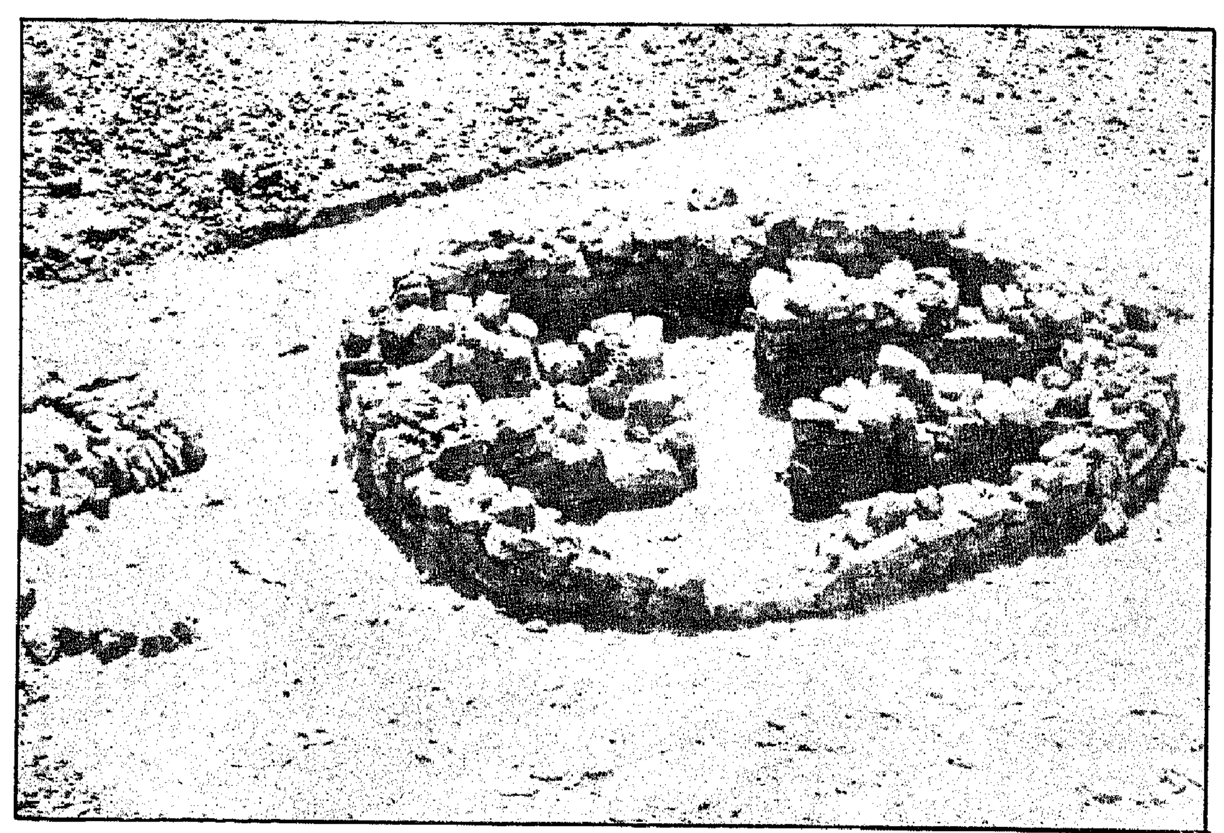
عن طريق ممر مواجه للجنوب والمخصصة للدفن فلم يعثر فيها على أي شيء يذكر بينما عثر خارج المدفن على كسرة واحدة من الستيتايت ترجع إلى الالف الأول قبل الميلاد مع دبوس واحد من البرونز عثر عليه عند المسطبة المجاورة وكسرة واحدة من حجر الصوان المشغول.

المدفن رقم (١٦):

يقع في السهل المجاور عند أقدام الطرف الشمالي الشرقي للمرتفع وهو مبني من الحجارة الكبيرة غير المهندمة بشكل دائري قطره مع جدرانه الخارجية حوالي ١٠ م وارتفاعه الحالي ١,٥٠ م. أما الفجوة الوسطية فكمثرية الشكل ضيقة حيث كانت مملوءة بالرمال. أما الممر المؤدي إليها فقد انشىء في الطرف الجنوبي كما جرت العادة وهو مسدود بواسطة حجارة كبيرة تساقط قسم منها من الجدران. لم يعثر في هذا المدفن سوى على صدفة واحدة فهو خال من المكتشفات الاثرية ومن المخلفات العظمية.

المدفن رقم (١٧):

يقع على بعد ٢٥ متر جنوب شرق المدفن رقم ١٦ وهو دائري الشكل كذلك قطره ١٠ م وارتفاعه ١,٥ م ــ ٢ م دعم جداره الخارجي بالحجارة وبارتفاع متر واحد وقد استعملت الحجارة المقطوعة بخشونة في بنائه حيث ربطت



بديع بنت سعود ـــ المدفن رقم (٧) لاحظ بقايا المدفن الصغير في أقصى اليسار.

ببعضها البعض بشكل جيد.

لم يعثر في داخل المدفن على أي شيء يذكر اما في خارجه فقد عثر على صدفة واحدة وكسرة صغيرة من العظم فقط.

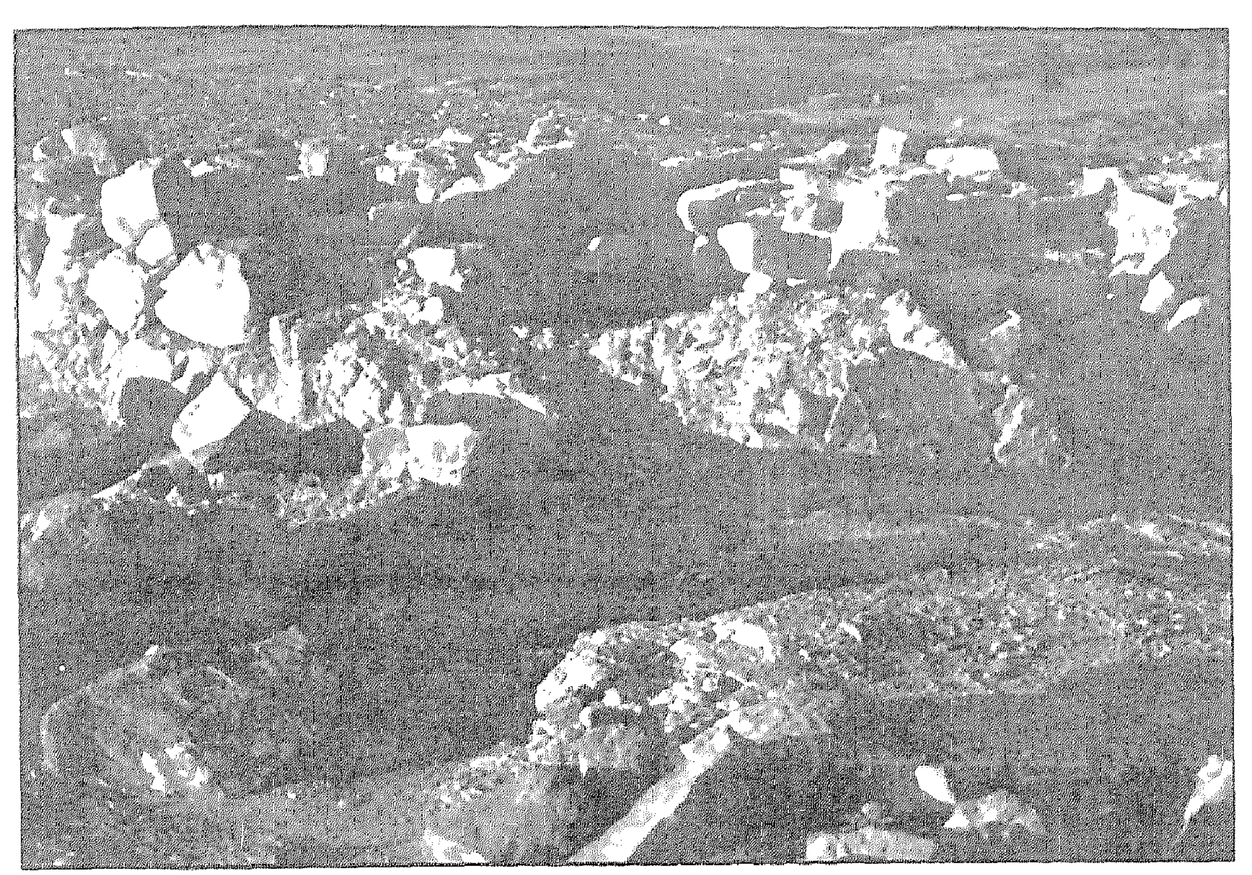
المدفن رقم (٢):

يقع على قمة المرتفع مجاوراً للمدفن المستطيل من جهته الجنوبية الشرقية وهو عبارة عن كوم واطيء من الحجر كشف بصورة كلية وتبين بأنه دائري الشكل قطره ٦ ـــ ٦,٥ متر يحتوي على خمسة لحود (غرف دفن) استعملت جميعاً لدفن الموتى حيث وجدت الجماجم البشرية مبعثرة مع العظام في جميع أجزاء هذا المدفن بشكل لا يفهم منه الطريقة التي اتبعت في الدفن.

بني المدفن بالحجارة غير المهندمة وقد روعي في اختيار الجانب الاحسن من الحجارة كي يكون وجهاً خارجياً وقد استعملت الحجارة الكبيرة في المدماك الاسفل. أما الجدران الداخلية فقد بنيت من الحجارة الاصغر حجماً، وقد استعمل الطين الممزوج بالرمل في ربط هذه الحجارة، ولم يعثر على بقايا للمدخل لكون الاجزاء العليا من الجدران تالفة، ولم يتبق منها سوى ما لا يزيد عن ٨٠ سم. ورغم عدم العثور على بقايا للمدخل، لكنه على الاغلب كان مواجهاً للشرق حيث يؤدي الى الممر الوسطي الذي يقسم المدخل الى قسمين رئيسيين وقد كشف في هذا المكان عن دكة كان يرتقى بواسطتها الى المدخل.

أما المكتشفات فقد عثر على أغلبها في المنطقة المحيطة بالمدفن من الخارج وهي مجموعة من كسر الأواني الحجرية المحززة مزخرفة بأشكال هندسية متعددة مع مجموعة من الكسر الفخارية، وكمية من رؤوس السهام البرونزية يتراوح عددها نحو عشرين سهماً ونصل لمدية واناء صغير من البرونز، ومجموعة من الخرز المعمول من مواد مختلفة كالصدف والعقيق. وعثر كذلك على قرط ذهبي واحد.

أما أهم المدافن التي نقبت خلال موسم ١٩٧٤/ ١٩٧٥ فهي:



المدفن رقم (٢) في بديع بنت سعود (١٠٠٠ ق.م).

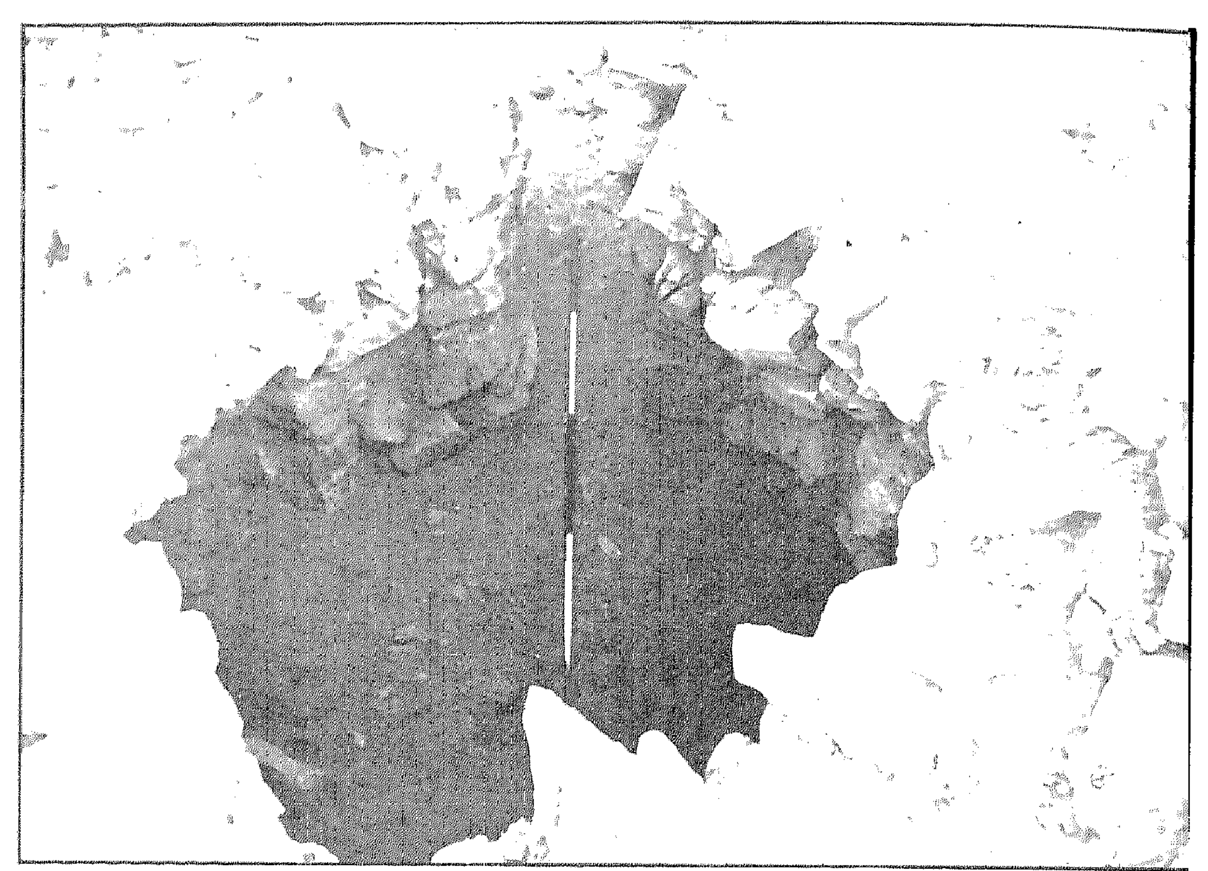
المدفن رقم (٤):

يقع على قمة المرتفع في منتصفه تقريباً مجاوراً للمدفن المستطيل رقم (٣) من جهة الشمال. وهو دائري الشكل قطره ٨ ـ ٨,٢٠ م مبني بالأحجار المحلية الخشنة، وقسم من الداخل إلى ستة أقسام متناظرة. أما جدرانه المتبقية فترتفع متراً واحداً عن سطح الأرض الصخرية. وقد كان داخله مملوء بالأحجار المتساقطة منها أحجار كبيرة مسطحة تشير إلى أن المدفن كان مسقوفاً في الاصل وربما جزئياً. وقد عثر بين هذه الاحجار وأسفلها على مجموعة مهشمة من العظام الادمية حيث لم يعثر على هياكل عظمية كاملة، وعثر بين مخلفات هذه العظام على بعض الهدايا أغلبها تمثل أواني أو أغطية حجرية محززة اضافة الى قسم قليل من الخرز. وقد لوحظ في لحدين من لحود هذا المدفن وجود تكرار في الدفن، اذ عثر على احجار مسطحة تعلوها طبقة من العظام تشير الى أن السكان دفنوا موتاهم وغطوهم بهذه الاحجار لتكون أرضية جديدة يستفاد منها في الدفن مرة أخرى.

ومما يجدر ذكره أن المكتشفات التي عثر عليها خارج المدفن أكثر بكثير مما عثر بداخله. فقد عثر خارج المدفن على كمية كبيرة من رؤوس السهام البرونزية وأواني حجرية محززة وأغطية من نفس النوع وأواني فخارية عميقة بمصبات مكشوفة وختم واحد منبسط يحمل نقشاً غائراً يمثل غزالاً على الأغلب، اضافة إلى مجموعة من الخرز. أما العظام المنتشرة خارج المدفن فقد عثر على قسم كبير منها وعثر بينها على قرط ذهبي واحد مشابه للقرط الذهبي الذي عثر عليه داخل المدفن رقم (٢).

المدفن رقم (٢٠):

يقع في أحد أخاديد الطرف الشرقي للمرتفع وهو عبارة عن كوم مخروطي الشكل قطره الخارجي ثمانية أمتار وارتفاعه متران. بني بالأحجار المشابهة لأحجار المدافن الأخرى. وهو



أحد مدافن جمدة نصر (رقم ٢٠) في بديع بنت سعود.

يشابه من حيث شكله وطريقة بنائه المدفن ١٦ و١٧، لهذا المدفن حجرة دفن واحدة بشكل دائري قطرها من الاسفل متران ومن الاعلى متر ونصف المتر، اذ تضيق كلما ارتفعت الجدران الى الاعلى. ويؤدي الى هذه الحجرة ممر مواجه للجنوب بعرض معدله ٤٣ سم. أما المكتشفات التي عثر عليها في الداخل فهي جرة فخارية واحدة مع ثلاث كسر صغيرة لعظم مهشم. ولهذه الجرة رغم كونها غير ملونة أهمية كبيرة لأن شكلها العام يذكرنا بجرار جمدة نصر المكتشفة في مدافن جبل حفيت والتي تعود إلى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد.

المدفن رقم (٢١):

يقع في السفح الشرقي بين المدفنين ١٩ و٢٠ وهو عبارة عن كوم بيضوي من الاحجار المتراكمة طوله ١٢ متر وعرضه ١٠ متر اذ يعتبر من أكبر مدافن الطرف الشرقي. المدفن مزدوج ذو حجرتين متجاورتين لكل منهما مدخل مستقل مواجه للجنوب. فالحجرة الغربية (أ) دائرية غير منتظمة قطرها ١,٦٠ متر عثر بداخلها على كمية لابأس بها من الخرز الطباشيري الاخضر مع جرة فخارية كاملة ترجع الى عصر جمدة نصر أما العظام فشبه معدومة.

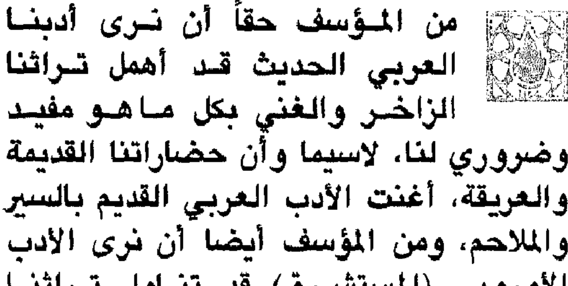
أما الحجرة الشرقية (ب) فهي أخفض من مستوى الحجرة الغربية، عثر بداخلها على مجموعة كبيرة من الخرز منضداً بشكل قلادة منه الطباشيري الاخضر الكروي الشكل ومنه العقيق المعمول بأشكال قرصية ومنه البلوري. وقد عثر كذلك على جرتين فخاريتين من عصر جمدة نصر كذلك، أما خارج المدفن فقد عثر على جرة صغيرة لها أربع عراوى استعملت في التعليق.

أما بقية المدافن (١١ و١٢ و١٣ و١٩ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥) فهي شبيهة بالمدافن السابقة ولم يعثر فيها سوى على القليل جداً من المكتشفات الاثرية بسبب تعرض أغلبها الى أعمال السرقة والتخريب التي جرت في العصور القديمة.

«الزير سالم أبو ليلى المهلهل»

للباحث في شؤون التراث ــ شوقي عبد الحكيم

عبد الباقي شنان



من المؤسف حقاً أن نرى أدبنا العربي الحديث قد أهمل تراثنا الزاخر والغني بكل ما هو مفيد وضروري لنا، لاسيما وأن حضاراتنا القديمة والعريقة، أغنت الأدب العربي القديم بالسير والملاحم، ومن المؤسف أيضا أن نرى الأدب الأوروبي (المستشرق) قد تناول تراثنا القديم أكثر مما تناوله كتابنا وباحثونا وأدباؤنا.

وبذلك ليس غريباً ان تكون معرفتنا محدودة بملاحم وسير أجدادنا تلك الملاحم والسير التي كتبت بدم وعرق شعوبنا العربية القديمة، تلك الملاحم والسير التي انعكست في «النصوص الفولكلورية الشعبية»(*) والتي تعبر عن طبيعة الانسان العربي في السهول والبوادي والصحراء والجبال، وهو يبني السدود العالية كسد مأرب، والقلاع والحصون المنيعة كحصن «صهيون» والاهرامات الاسطورية، والمدن العامرة كمدينة «بابل» والحدائق والجنائن الغناء، كجنة «عاد» و«الجنائن المعلقة» والأسوار العظيمة التي وقفت كالسد في وجه الطوفان المعادي حينما أراد الأعداء غزو المدن وتخريبها.

وتعبر ايضا عن القوافل العربية وهي تمخر البحار المتلاطمة والصحاري والكثبان وعن المجتمعات الأكثر تطوراً من المجتمع البدوي «التي قامت على اطراف الجزيرة العربية... فازدهرت في اليمن تلك المملكة التي أتت منها ملكة سبأ ــ فيما تقول الأساطير ــ وذلك عدة قرون قبل الميلاد. ثم تأسست امارات في العهد الروماني مثل امارة الانباط في البتراء شرق البحر الميت، وامارة زنوبيا في تدمر غرب الفرات»(١)، وتحكي عن أسرار صناعة الحديد واسرار ترويضه وتحويله الى «آلات زراعية ومطارق وأزاميل حديدية»(٢) وعن أسرار استخراج الأرجوان الذي ورد في بعض النصوص العبرية (Argmn) والنصوص الأشورية (Arhamanu)(٣). وعن قصص الحب الخالدة وروح التضحية والشجاعة والبسالة والكرم وعن المراثي والمعلقات الشعرية، وعن الأفراح والطرب والموسيقى، وعن الحروب الطويلة والفواجع التي وقعت بين القبائل والمدن، كتلك التي وقعت بين «الغساسنة واللخميين»(٤) في العهد البيزنطي.

إلا أنه رغم كل هذا التقصير والاهمال ظهر في العقدين أو الثلاثة الأخيرة ما يبعث على

يقع كتاب شوقي عبد الحكيم «الزير سالم أبو ليلى المهلهل» في ١٥٢ صفحة متوسط المعجم، عن دار ابن خلدون ــ بيروت ١٩٨٢/٢/١.

التفاؤل، يتمثل ذلك ببروز نخبة قليلة من أدباء وباحثين طالعونا بأعمال شجاعة وضعتهم في الطليعة.

وهذه المجموعة الصغيرة نظرت الى تاريخنا العربي نظرة موضوعية مخالفة لنظرة المدرسة العربية، وقد تمردت هذه النخبة الطليعية على اسلوب التلقين وبذلك فقد كان لها أن تكشف أسرار تاريخنا من خلال تراثه الشعبي مستهدفة بأعمالها وبحوثها «إعادة التبصير بالتراث — وصنوه — التأريخ — من منطلقات» الوجدان العربي الشعبي والثقافة والعلوم العربية. متبنية في أعمالها المتقدمة في الفكر والمنهج إعادة بناء التراث الذي تفككت أوصاله وتمزقت أطرافه وغطى الغبار الزمني جوهره.

والباحث شوقي عبد الحكيم وجه لامع من هذه النخبة الطليعية، له أكثر من عشرين مؤلفاً في هذا المجال منها «أدب الفلاحين» و«فولكلور العالم العربي» و«ساره وهاجر» و«الحكايات الشعبية العربية» والسيرة التي نحن بصددها وهي «الزير سالم أبو ليلى المهلهل».

وهنا يتولى شوقي عبد الحكيم مهمة نفض غبار القرون الطويلة عن ملحمة «الزير سالم أبو ليلى المهلهل» حيث يتكشف له أن بطل هذه الملحمة «فلسطيني» عاش في «مدينة بئر سبع الفلسطينية بالأرض المحتلة» ويؤكد ذلك بقوله «الزير سالم أبو ليلى المهلهل صياد السباع البري، الذي صاحب طفولته انشاء مدينة بير شبأ»، ويشير النص الأصلي ان الزير بعد أن نجا من أحابيل الجليلة زوجة أخيه «الملك كليب» طلب من أخيه «صيوان كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع»[٥] كذلك ما جاء في النص الأصلي حين هزم الزير سالم الجيوش التي هاجمت مدينة بيروت، حيث عظم أمره بعد ذلك الانتصار عند ملك بيروت «حكمون» فقربه واكرمه وقال له: «تمني علي أيها الأمير والسيد الخطير فمهما طلبت أعطيناك اياه بدون تأخير فطلب الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر.. وطلب ان يجهز له سفينة ويرسله الى مدينة حيفا ومن هناك يسير وحده الى مرج بني عامر محل اقامته لأن نفسه اشتاقت الى أهله وعشيرته».

وتلتقي معظم القصص التي تناولت ملحمة الزير سالم، سواء منها ما كتب بالشعبية أو بالفصحى، بأن الزير سالم هو أحد ابناء ربيعة.

ونشير هنا الى ان ربيعة ابن «لعدنان» و«عدنان» من «رجال القرن السادس قبل الميلاد»[٦] والعدنانيون ينسبون الى عدنان، وقد يسمون «العرب المستعربة»[٧]. كانت منازلهم في تهامه والحجاز ونجد... وينقسم العدنانيون الى قسمين كبيرين: ربيعة ومضر. ومن أشهر قبائل ربيعة: «عنزه» و«نمر» و«وائل» و«بكر» و«تغلب»[٨] وغيرها من القبائل، وإلى بني تغلب يعود «الملك كليب» وأخوه الزير سالم.

وبنو تغلب هم نفسهم بنو كلب «فمن حمير ملوك بني قضاعة، وبني كليب بن وبره — وهم الكلبيون أو التغلبيون، سكان الثغور الفلسطينية، والذين ينتمي اليهم بطلا سيرتنا، كليب وأخوه المنتقم لاغتياله الزير سالم».

ونشير هنا الى ان بني كلب: هم كلب بن وبره من قضاعة من القحطانية. والنسبة اليهم كلبي. كانوا ينزلون في الجاهلية «دومة الجندل — الجوف» وتبوك وأطراف الشام. والجماعة التي نزلت اطراف الشام نزلوا سهل البقاع و«حوارين» — من جبل الشيخ — وجبل قلمون ووادي التيم وغوطة دمشق. وقد نسب اليهم سهل البقاع ودعي «بقاع كلب». ومنهم «بنو عامر» الذين نزلوا المرج الفلسطيني المنسوب اليهم والمسمى باسمهم «مرج بني عامر»[٩].

يوظف شوقي عبد الحكيم سيرة الزير سالم ليصور ببراعة أسباب وسبل تلاحم وتقاطع اعراب اليمن وبلاد الشام والعراق، ثم يضعنا امام التماثل والتشابه للسير والملاحم التاريخية بحيث لم ينفرد «كليب» المغدور أخو بطلنا الزير سالم في «التنكر بجلود الحيوانات» للنيل من «الملك التبع حسان اليماني» الذي سلب منه حبيبته «الجليلة» اخت «الأمير جساس» قاتل «كليب» غدرا. بحيث تنتشر حالات التنكر المذكورة بشكل واسع «بين قبائل افريقيا الشرقية» كما لا تخلو من هذا التماثل «ملحمة أو سيرة عربية» ولكي تكتمل حالة التنكر لأخذ الثأر واسترجاع الحبيب حبيبته، تعطي الملاحم

دوراً ومكاناً مناسباً للمرأة الحبيبة لمشاركته الرجل في عملية التنكر وفي هذه الحالة نجد التشابه والتماثل في العديد من الملاحم والسير التاريخية. فليست «الجليلة» وحدها من ساعدت بني قومها في أخذ الثأر من الذي يهيم فيها حبا «الملك حسان اليماني» فهناك «دليلة الفلسطينية» التي خدعت الآله «ـ الشمسي ـ شمشون» العبري «داخل مخدعها ليله عرسه بمساعدة شيوخ قبيلتها» وقد «عرفت سره وصرعته» كما ان قصة كليب و«الجليلة» تتوحد مع «الالياذة الهومرية واغتصاب باريس الطروادي هيلانه الاغريقية منيلاوس».

ومن خلال التطابق والتوحد والتماثل يتطرق الباحث شوقي عبد الحكيم الى عادة ضرب التخت من الرمل عند العرب حينما يبغون الاقدام على عمل كالسفر أو الغزو او التحالف مع غيرهم الخ، وحينما اجتمع «قرع بني مرة ـ داخل التحالف القيسي «ضربوا تختا من الرمل ليروا ما هو مخبأ لهم» فأظهر لهم الرمل، ان أميرهم «جساس مقدر له أن يقتل الأمير كليب، ويظهر الزير ويأخذ ثأره»...»

وهنا يأتي دور الجليلة مرة اخرى، وتقوم هنا بـ«حبك سلسلة متوالية من المكائد والشرور ضده» و«الجليلة» اخت «جساس» وزوجة «كليب» لا تنفرد وحدها في الملاحم والسير التاريخية بحبك «المكائد والشرور» بل تتوحد معها «زليخة» التي أرادت الوقيعة بالحبيب يوسف حينما فشلت في اغوائه.

ولم يغفل الباحث مكانة المرأة المرموقة وحكمتها المتميزة، حينما وحد وربط حكمة ورجاحة عقل اليمامة بنت «كليب» التي «تسمت بها عدة مدن عربية في شمال الجزيرة وجنوبها اليمني» بالمرأة العربية التي تنبأت «بجبش الشجر الجرار الزاحف على مدينتها» وهي «فابيولا زرقاء اليمامة»، ويشير الباحث إلى تجلي عقل «اليمامة» في حدثين بارزين في الملحمة الزيرية، اكتشافها لأخيها «الجرو» ابن «كليب» الذي لم تره ولم يراها، والذي لم يعرف أنه ابن «الملك كليب» وذلك حينما طلبت منازلته في ساحة الوغى، وعندما نازلها، قامت بملاعبته بتفاحات أربعة بدل مبارزته، فلاعبته «بلعبة كانت تلاعب بها أبوها كليباً» ورأته يفعل ما كان يفعله «أبوها كليبا».

ويشير الباحث إلى «وسيلة التعرف بالتفاحات» بأنها كانت موجودة «عند اليونان، كما جاء في «اوديسا» هوميروس، هي الوسيلة التي عرفت بها بنيلوب عودة ـ زوجها المتنكر ـ الغائب أوليس (اوديسيوس) الى قصره في بايتاكان في زي سائل».

أما الحدث الثاني، فهو معرفتها بواسطة فراستها الجرم الذي أقدم عليه العبدان اللذان رافقا الزير في جولته في الأمصار والمدن التي أرادها هو في أيام شيخوخته، حين أقدما على قتله في «بلاد الصعيد» بعد أن تعبا من خدمته ومن مشقة الطريق، وقررا بعد قتله اخبار أهله بأن المنية قد وافته أثناء السفر والتجوال.

إلا أن الزير حينما أدرك أن العبدين مصممان على قتله طلب منهما حمل وصيته إلى أهله، وقد فعل العبدان ذلك لاسيما وانهما لم يريا في الوصية ما يريب وهي:

«من مبلغ الأقوام ان مهلهلا
لله دركما ودر أبيكما»(١٠)

وقد فسرتها اليمامة بعد أن عجز عن تفسيرها أخوها «الملك الجرو» وبقية قومها، على أنها تعني التالي:

«من مبلغ الأقوام ان مهلهلا
أضحى قتيلا في الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما
لا يبرح العبدان حتى يقتلا»(١١)

وفوراً أمرت بقتل العبدين، وهكذا تكون الجليل قد ثأرت لأبيها «الملك كليب» حينما تعرف قومها بفضلها على أخيها «الجرو» الذي غادرهم وهو في بطن امه «الجليلة» حينما أمرها الأمير المهلهل أن تترك ديار بني تغلب الى اهلها بني بكر قوم اخيها، الأمير جساس.

وبعد ان عرف الجرو انه ابن الملك كليب قتل مع عمه الزير، الأمير جساس، وثأرت أيضاً لمقتل عمها بقتل العبدين.

ويذكرنا شوقي عبد الحكيم حينما يصل مع النص الأصلي الى ملحمة «البسوس» اخت الملك المغدور «التبع» اليماني بأسمائها المتعددة «سعاد، وتاخ بخت، وهند،' والبسوس» بالعجائز

الشريرات المتآمرات زارعات «بذور الانشقاق والفتنة بين أبناء العائلة ــ الوطن ــ الواحد» والبسوس منهن «وهي هنا أشبه بشخصيات الساحرة «كركة» التي تزخر بها الحكايات والفابيولات الخرافية، بدءاً من الحكايات والفابيولات العثروتية ــ السامية ــ حتى الهومرية الهلينية، مرورا بخرافات العصور الوسطى، والى ما يتواتر على أيامنا».

وحينما يذكر المرء البسوس يتبادر الى ذهنه فورا «ناقتها» فالناقة مرادفة فيه للبسوس مثلما هي أي الناقة مرادفة لـ «صالح» لابل ان ناقة البسوس هي «من سلالة ناقة صالح» لهذا «أخذت» البسوس «طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر وعمدت إلى ناقتها الجرنانة ــ سراب ــ فدهنتها جيدا بذلك الطيب، وأمرت أحد عبيدها أن يذهب بها ويجيء بالقرب من شرفة مجلس الأمير جساس، فلما استنشق جساس الرائحة، وعرف بأنها لناقة العجوز، فاستدعاها ليسألها عن الناقة، أخبرته البسوس بأنها من «سلالة ناقة صالح وفيها خصائص غريبة، فان بعرها من المسك وعرقها من الزباد».

لقد عملت المستحيل في ان يقوم «كليب» او قومه بعقر الناقة، وحدث. ما خططت له فنزلت الكوارث بسبب ذلك، كتلك الكوارث التي نزلت على قوم صالح حينما عقروا ناقته.

فما كان من جساس بعد أخذ ورد إلا طعن كليب غدرا «وتركه هاربا مجندلا، لعبد البسوس، الذي تقدم منه ليجز رأسه ويعود به الى سيدته «الهايلة...» أي البسوس، إلا أن «كليب» استلهم «العبد حتى يكتب مرثيته الذاتية ووصيته الى أخيه المهلهل» يطلب منه أن لا يصالح.

ورفض الزير المصالحة وكل العروض التي تقدم بها إليه بنو بكر وأصر على تنفيذ وصايا «كليب العشرة».

«هديت لك هدية يا مهلهل
عشر أبيات تفهمها الذكاة»

المراجع

(١) راجع: كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، المجلد الأول، ص١٢ ترجمة د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٣.

(٢) راجع: د. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص ٢٠٠، دار الثقافة ــ بيروت، ١٩٥٨.

(٣) راجع: سفر أخبار الأيام الثاني ٢:٧، والمصدر السابق، ص ١٠١.

(٤) راجع: كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، المجلد الأول، ص ١٢.

(٥) راجع: قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهل، المكتبة الثقافية، بيروت، الكاتب غير معروف. ص ٥٢، النص قديم.

(٦) راجع: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الثاني، ص ٣٨٤.

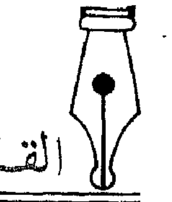
(٧) راجع: المصدر نفسه.

(٨) راجع: المصدر نفسه.

(٩) راجع: كل من، صبح الأعشي ــ ١ ــ ص ٣٦١، ونهاية الارب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، ص ٣٢٦، وبلادنا فلسطين، الجزء الأول القسم الأول، ص ٧١٣.

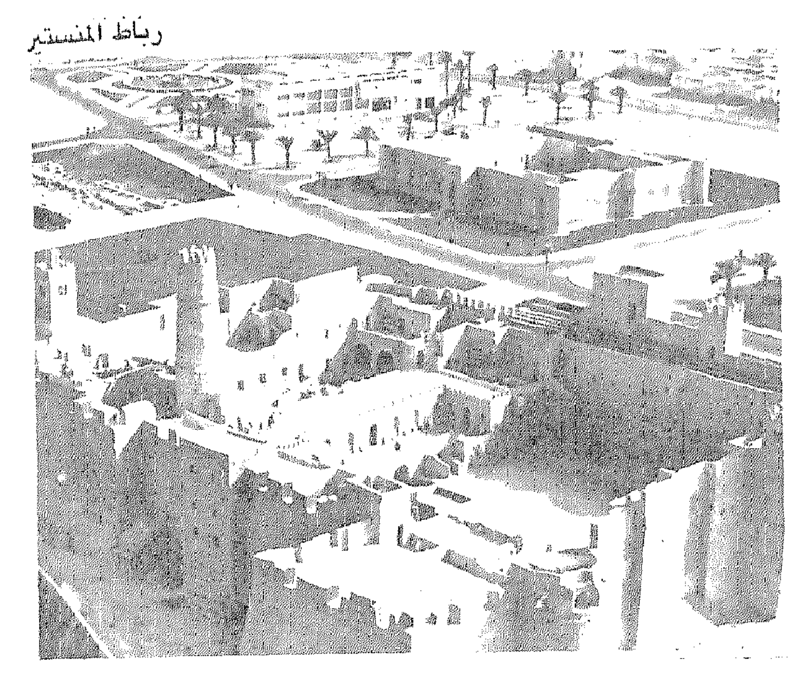
(١٠) راجع: قصة الزير سالم... النص قديم، ص ١٦٨.

(١١) راجع: المصدر نفسه.



المنستير
ماضيها ومعالمها التاريخية والأثرية

رباط المنستير





ان المنستير كانت معقلا من معاقل النصرانية الكبرى قبل الاسلام وكانت اللغة اليونانية واللغة للاتينية شائعتين شيوعا كبيرا بين اهل تونس، ولفظة المنستير لفظة يونانية لاتينية اعتاد اهل البلاد اطلاقها على المؤسسة النصرانية التي يؤمها الرهبان والتي تسمى بالعربية الدير. فلما جاء هرثمة بن اعين بمؤسسة الرباط الى تونس لم ير اهل البلاد في هذه المؤسسة من حيث نظامها ومن حيث بنائها ما يختلف كثيرا حسب الظاهر ـ عن الدير او المنستير، فاطلقوا على الرباط الاسلامية نفس الاسم الذي كانوا يطلقونه على الدير النصراني.

ان رباط المنستير لم يُبْنَ في موقع المدينة القديمة والمسماة روسبينا، وان روسينا نالت شهرة عظيمة ايام الحملة التي شنها قيصر على افريقية على منافسه بمباي، ولكن الرباط بني على بضعة اميال من المدينة روسبينا. ويعود تاريخ تأسيس رباط المنستير الى عام (١٧٩ هـ) الذي اسسه القائد هرثمة بن أعين بأمر من الخليفة العباسي هارون الرشيد لتحصين الشواطيء من الغارات البحرية المتوالية. ويعود سر هذه الغارات الى الصراع العظيم الذي قام منذ ظهور الاسلام بين النظامين النظام الاسلامي والنظام البيزنطي وهو صراع بدأت تدور رحاه في شرقي البحر الابيض المتوسط، ومنه انتقل الاسلام الى الغرب وازداد انتشاره في ذلك الاتجاه، كما انتقل الصراع بين الاسلام وبين الروم ولم يفلح الروم في مقاومتهم للاسلام في الشرق مما أكد، تفوق القوى الاسلامية على القوى النصرانية، فراح البيزنطيون يسددون ضرباتهم على النواحي الافريقية التي لم يمض زمن طويل على فتحها والتي لم تنظم فيها بعد مسائل دفاعية ناجحة. وهكذا ظلت السواحل التونسية منذ السنوات الاولى من الفتح الاسلامي هدفا لغارات الاسطول الرومي ومحاولة النزول فيها. وتمادى هذا الاعتداء الى ان اصبح قاسيا لا يحتمل في ايام هارون الرشيد الذي لم يـر للأمر غير احد حلين: اما التنازل للروم عن الممتلكات الاسلامية واما الدفاع والاحتفاظ بها. فاختار هارون الرشيد الحل الثاني فامر قائده هرثمة ان يجهز الشواطيء التونسية بشبكة متسلسلة من الحصون تقيم في وجه العدوان الرومي حاجزا منيعا يصد هجومات العدو فوقع الاختيار على موقع (المنستير) لاقامة الحصن الاول من

هذه السلسلة على ان يعمّم بناؤها في بقية السواحل على هذا المنوال.

وتذكر النصوص التاريخية ان هرثمة قبل ان يبدأ بمشروع التحصين اراد ان يأخذ استشارة فقهاء القيروان، فاعطوه الاستشارة وزكوه وايدوه على هذا المشروع فخطط الى اقامة مباني على الساحل لتكون الحماية مزدوجة ما بين الجيش والشعب، فذهب اعوان هرثمة يطلقون الدعايات والكرامات الموجودة في هذا المكان ومن جملة الدعايات ان (المنستير) هو باب من ابواب الجنة من دخله فاز بالمغفرة واندفعت الناس الى البناء والعمار في منطقة (المنستير) حتى غصت بالناس. وجاء على لسان المؤرخين ان (المنستير) كان لها رباطات اخرى استطعنا أن نعرف منها رباطين هما رباط سيدي ذويب، ورباط (السيدة ام ملال عمة المعز بن باديس امير البلاد في النصف الاول من القرن الخامس الهجري ــ والقرن الحادي عشر الميلادي).

ويذكر علماء الاثار ان موقع (المنستير) لم يكن فيه مدينة حول الرباطات ــ قبل القرن الرابع الهجري ــ لذلك اخذت جموع اهل السنة تنزح الى رباط المسنتير هروبا من اضطهاد الفاطميين ولذلك كثر الوافدون على ذلك المكان واتسعت رقعة الاحياء. فقامت الدولة بحمايتها فبني السور في عهد هارون الرشيد كما تناقل الرواة والمؤرخون.

وفي القرن الخامس الهجري ــ الحادي عشر ميلادي، اصبحت (المنستير) حسب الظاهر ــ مزارات دينية تؤمه الناس من صوب وناحية بل انه اصبح له جاذبية مثل جاذبية القيروان او اكثر، وان الامير المعز ابن باديس لما توفيت عمته لم يرض بدفنها الا في (المنستير) واصبح ذلك سنة سار الناس عليها في القرون الموالية فكانوا يأتون بأمواتهم برا او بحرا لدفنهم بجوار المرابطين والمجاهدين الابرار.

وهكذا اخذت (المنستير) تفقد صبغتها العسكرية منذ القرن الخامس الهجري، حتى ظهر في صقلية نظام ملوك النرمان الذين استولوا على الحكم واجلوا منها المسلمين وراحوا يهددون الشواطىء التونسية كما استولوا على بعض المدن كمدينة صفاقس، ومدينة المهدية، فلما شعر سكان (المنستير) بالخطر يهددها من قبل النرمان راحوا يحصنوا اسوارهم وقلاعهم.

هذا وقد اعدوا للمدينة باباً تجاه السور الداخلي اي سور البلد والباب الثاني الى سوق الربع الذي تهدم منذ سنوات قليلة وكان عليهما تحصينات ودفاع ذو اهمية عظيمة.

هذا وقد تفاقمت الحملات البحرية واشتدت في اواخر القرن الثالث. ففي القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي بدأت المناوشات فاضطر الامير الحفصي (ابو فارس عبد العزيز) الى اعادة تحصين الرباط. وفي القرن الموالي قام الصراع العظيم بين الاتراك العثمانيين والاسبان، كما نزل الاسبان في المدن التونسية الساحلية وحصنوها ثم خرج منها الاسبان واستقر بها الاتراك فاحكموا تحصينها من جديد وجعلوها صالحة للمدفعية، ومن التحصينات منها مدينة (المنستير) ورباطها الذي احاطوه من ناحية البحر بسور ثان يدعم وسائل الدفاع عن المدينة.

وهكذا اصبحت (المسنتير) قلعة منيعة تحمي شعبا مناضلا توالت عليها المحن ولكنها ظلت صامدة شامخة عالية الرأس امام الاجيال والتاريخ.

اهم المعالم الاثرية بالمنستير

قصر الرباط الكبير: بنى هذه القلعة عام (١٧٩هـ ــ ٧٩٥ م) القائد هرثمة ابن اعين الموفد الى تونس من قبل هارون الرشيد، وقد شيدت هذه القلعة باسم المرابطين الذين كانوا يؤمونها من كل ناحية للمرابطة والجهاد في سبيل حماية الاوطان من الغارات التي كان يشنها الروم على السواحل التونسية. وقصر الرباط هو اليوم متحفاً للفنون الاسلامية بالمنستير.

دمشق محمد الفاكياني
الجمهورية العربية السورية



الكتب المهداة إلى مجلة "تاريخ العرب والعالم"

ديوان الشيباني الموصلي
ويليه مختصر الجلي على بيتي العلاّمة الموصلي، جمعه وحققه ونشره صلاح الدين خليل الشيباني الموصلي ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ....
تحقيق: صلاح الدين خليل الوصلي

التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين
ـ الجزء الأول ـ الامارة المعنية (١٥١٦ ـ ١٦٩٧) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ ....
العميد ياسين سويد

دراسات عربية وإسلامية
مهداة إلى إحسان عباس ـ الجامعة الاميركية ....
تحرير: د. وداد القاضي

الألعاب الشعبية الكويتية
وصفها ـ أدواتها ـ وما يتعلق بها
الجزء الأول من حرف الألف ـ إلى حرف الذّال ....
سيف مرزوق الشملان

النظام الاقليمي العربي
دراسة في العلاقات السياسية العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ....
جميل مطر
د. علي الدين هلال

العلم في التاريخ
المجلد الأول ـ بزوغ العلم ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٨١ ....
تأليف: جون ديزموند برنال
ترجمة: د. علي علي ناصف

TUNIS
Naguère et ajourd'hui adaptation française de Claude Roy Publications du Secrétariat à l'Information et au Tourisme.
Zoubeir Turki

من التجزئة... إلى الوحدة
القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية
مركز دراسات الوحدة العربية ـ ١٩٧٩ ....
د. نديم البيطار

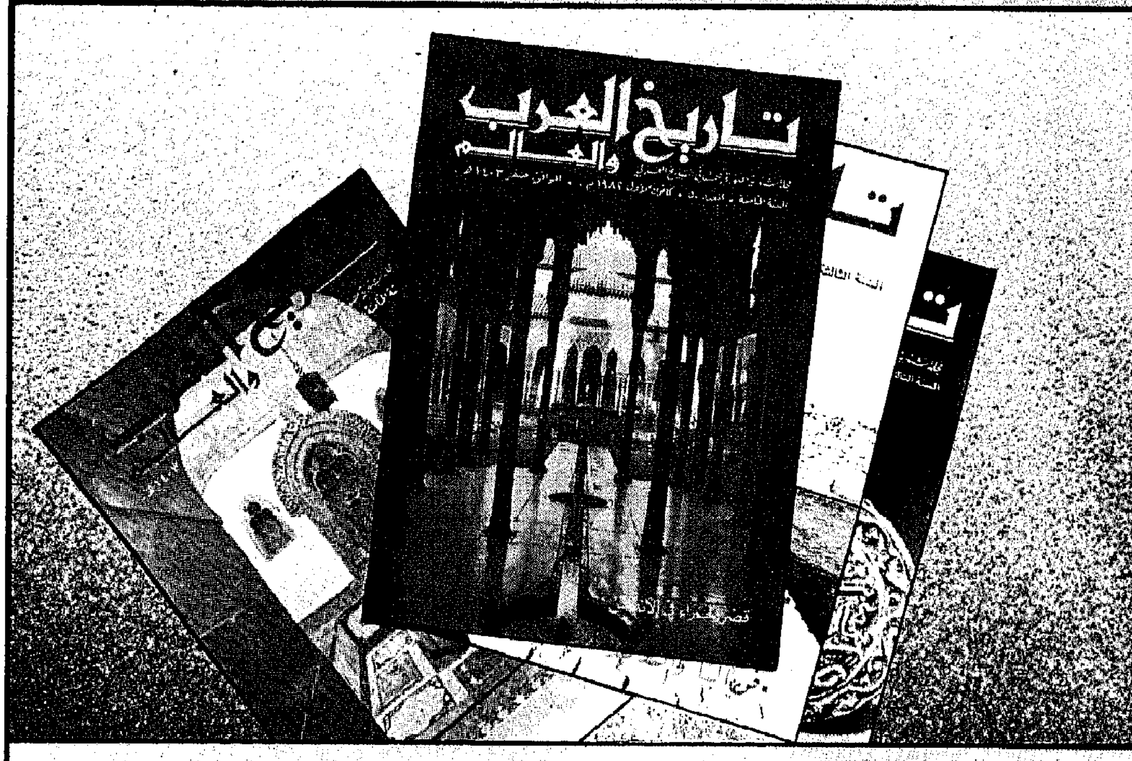
مغازي رسول الله (صلعم) لعروة بن الزبير برواية ابي الأسود عنه (النسخة المستخرجة: من منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج) ـ الرياض ـ ١٩٨١ ....
جمعه وحققه وقدمه: د. محمد مصطفى الأعظمي

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٢٥ ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الأخرى .... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣


MEA
لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول
بيروت
القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
مسقط
رأس الخيمة
أبوظبي
دبي
الدوحة
البحرين
الظهران
الكويت